إبراهيم نصر الله

شرفة رجل الثلج

رواية

فريق
متميزون
E-BOOK

مكتبة فريق (متميزون)

لتحويل الكتب النادرة الى صيغة نصية

قام بالتحويل لهذا الكتاب:

كلمه مهمة: هذا العمل هو بمثابة خدمة حصرية للمكفوفين، من منطلق حرص الجميع على تقديم ما أمكن من دعم للإنسان الكفيف، الذي يحتاج أكثر من غيره للدعم الاجتماعي والعلمي والتقني بحيث تعينه خدماتنا هذه على ممارسة حياته باستقلالية وراحة، وتعزز لديه الثقة بالنفس والاندماج بالمجتمع بشكل طبيعي.
وبسبب شح الخدمات المتوفرة للمكفوفين حرصنا على توفير خدمات نوعية تساعد الكفيف في المجالات التعليمية العلمية والثقافية وذلك بتسخير ما يتوفر من تقنيات خاصة لتحويل الكتب الي نصوص تكون بين أيديهم بشكل مجاني، ويمكن لبرامج القراءة الخاصة بالمكفوفين قراءتها.

مع تحيات: فريق (متميزون) انضم الى الجروب

انضم الى القناة

شرفة رجل الثلج

(رواية)

إبراهيم نصر الله

عن الكتاب..

تتشكل "شرفة رجل الثلج" من ثلاث روايات، في رواية واحدة، تكمل الواحدة منها الأخرى وتنقدها، تتوغل في خفاياها، تنفيها حيناً، وتكملها حيناً آخر، كما تفتح باب الشك واسعاً لتأمل مامرّ من أحداثها..

.. وتجيء هذه الرواية ضمن المشروع الروائي (الشرفات) الذي افتتحه نصرالله برواية "شرفة الهذيان" التي قوبلت باهتمام نقدي وأكاديمي استثنائي. ولعل أبرز مايحمله هذا المشروع تلك الطاقة التجريبية العالية التي يكتب فيها هذا الكاتب نصه؛ وإذا كان الحديث قد دار طويلاً عن علاقة الشكل بالمضمون، فإن نصرالله يقدم رؤية متقدمة في هذا المجال في مسألة اعتبار الشكل مضموناً بذاته وهو يؤكد أن لاوجود للحقيقة الخالصة عبر هذا البناء الفني الذي يقدمه؛ وهكذا يتجلى الشكل في هذه "الملهاة العربية" فعلاً إنسانياً، مرتبطاً أشد الارتباط بمعنى الحرية في نص روائي طليعي يحاور الراوي العليم ويشكك في مطلق علمه !

لقد كتب أحد النقاد حين صدرت "شرفة الهذيان": إن إبراهيم نصرالله يعيد اختراع أدب العبث من جديد؛ لكن مايمكن أن نلمسه أيضاً، هو قدرته، في هذا المشروع ورواياته الأخرى على تقديم اقتراحات لاحدود لها في مجال البنية الروائية والغوص في عالم الإنسان العربي في هذه اللحظة الراهنة بشجاعة وعمق نادرين.

لقد انشغلت روايات عربية كثيرة في مسألة استهداف الأنظمة لخصومها من سياسيين ومثقفين وناشطين في حقول المعرفة والحياة العامة، لكن هذه الرواية تذهب في اتجاه آخر، متأملة كيف عملت هذه الأنظمة على تحطيم كل إنسان على حدة، كما لو أن كل إنسان خصم، وعدو، ماحوّل الشعوب إلى كتل هلامية غير فاعلة وغير منتمية والأوطان إلى مجرد أمكنة مفرغة من معانيها.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

فريق متميزون E-BOOK

الأحلام التي لا تنبت في أرضها تتحوّل إلى كوابيس!

مَن الذي يضحكُ هنا، من الذي يضحك؟
لقد انتهى الضحكُ هنا.
إن من يضحك هنا، يثيرُ الشّك
في أنَّ لديه أسباباً للضحك.
من الذي يبكي هنا، من الذي يبكي؟
لم يعد لأحدٍ أن يبكي هنا.
إن من يبكي هنا، يعني كذلك
أن لديه أسباباً للبكاء

غونتر غراس، من (أغنية للأطفال)
ترجمة د. مصطفى ماهر

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

فريق متميزون
E-BOOK

2:35 صباحًا...

كانوا هناك،

مدير السجن، مساعد النائب العامّ، الطبيب الشرعيّ، مدير إدارة السجون، ومساعد متصرّف العاصمة. لكن الوضع لم يكن طبيعيًّا، إذ كانت الجُملة التي التقطتها أذنا بهجت كفيلة بأن توضّح كلّ شيء.

«هذا الأمر يحدث للمرّة الأولى»! -قال مدير السجن.

وحين رأى الجريدة في يد بهجت، اقترب منه وتناولها بعنف كما لو أنّه يصفعه، فارتدَّ بهجت إلى الوراء، وقد أدرك أنّ العاصفة التي في الخارج تعصف بكلّ مَن في الداخل بصورة أعتى.

لم يستطع أن يعرف سبب المشكلة، لكن حجمها كان أكبر من أن يتوقّعه.

بعصبيّة قرأ مدير السجن الخبر الذي يفترش، واضحًا، مساحةً لا بأس بها من الصفحة الأولى.

التفت إلى بهجت، كما لو أنّه السبب، وسأل: «كيف يمكن أن نفسِّر أمرًا كهذا؟! خبر يقول إنّه أُعدم، وحقيقة تقول إنّه لم يزل على قيد الحياة»؟!

لم يعرف بهجت أنّ الأمنيات يمكن أن تتحوّل إلى لعنات بهذه السرعة. حاول استعادة ما مرّ به ليلة أمس، فأحسَّ بأنّ مرضه كان نعمة لم يكن عليه أن يفرّط بها بسهولة؛ كان عليه أن يتمسّك بالفِراش وألاّ يغادره قبل ثلاثة أيّام على الأقلّ. أحسَّ أنّ الحياة أعطته من الإشارات ما يكفي لكي يفهم، ولو واحدة منها، لكنّه، وكما وصفه ذات يوم ذلك المحرّرُ الذي أصبح رئيسًا للتحرير: حمار.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

فكّر بهجت في ما يحدث، وهو يرى مدير السجن يدور حول نفسه في ذلك الصمت المعدنيّ الذي تحتكّ به أنفاس الموجودين في المكتب، فيصدر عن ذلك الاحتكاك صريرٌ شيطانيّ، كما لو أنّ مَن في المكتب كائنات أسطوريّة، وجدت نفسها غريبة حائرة خارج الحكايات التي كبرت فيها.

في تلك اللحظة، لم يعرف بهجت ما إذا كان قد فعل الشيء الصحيح، حين حمل الصحيفة وأتى، أم أنّه فعل الأمر الأسوأ في حياته، حيث كان في إمكانه أن ينام ليله كلّه خارج هذا الكابوس، حالمًا بذلك الفرح الذي سكنه طيلة ما بعد الظهر!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

فريق
متميزون
E-BOOK

أولا !!!

1

قمرُ الدنيا ومحطّم قلوب العذارى،

ذلك ما رأته فيه «جميلة» فتاة المحاسَبة، أو زهرة الفرح الوحيدة في حياته.

لكنّه كان يعرف أنّه ليس كذلك.

وهنا تكمن المشكلة، إذ كان على يقين من أنّ من يراه لا يمكن أن يعود فيتذكّره؛ وهكذا كان يقدِّم نفسه للشخص الواحد عشر مرّات، أو أكثر: «هل تتذكّرني؟ أنا بهجت حبيب»! بحيث أصبح ذلك مصدر إزعاج لكثير من زملائه في الجريدة، خلال فترة عمله الأولى. وفي إحدى المرّات أوشك عبد اللطيف، الذي كان ما زال محرّرًا، أن يطرده. لكن الأسوأ من ذلك كلّه، ولأنّ الشرّ جزء من النفس الإنسانيّة، بات كثيرون يدَّعون عدم معرفته!

تكرّر الأمر قديمًا مع الأستاذ الذي تلقّى على يديه علوم المحاسبة في تلك الدورة المكثّفة التي استمرّت ستّة أشهر، نال بعدها شهادة مُصدَّقة من وزارة التربية والتعليم، وقد رأى بهجت، أيامها، أنّ أفضل وسيلة للحصول على وظيفة، هي في تعلُّمه مبادئ المحاسَبة، فلا شيء يتكاثر وينمو وينتشر مثل الشركات، ولا شيء يزداد أكثر من الأموال!

كلّما كان بهجت يدخل الصفّ، ويجد أنّ الأستاذ قد سبقه، كان يقوم بتقديم نفسه له: «أنا بهجت حبيب، طالب محاسَبة»، فيطلب إليه الأستاذ أن يأخذ مقعده، في الوقت الذي تحتلّ الابتسامات المكتومة وجوه زملائه وزميلاته.

وحدها حبيبته جميلة، التي أصبحت في ما بعد زوجته، لم تكن تبتسم.

بعد انتهاء أحد الدروس، حرصت أن تتلكّأ ما استطاعت، كي تخرج معه، هو الذي لم يكن يغادر القاعة إلاّ بعد مغادرة الجميع.

التفتَ إليها مستغربًا، كما لو أنّها تريد حرمانه من أن يكون آخر المغادرين! وقبل أن يستدير ببصره بعيدًا عنها، قالت له: «يا بهجت يا حبيب، أنا أحفظ اسمك جيّدًا، وأظنّ أنّ الجميع باتوا يحفظونه»!

في أوج دهشته، لأنّها كانت أوّل فتاة تحدِّثه، وأوّل فتاة تحفظ اسمه كاملاً وتضيف إليه ياء النداء، بما يعنيه موقع هذه الياء في جملتها، سألها: «صحيح»؟! فرَّدت بحزم مؤنِّب: «بالتأكيد»!

... ...

حينما بدأا يهبطان الدرج سألته: «ولكن لماذا تواصل تذكيرنا باسمك»؟! وعندها التفتَ إليها، وردَّ بأسى غير عاديّ: «هذا لأنّ الناس تنسى. دائما الناس

تنسى».

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

كان يمكن أن يتعلّم درس حبيبته ويُصدِّقه، لكن ذلك الحسّ الغامض الذي يسكنه عميقًا، الحسّ الذي ينخره («لا يمكن أن يحبّكَ أحد إلى هذا الحدّ أو يتذكّرك»)، جعله يواصل عادته تلك، حتّى بعد أن أعطته نفسها دون ممانعة تُذْكَر.. حتّى بعد أن تزوّجته وأنجبت منه بنتًا وولدين.

بهجت حبيب

صورة مقرّبة

وجهه مستدير أقرب للاستطالة، نضِرٌ، لولا بعض آثار حَبِّ الشَّباب التي لا تكاد تُلحَظ على جانبي جبينه وخديه، لكن وجودها ظل يزعجه، ولم ينسَ الأمر، إلاّ بعد أن قَبِلَتْ به «جميلة» زوجاً لها ورُزق بولده الأوّل، وتأكّد بذلك من أنّ امرأته لن تتركه لسبب هامشيٍّ كهذا.

عيناه جميلتان كعيني أمه، ولسبب ما، كان يُخجِله جمالُهما، مثله مثل كثيرين اعتادوا ألا تكون الأشياء الجميلة لهم، لفرط تعاستهم، وهكذا، لم تُسوّل له نفسه أن يرفعهما لاستراق نظرة عابرة لجارة على شبّاك مطبخها، أو لأخرى تنشر الغسيل في شرفتها الضيّقة وتبكي بسبب اتّساع الأفق.

شارباه ظَلاّ كثّين سبع سنوات، وحين تسلَّم عمله الموعود في الجريدة، بدأ ينحتهما يومًا بعد يوم، بهدف التخلّص منهما في النهاية، لكنّهما حين أوشكا أن يُصبحا بسماكة خيط قِنَّب، أبصر فيهما جمالاً لم يكن يتوقّعه، فأبقاهما على حالهما. ولو حَلَقَهما، لكان أقرب ما يكون مظهراً إلى الممثل «آندي غارسيّا»!! وهذه ليست مبالغة، لأننا لا نتحدّث عن الممثل «ألن ديلون»!

عنقه، تتوسّطه تفّاحة آدم بصورة لطيفة، وفي أعلى صدره هناك عدّة شَعرات لم يزد عددها ولم تتكاثر منذ بلغ الثامنة عشرة من عمره.

ذراعاه طويلتان أيضًا، وكذلك أصابع يديه، وقد كان هذا وحده كافيا ليوصله إلى زميلته ذات المؤخِّرة العظيمة، في أيّ وقت يريد.

خصره دقيق، لكنّه متناسق مع جسده الممشوق، وربما هذا ما ردع جارته ذات يوم، وجعلها تُخفض عينيها خجلا، هي التي خرجت صارخة لأن ابنه «فريد» قد شجَّ رأس ابنها. وقد كان ما فعله ابنه أكبر جريمة، حتى ذلك اليوم، يرتكبها أيّ فرد من أفراد العائلة!

قامته طويلة، كما لو أنّ الحياة أعطته كل ما يريد، ليبلغ ما يريد، ولكنها ذات يوم غيّرت رأيها، أي الحياة!، فلم تترك له شيئًا واحدًا يمكن أن يصل إليه في

الأعلى!

لا مسرعًا يمشي ولا بطيئًا..

لم يره أحد مستعجلاً قَطّ...

مرّة واحدة تقافز فوق درج مبنى الصحيفة خارِجًا، لأنّه كان مضطرّا إلى اللحاق بقَدَرِه!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

2

لم يدخل بهجت عالم الصحافة مطمئنًّا لموهبته في كتابة موضوعات التعبير بالعربية والإنجليزية التي كانت أحد أسباب اجتيازه لامتحانات الثانوية العامة بنجاح غير متوقع، ولا للموهبة التي ورثها عن أمّه فقط، أمّه التي استطاعت أن تنتزع من الجارات لقبها الكبير («رويتر»)، فقد أمضى أسبوعًا كاملاً، قبل أن يطأ عتبة الصَّحيفة، في قراءة الصحف المحلّـيّة كلّها، بل وأحضر عددًا من الصحف التي قيل له إنّها تحتلّ الصّدارة في عالم الصحافة العربيّة اليوم.

راح يقرأ بتمعّنٍ الكيفيّةَ التي تُدبَّج فيها الأخبار، وتُصاغ العناوين. أكثر ما راقه عناوين الأخبار الرياضيّة التي كانت مثيرة على نحو غير عاديّ:

«رياح (الأهلي) تعصف بحقول (الزمالك)»

«الأُسُود غير المروَّضة تستعيد مخالبها وتفتك بِـ (زامبيا)»

«ساعة الحقيقة تدقّ أمام (تونس)»

«أُسُود الأطلسيّ تتخلّى عن أنيابها»

«نسور قرطاج تكشّر عن أنيابها»

لاحظ الخطأ الذي وقع فيه محرّر الرياضة! فالنسور لا أنياب لها.

بعد ذلك، حزن كثيرًا، لأنّهم لم يعيّنوه في قسم الرياضة، رغم أنّه لم يكن يعرف عدد أفراد فريق كرة القدم. ولعلّهم لو فعلوا وعينوه في ذلك القسم، لأراحوه من تلك التجربة المريعة التي ستقضُّ مضجعه، وتعصف بحياته في جوف تلك العاصفة التي تنتظره على عتبات المستقبل!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

3

كان أكبر امتحان واجه حياته المهنيّة هو الامتحان الأوّل، حين قال له عبد اللطيف مسؤول القسم: «لقد اخترتُ لك بعض الدوائر الرسميّة والوزارات المتجاورة. هذا يساعدك على الإنجاز بصورة أفضل، وسيوفّر عليك التنقُّل من منطقة إلى أخرى». شكره بهجت من كلّ قلبه. فأوضح له عبد اللطيف: «إنّك لا تتلقّى معاملة خاصّة هنا. هذا ما نفعله مع كلّ مندوبينا. هل سمعت؟ كلّ مندوبينا. فهمت»؟! لكن بهجت أصرّ على شكره.

انحنى عبد اللطيف على طاولته وكتب قائمة بأسماء هذه الدوائر والوزارات، وناولها لبهجت، وعاد إلى انشغاله بأحد الأخبار.

أمسك بهجت الورقة بحرص، كما لو أنّها كتاب تعيينه في الوظيفة (كان بالطبع سيخضع للتجربة لمدّة ثلاثة أشهر، وإذا أثبت جدارته، فسيعيَّن موظّفًا رسميًّا). قرأ الأسماء واحدًا إثر الآخر برِضا، وعندما وصل إلى اسم مديريّة الأمن، راحت يده ترتجف. حاول أن يقول شيئًا ما، فارتجفت شفتاه أيضًا. رفع عبد اللطيف رأسه وسأله: «هل هناك ما يزعج حضرتك»؟! فأجاب بتأتأة واضحة: «لا».

- توكَّل على الله إذن، وشوف شغلك.

قبل أن يصل باب القاعة، جاءه صوت عبد اللطيف آمِرًا: «انتظر قليلاً. سيرافقك زميلُك الذي سبق أن كان مندوبَنا في هذه الدوائر، ليقدِّمكَ إلى مسؤولي العلاقات العامّة فيها».

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

لم يكن ذلك الزميل قد وصل. وهكذا جلس بهجت ينتظر وصوله محدِّقًا في رأس القلم الأحمر في يد عبد اللطيف، القلم الذي كان يطيح برؤوس الكلمات كسيف، ناثرًا لون الدم بقعًا شاسعة على الصفحات البيضاء.

ولكي لا يظلّ بهجت مشغولاً بالتّحديق في رأس القلم، طلب منه عبد اللطيف أن يحرّر رُزمة من أخبار المحافظات القصيرة، ويضع لها عناوين مقترَحة.

قفز بهجت من مكانه. تناول الورقات بيد مرتجفة، الورقات التي كانت قد وصلت بالفاكس، وعاد إلى مكانه وجلس على الكرسيّ. رآه عبد اللطيف فقال: «لن تستطيع تحرير أيّ شيء وأنت تجلس على كرسيّ! فاهم؟! تلزمكَ طاولة». نهض بهجت نحو طاولة مقابلة لطاولة رئيسه؛ في الوقت الذي راح فيه عبد اللطيف يفكّر في ما قاله، دارت رقبته حول جسمه باحثة عن أحد قد يكون سمِعَهُ، أحد يمكن أن يفسِّر كلامه عن التحرير والكراسيّ بصورة

مريعة. لم يجد، فأخذ نفسًا عميقًا. حدّق في بهجت ليرى أيّ أثر لأيّ تعبير على وجهه، يمكن أن يشير إلى أنّه فهم الجملة بطريقة أخرى. لم يعثر على ذلك التعبير. عاد وتنفّس مرّة أخرى ملء رئتيه، وهمس لنفسه: «من يعرف؟! لعلّ واحدًا مثل بهجت يكون أخطر ممّا أتصوّر»! وتذكّر أنّه بدأ حياته في الصحافة عامل كافيتيريا.

بعد قليل عاد عبد اللطيف ونظر إلى بهجت، فوجده غارقًا في الأخبار التي أمامه بسلام غريب. وهنا يمكن القول إنّه استلطفه فعلاً.

حين التفتَ إليه عبد اللطيف مبتسمًا، أحسَّ بأنّه يعطيه الإشارة لكي يتقدَّم نحوه ويريه ما أنجزه من تحرير ومن عناوين.

مرتبكًا تقدّم نحو الطاولة، لكن ابتسامة عبد اللطيف، المعلَّقة فوق شفتيه كلوحة مُغبرّة، ساعدته على التقدّم بارتباك أقلّ. ناوله الأوراق، فأمسك عبد اللطيف بقلمه الأحمر الذي كان قد وضعه جانبًا، وبدأ يعمل.

العنوان الأوّل نجا من أيّ لطخة حمراء، وكذلك السطران الأوّل والثاني، وحين وصل إلى السطر الثالث قال لبهجت: «يا بهجت، هذه التاء مفتوحة، وليست مربوطة، لن يتعِبك الأمر إذا ما فتحتَها! أوكي»؟! هزَّ بهجت رأسه، وواصل مراقبة رأس القلم الأحمر يطيح برقاب الكلمات خائفًا من هبوب تعليق آخر.

عبد اللطيف الذي استلطفه قال له: «لا عليك! مندوبو المحافظات يتفنّنون في ارتكاب الأخطاء، ولا أكتمك أنّني في حالات كثيرة لا أستطيع معرفة الخطأ من الصواب، لفرط ما أرى الخطأ منتشرًا في أخبارهم، وبعد فترة لا تعود قادرًا على التمييز، ولهذا قرّرتُ الابتعاد عن هذه الأخبار حفاظًا على لغتي»!

كان عبد اللطيف يتحدَّث عن اللغة مثل الكتّاب الذين قرأ بهجت حوارًا مع أحدهم، أثناء فترة الاستعداد للعمل في الصحيفة، وقد بات يتوقّع أن يعيّنوه في أيّ قسم، ولذا جهّز نفسه ليقول لهم إنّه يستطيع العمل حيثما أرادوا، بدءًا من قسم الرياضة مرورًا بالثقافة والمنوّعات حتّى قسم الدوليّات.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

بعد قليل أطلّ الزميل الذي سيرافقه في جولته الأولى، فعرَّفه بهجت بنفسه: «بهجت حبيب». «أهلاً» ردّ الزميل، لكنّه لم يُعرّفه بنفسه!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

فريق
متميزون
E-BOOK

4

كانت زيارة دائرة العلاقات العامّة في وزارتَي الأشغال والتربية في غاية اللطف، تعرّفوا إليه، خيّروه بين الشاي والقهوة والزهورات. شَكرهم، ولكنّهم أصرّوا، وعندها اختار الشاي. وبالغوا في الترحيب حين دَعَوْهُ للتعرّف إلى سكرتيرة وزير الأشغال ومديرة مكتب وزير التربية.

فتاتان جميلتان؛ لا يستطيع أحد المجادلة في ذلك.

كانت حصيلة الزيارة أكثر من خبر: بدء العمل في بناء أحد الجسور، وانتداب عدد لا بأس به من المعلّمين للعمل في السعوديّة، وخبر طويل عن اجتماعات لجنة صندوق إسكان المعلّمين.

أربكه أن يحمل أخبارًا طويلة منذ اليوم الأوّل، لكن زميله الذي رافقه أسرَّ له: «كلّ شيء جاهز، ما عليك سوى أن تضع العناوين، وتسلّم الأخبار للسيّد عبد اللطيف. وإذا كنت تريد أن تعطي الانطباع أنّك تبذل جهدًا كبيرًا، ما دام اليوم هو يومك الأوّل، فأظنّ أنّ قيامك بنسخ الأخبار بخطّ يدك سيعطي انطباعًا جيّدًا بأنّك عملتَ وتعبتَ، وأنصحك: افعل ذلك دائمًا، لا اليوم فقط».

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

عند اقترابهما من بوّابة مديريّة الأمن، راحت دقّات قلب بهجت تتسارع شيئًا فشيئًا، وحين بلغا البوّابة، ورأى الحارسين برشّاشيهما الخفيفين ينتصبان هناك، ويحدّقان فيهما مثل صقرين متأهّبين، تجمّد في مكانه، إذ لم يسبق له أن اقترب من أيّ مركز للشرطة إلى هذا الحدّ.

لم يكن يتخيّل أنّ المستقبل أعدّ له من المفاجآت ما لا يمكن احتماله!

انتبه زميله الذي سبقه خطوات، فعاد وأمسكه من يده وجرَّه، في الوقت الذي بدا وكأنّ الحارسين يأخذان وضعًا هجوميًّا.

بيُسْرٍ شديد كلّ شيء حدث بعد ذلك. حدّق الحارس في بطاقة الزّميل، ثمّ تحدَّث مع موظّف الاستقبال، الذي طلب منه أن يُدخلهما.

تجاوزا البوّابة.

كان الحارسان قد عادا لينشغلا بما أمامهما، في الوقت الذي أحسَّ فيه بهجت أنّهما يشهران سلاحهما نحوه، منتظرَيْنِ أيّ حركة مشبوهة قد تصدر عنه.

صعدا الدرجات القليلة المؤدّية للمبنى الحجريّ الضخم، مخلّفين الساحة الواسعة المزروعة بالأزهار وراءهما. سبقه زميله وأشرعَ البابَ ودعاه

للدخول، وفي تلك اللحظة أدرك أنّ بهجت قد جفّ تمامًا، ولو ذُبح لَما نزلت منه قطرة دم واحدة -كما يقال.

حين رأى بهجت ابتسامة مسؤول العلاقات العامّة ببزّته الرسميّة، الابتسامة المعزَّزة بعناق شديد لزميله، وبقُبلتين على خدّيه، ترحيبًا، أدرك أنّ الوضع أفضل ممّا تصوّر، وأنّ عليه أن يكون أكثر شجاعة، لأنّه منذ هذه اللحظة سيكون في خدمة الشرطة، كما كانت الشرطة وستبقى، دائمًا، في خدمة الشعب!

بحزن واضح، وبتهذيب غير عاديّ، قال مسؤول العلاقات العامّة لزميل بهجت: «إنّهم سيفتقدونه، فعلاً، بعد ثلاث سنوات من العمل معًا، ولكن الله سيعوّضنا بهذا الرجل الطيّب»! وأشار إلى بهجت، وعندها وجد بهجت أنّ عليه أن يقول شيئًا، فشكر مسؤولَ العلاقات العامّة بابتسامة، كم كان صعبًا استحضارها، وبكلمة طيّبة انتزعها بجهد عظيم من حنجرة متصحِّرة.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

كلّ الأفكار السيّئة، المسبقة، عن زميله في العمل تلاشت بمجرّد أن غادرا مديريّة الأمن، حين راح يُسدي إليه النصيحة تلو النصيحة؛ وحين أخرج بهجت قلمه ليكتب ما يسمعه، قال له زميله: «لا تكتب شيئًا! لقد انتهت نصائحي، وأظنّ أنّ كلَّ ما يلزمك أن تعرفه في عالم المندوبين الصحفيّين، ستعرفه في أسبوع لا أكثر»!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

فريق متميزون
E-BOOK

5

أنهى اليوم الأوّل لعمله في الصحيفة بابتهاج شديد، عاد إلى البيت بسرعة، وما إن أشرعت أمّه الباب حتّى انحنى مقبّلاً يديها.

بعد تناوله طعام الغداء، نام كطفل رضيع معافى، وحين استيقظ متأخّرًا في السابعة مساء، سمع فرقعات. مضى نحو نافذة غرفته، فرأى الألعاب الناريّة تملأ الفضاء، أخرج رأسه محاولاً أن يراها بصورة أفضل، فأحسّ بأنّها كانت أشبه بتاج فوق رأسه.

حاول بهجت أن يتذكّر أيَّ مناسبة وطنيّة تقتضي احتفالاً من هذا النوع، وقد كان إطلاق هذه الألعاب الناريّة أمرًا نادرًا دائمًا. لم يتذكّر أنّه قرأ في الجريدة عن أيّ مناسبة، ولكي يطمئنّ أكثر، انطلق باحثًا عن الجريدة التي أحضرها مجّانًا - كما سيحدث كلّ يوم فيما بعد- لم يجدها. سأل أمّه، فقالت له إنّها وضعتها تحت الخبز الساخن، كي يبرد قليلاً، فقال: «كان يمكن أن تضعي أيّ صحيفة أخرى غير صحيفتنا»! فقالت إنها استخدمتْ كلّ النسخ التي سبق له أن اشتراها استعدادًا لعمله.

كانت رائحة الخبز الطازج تفوح من الجريدة التي أحضرتها، وكم أحبَّ تلك الرائحة (رائحة العيش والأمل بحياة جميلة قادمة -لا بدّ.)

بحث في الصفحة الأولى عن مناسبة وطنيّة. لم يجد.

ألقى نظرة متفحّصة على الصفحة الثانية:

25 ٪ من المواطنين يعانون من أمراض نفسيّة تتوزّع بين الانفصام

العقليّ والقلق والاكتئاب والرهاب الاجتماعيّ والوسواس القهريّ

سألته أُمه: «في إشي»؟

فردَّ بصوت أكثر من مسموع: «لا شيء»!

وضع الصحيفة جانبًا. سمعتْ أمّه خطواته. سألته: «إلى أين»؟

لم يُجب.

مضى إلى المرآة. تأمّل نفسه. ابتسم.

أحسّ أنّ ابتسامته باهتة أكثر ممّا يتصوّر. عبس.

أحسّ بأنّ عبوسه أكثر حلكةً ممّا يتصوّر.

عاد للصحيفة.

سمعت أمّه خشخشة الأوراق.

قرأ:

98 ألف حادث سير نجم عنها 899 حالة وفاة

و 18 ألف جريح في عام واحد

50 ٪ من المواطنين يعانون من نقص فيتامين (ب 12) في الدم

30.5 ٪ نسبة الإصابة بالسكري من النوع الأول والثاني

و 25 ٪ ضغط الدم

13 ٪ من الطلبة يذهبون للمدرسة وهم جياع

70 ٪ يعانون من تضخم في قرنيات الأنف الداخلية

ضعف السمع لدى المواطنين يفوق النسبة العالمية بـ 3 أضعاف

300 ألف مواطن مصابون بأمراض الحساسية

40 ٪ من إجمالي الوفيات بين المواطنين سببها أمراض القلب والأوعية الدموية

61.2 ٪ من مجموع إصابات السرطان تحدث في العاصمة

سألته أمّه: «في إشي»؟

«لا شيء»! أجابها. «لا شيء»!

«قلتُ لكَ، لا يوجد شيء، ولكنّكَ لم تصدقني»! جاء صوتها من المطبخ؛ في الوقت الذي راح فيه بهجت يجمع نِسب المصابين بالأمراض في ذهنه، دون أن يعرف لماذا يفعل ذلك في الحقيقة؛ وحين استعاد أرقامًا أخرى كان قد قرأها في فترات متباعدة، أحسّ أنّ النسبة العامّة تفوق الـ 400 بالمائة، بمعنى أنّ كلّ مواطن مصاب بأربعة أمراض على الأقلّ، وهكذا خطر له أن يُطلق على هذا الشعب لقب «الشعب المريض». لكن ذلك لم يكن دقيقًا بالنسبة له ولأمّه على الأقلّ، فهو خالٍ من أيّ مرض، وكذلك حبيبته جميلة.

عند ذلك تساءل: ألهذا السبب، ربما، تُطلق الألعاب الناريّة؟!!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

حاول أن يتذكّر ما إذا كانت هناك أحداث كبرى قد حصلت في ذلك اليوم نفسه، تكون هي السبب الفعليّ. استرجع ما سمعه من أخبار، لم يتذكّر سوى

أخبار عن مقتل عشرين فلسطينيًّا في نابلس، وغارة أمريكيّة أسفرت عن قتل أربعين عراقيًّا في الموصل.

- لا شيء! همس لنفسه، وأعاد: لا شيء!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

حين تأكّد له خلوّ اليوم من المناسبات، أمسك أمّه من يدها ليريها المشهد. وقد بات أكثر انشغالاً بالمعنى المضمر للألعاب الناريّة.

بعينيها الواسعتين الجميلتين المشرعتين دائمًا على المستقبل، راحت تراقب مهرجان الألوان معه بفرح طفلة صغيرة، وقالت له في موجة عاطفة جارفة: «أراهنك أنّ هذه البهجة ستكون في انتظارك دائما»!

وصدَق ظنّها.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

6

أدرك بهجت أنّ عالم الصحافة لا يختلف كثيرًا عن عالم أمه، وأنّ كلّ ما يلزمك كي تكون ناجحًا هو أن تجد الأجواء المناسبة لأصحاب الحكايات والأسرار كي يبوحوا بأسرارهم، لكنّه لم يكن يملك أيّ شيء يساعده على تحقيق هذا.

فلا البيت الذي يسكنه يمكن أن يكون ملائمًا لدعوة الكبار واصطياد أخبارهم، ولا ما يملكه من مال يؤهّله أن ينفرد بأحدهم في مطعم محترم. كلّ ما لديه هو تلك الإعلانات المجّانيّة التي يوفّرها لمديري العلاقات العامّة، أو الصور الجديدة التي ينشرها إلى جانب خبرٍ ما، لمديرٍ ما، أو وكيل وزارة، وهذا هو سقفه النهائيّ.

كلّ ذلك جعله ينطوي وينطوي على نفسه أكثر فأكثر.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

7

تحسّنت الأمور قليلاً حين بات يعمل، في فترة ما بعد الظهر، في مكتب الإعلانات الذي كان السيّد عبد اللطيف أسّسه ، عبد اللطيف الذي وجد نفسه محرّرًا في الصحيفة بين ليلة وضحاها، في ترقية لم يسبق أن عرفتها الصحافة من قبل (من عامل في مقهى الجريدة إلى محرّر دفعة واحدة). ولم يكتفِ السيّد عارف غنّام رئيس التحرير بأن رفَّعه إلى هذه المنزلة، بعد أن اكتشف أنّ منزلة عبد اللطيف السابقة لا تليق به، مرافقًا ونديمًا له، بل أوحى إليه بتأسيس مكتب للدّعاية والإعلان.

للحقّ، لم يكن عبد اللطيف يخطئ في الإملاء كثيرًا، وكانت نباهته تتجّلى في معرفة الفرق الدقيق بين التاء المربوطة والتاء المفتوحة. كانت التاء المربوطة نقطةَ ضعفِ بهجت، رغم أنّ عبد اللطيف لفت انتباهه إلى الخطأ الذي يتكرّر يوميًّا في أخبار مديريّة الأمن التي يأتي بها في الثانية من بعد ظهر كلّ يوم، ما عدا أيام الجمعة، لا لأنّ الجرائم والحوادث تأخذ إجازة في ذلك اليوم، بل لأنّ دائرة العلاقات العامّة في المديريّة هي التي تكون في إجازة.

للمرّة العاشرة، أو ربّما بعدها بكثير، كان عبد اللطيف مضطرًّا أن يصرخ في وجه بهجت، وهو يحدّق في عدد لا يستهان به من التاءات المفتوحة التي تحوّلت إلى مربوطة: «يا أخي، آن لك أن تفهم. افتحها! افتحها»! راح يصرخ، في الوقت الذي كان فيه يضع قبضتيه على صدره ويفرد ذراعيه على وسعهما، ويعيد بحركة مَعيبة: «افتحها، افتحها»! وظلّ يُردّد إلى أن انتبه أنّ هناك زميلة في القاعة تُطْرِق خجلاً، ولم تكن غير زميلته ذات المؤخّرة العظيمة، أعظم مؤخّرة في مسيرة الصحافة. الزميلة التي لم تكن تطيق وجودها مع بهجت تحت سقف واحد، إلى حدّ الذهاب، بعد سنوات، إلى السيّد عارف غنّام رئيس التحرير، باكية، لتدّعي أنّ بهجت لا يكفّ عن التحرّش بها!

حين استدارت خارجةً، تأمّل السيّد غنّام مؤخّرتها، وقال: «يستحقّ العقابَ هذا الأعمى إذا كان الأمر حقيقيًّا هذه المرّة»!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

استدعاه مكتفيًا بتوبيخه، بعد أن تأمله جيّدًا وأدرك أن رجلًا بهذه الوسامة لا يمكن أن يلاحظ وجود مؤخرة بتلك الضخامة.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

فريق
متميزون
E-BOOK

8

بعد أن أدرك عبد اللطيف أنّ بهجت فهم الدرس جيّدًا، استنادًا إلى وسائل التوضيح التي استخدمها، أي قبضتيه وذراعيه، طلب منه أن يجلس بعد الظهر في مكتب الدعاية ويستقبل المكالمات الهاتفيّة والإعلانات التي يمكن أن تُمْلَى عليه، أو تلك التي تَرِدُ عَبْر الفاكس.

بعد يومين من بدء عمله، قرّر بهجت أن يدعو زميلته في معهد المحاسبة إلى المكتب. كانت الخطوة أكثر من جريئة، رغم أنّ زميلته كانت منهكة مثله تمامًا، فمرّة يلتقيها أمام أحذية «باتا»، ومرّة أمام أحذية «عصفوركو»، كي لا ينتبه إليهما أصحابُ المحلَّيْن والعاملون فيهما، إن تكرّر الموعد في مكان واحد.

جاءت على استحياء، وعندما جلست زَفّت إليه خبر تعيينها في روضة للأطفال، وأكّدت أنّها خطوة مهمّة في انتظار أن تسنح لها الفرصة لتعمل محاسِبة في إحدى الشركات أو موظّفة في أحد البنوك.

لم يَرَها عبد اللطيف في المكتب، إلاَ في المرّة الرابعة. كانت تخرج في كلّ مرّة قبل موعد وصوله في السادسة مساء، وبهذا كانت تضرب عصفورين بحجر، تفلتُ من إحراج يسبّبه وجودها في المكتب وحيدةً مع بهجت، وتفلتُ من أسئلة أهلها لأنّها لا تكون مضطرّة إلى العودة إلى بيتها بعد مغيب الشمس.

المدهش في الأمر، في نظر بهجت، أنّ عبد اللطيف لم يغضب حين رآها، بل ابتسم بسعادة غير عاديّة، وحين خرجتْ قال له: «أرجو أن تكون قادرًا على تدبير أمورك معها»! فأسرَّ له بهجت، وقد رأى مدى سعادته، بأنّهما يتحادثان فقط، وأنّه يفكّر في الزواج منها.

«زواج»؟! -أعاد عبد اللطيف مستغربًا، وأضاف: «لا تهدر شبابك على هذا النحو! انظر إليّ، أنا الآن أكبر منك بعشر سنوات على الأقلّ، ولا أفكّر في أمر كهذا. نصيحتي: تلحلح! البنات يعشقن الشبّان اللعوبين. إن لم تفعل هذا فسأغضب منك فعلاً»!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

في المرّة التالية تجرّأ بهجت وأمسك يدها، إذ أحسّ بأنّ كلام عبد اللطيف هو إنذار لا مجرّد نصيحة، فهو رجل قادر على أن يضرّه، إلى حدّ أن يُلبِّسه تهمة؛ فعلاقات عبد اللطيف باتت معروفة، ودائمًا قيل إنّه عمل في مقهى الصحيفة

للتمويه، فقد كانت له مَهمّة أخرى، أكبر، وأخطر، وإنّ الترقية التي حصلت لم تكن قرارَ السيّد عارف غنّام رئيس التحرير، بل من فوق... فوق!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

فريق متميزون
E-BOOK

9

في نهاية الشهر، سلَّم عبد اللطيف المكافأة لبهجت، فوضعها في جيبه، كما يحدث في المعتاد، دون أن يعدّها، احترامًا بالطبع؛ لكنّه حين وصل إلى البيت فوجئ بأنّ ربع المكافأة قد طار.

لحسن نيّته، فكَّر: «لا بدّ أنّ السيّد عبد اللطيف أخطأ بصورة غير مقصودة»!

السيّد عبد اللطيف قال له: «لا، لم أخطئ؛ فهناك تكاليف دائمًا لأيّ عشّ غرام! وقد أصبح هذا المكتب عشّك وعشّ عصفورتك، أليس كذلك»؟! كان الصمت هو الإجابة التي استطاع بهجت أن يردّ بها. لكنّه أحسّ أنّه بات أكثر جرأة فيما بعد، كلّما وصل عبد اللطيف ووجدها في المكتب، ووصل الأمر ببهجت أن يضع يده على كتفها ويضمّها إليه، وفي مرّة تالية وضع يده على فخذها بطريقة بدت غير مقصودة، وفي مرّة أخرى بعدها، أبقى يده على فخذها لتحسّ أنه يفعل ذلك بطريقة مقصودة، ولم يرفع يده إلاّ بعد أن أحسّ بأنّ تلك اليد ستحترق ويحترق هو بدوره معها.

بعد خطوته الجريئة، الخطوة الحقيقيّة الأولى للألف ميل، أحضرتْ له مجموعة من الملابس الداخليّة، ممّا أوقد النار في جمجمته وهو يُقلِّبها بين يديه.

عبد اللطيف كان يعرف كلّ شيء، أوّلاً بأوّل، وهكذا ما إن خرجت من المكتب ذات مساء، حتّى صرخ وقد فقد أعصابه: «ما الذي تنتظره أيّها الأحمق؟! يدك ووضعتَها حيث تريد، والملابس الداخليّة إشارة يفهمها لوح الجليد وليس ابن آدم فحسب»!

راح عبد اللطيف يذرع الغرفة ذهابًا وإيابًا وهو على وشك الانفجار، وحين توقّف أخيرًا، حدّق في وجه بهجت بعينين حمراوين ووضع قبضتيه على صدره وأشرع ذراعيه، وعندها أدرك بهجت أنّه سيقولها، وقد قالها فعلاً، وبصوت عالٍ جدًّا: «افتحها»!

في المرّة التالية، قام بهجت وفعلها، بعد ممانعة ضعيفة منها.

قام بهجت وفعلها كما لو أنّه ينفّذ أمرًا عسكريًّا.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

بعد أسبوعين أسرَّ بهجت لعبد اللطيف: «فتحتُها»!

«تعجبني»! -علّق عبد اللطيف بانتشاء.

- سأتزوّجها. قال بهجت.

- من التي ستتزوجها؟!

- جميلة. أجاب بهجت.

- جميلة صاحبتك. ما غيرها؟!

هزّ بهجت رأسه بفرح، ففاجأه عبد اللطيف بتلك الكلمة التي لم يكن يتوقّعها: «حمار»!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

فريق متميزون
E-BOOK

10

حينما اختلى بهجت بزوجته جميلة في الشرفة، الشرفة الصغيرة المطلَّة على الشارع، شارعهم ذي النهاية المغلقة (Dead End). وبعد أقلّ من ربع ساعة أمضاه في تأمّل صفاء عينيها، بدأت سهام ناريّة تنطلق في السماء، بطريقة لم يسبق له أن رآها. راح يفكِّر في معنى انطلاقها في ذلك اليوم على وجه التحديد. دعا امرأته أن تقترب من حافة الشرفة لترى بصورة أوضح، وبقيا واقفين هنالك، إلى أن هدأ كلّ شيء.

حينما عادت السماء لحلكتها المعتادة، وقد اختفى مهرجان اللون، نظر بهجت إلى زوجته وقال: «أتريدين أن تقولي لي إنّ ما حصل هذا المساء مصادفة»؟! سألته عمّا حدث، فأوضح لها: «الألعاب الناريّة». هزّت رأسها غير مدركة ما يدور في ذهنه، فقال: «ألا ترَيْن أنّه حدث في اليوم الأوّل لحياتنا معًا»؟! هزّت رأسها موافقة، لكنّها لم تستطع أن تربط ما بين الألعاب الناريّة وهذه المناسبة العظيمة. «لعلّها صدفة» -قالت.

- لا. ليست صدفة. منذ متى لم تسمعي وتَرَيِ الألعاب الناريّة في سماء العاصمة؟!

- منذ زمن بعيد.

- بالنسبة لي، لم أسمعها، ولم أرها، منذ ذلك اليوم الذي تسلَّمت فيه عملي. كان لا بدّ من فرحة كبيرة إذًا، كي تعود هذه الألعاب من جديد وتملأ السماء، ولم تكن هناك مناسبة أكبر من مناسبة زواجنا!

جميلة

صورة مقرّبة

اسمها في روحها، وليس ذلك محاولة هروب من القول إنّها ذات جمال شديد التواضع.

لا شيء في وجهها ممّا في وجه بهجت، لكن بشرتها ناعمة كفرو أرنبة، ووجهها مستدير كتفّاحة خضراء.

في عينيها ذكاء خجول، لا يستطيع المرء التقاطه إذا نظر إليها، أمّا إذا أتيح له تتبُّع حركاتها وعاداتها والطريقة الدقيقة التي ترسم فيها كلّ خطوة من خطواتها، فسيكون على يقين من أنّ كلّ ما تريده يتحقّق.

وللحقّ، لم تكن تريد الكثير، فمنذ اليوم الذي انتبهت فيه إلى وجود ذلك العدد الهائل من الأخوات في بيتها، رأت أنّ فرصة الزواج لن تأتي، وإن انتظرتها

ألف عام! وهكذا قرّرت الخروج إلى معهد المحاسبة، وحين أبصرت تلك الثغرة في جدار بهجت، أدركت أن حساباتها ستكون أكثر من صحيحة.

لا تسير إلى جانب زوجها، أبدًا، فهناك خطوة تجعله متقدِّمًا عليها، سواء أكان ذلك في الشارع أم في أيّ مسألة يتبادلان الرأي حولها، وهذا ما جعل بهجت يطمئنّ إلى أنّه سيّد بيته دون منازع.

حين تزوّجا، كان وزنها خمسة وخمسين كيلوغرامًا، وقد قاومت كثيرًا كلّ أسباب زيادة الوزن، كي لا يقال إنّ حياتها في بيت أبيها كانت حياة فقر، أو يقال إنّها لا ترحم زوجها لفرط ما تستهلك من طعام.

لم تسمن، إلاّ بعد إنجابها ابنها الأوّل، بعد ابنتها الأولى والأخيرة، وتأكُّدها من أنّ بهجت بات متعلّـقًا بفريد والصغيرة، وبات متطلّعًا بشغف لأن تحمل بعبد الحليم.

لم تحتذِ الكعب العالي، منذ أن تعرّفت إلى بهجت، كي لا يقال إنها لن تبلغ كتفه إلا بكعب عال، لكنّها لسبب ما، لا يعرفه أحد، أصبحت أطول قليلا، مما كانت عليه، بعد الزواج.

تؤمن إيمانًا مطلقًا بأنّ نقطة ضعف الرجل في ملابسه الداخليّة، ولا يستطيع أحد معرفة مصدر هذه الفكرة، لكنّها باتت تؤمن بفكرتها أكثر بعد أن استطاعت الوصول إلى ما هو أبعد من قلب بهجت!

قليلة الكلام، لكن ذلك لا يعني أنّها كثيرة الصمت، فدائمًا هنالك ما يُشغلها.

لا تتقن شيئًا كالانتظار، ودائمًا تخرج منه مُنتصِرة.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

فريق متميزون E-BOOK

11

أثبت عبد اللطيف نباهته أكثر فأكثر، بحيث أصبح السيّد عارف غنّام -رئيس التحرير- يعتمد عليه في أشياء كثيرة، من تلك الأشياء التي لا يكتمل وجود الويسكي والفودكا إلاّ بها. ولم تكن الموهبة تنقصه في هذا المجال، ففي كل مرّة كان يغيب فيها، كان يعود وفي يده واحدة من أولئك الفتيات الجميلات، كما يقول المثل «تحلُّ عن المشنقة» لفرط جمالها. كانت الفتيات يحضرن باسمات ويخرجن ضاحكات، ولهذا الأمر أسبابه الواضحة التي كان أوّلها كرم السيّد عارف غنّام، أمّا ثانيها فربما كان متعلّقًا بقدراته، لأنّه وبعد أن أخذ عبد اللطيف معه في سفرات كثيرة، كمرافق أمين، وخبير في الخدمات اللوجستية (هكذا كان يدعوها السيّد غنّام)، بات على يقين من أنّه يملك تلك القدرات. وفي إحدى الليالي، تبسّط السيّد عارف غنّام معه في موجة انتعاش وأسرَّ له (أنّ خدماته أنقذت حياته الجنسيّة العائليّة حقًّا، فقد وصل به الأمر إلى طريق مسدود مع أمّ العيال، أمّا الآن فقد نالها نصيب، إذ أصبح يعود إليها بعد كلّ سفر كعريس جديد!). ثمّ صمت قليلاً وقال له: «هي استفادت، وأنا استفدت، وأنت ستستفيد!». وعندما سمع عبد اللطيف الجملة الأخيرة ارتجف، وأبعد ساقه القريبة من ساق السيّد عارف غنّام بسرعة، إلى ذلك الحدّ الذي كان لا بدّ للسيد غنّام من أن ينتبه إليه، وعندها أطلق السيّد غنّام ضحكة مدوّية، لا يمكن لأحد أن يُطلقها في بار فندق لندنيٍّ بهذه الفخامة، وقال له: «من هذه الناحية، اطمئنّ! لا أظنّ أنّ ما لديّ قادر على القيام بمَهمّة مستعصية كهذه!». ليلتها ضحك عبد اللطيف، ولكن ليس من قلبه، ربّما من عُشر قلبه، ولم يكن هذا بحاجة إلى دليل، لأنّ ضحكته، حتّى في ذلك البار اللندنيّ ذي الأضواء الشاحبة، كانت أشحب من أيّ ضحكة رسمها إنسان على شفتيه.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

12

لم يعد «بهجت حبيب» فرِحًا بالأخبار التي يحملها للجريدة، سواء أكانت تلك المتعلِّقة بوزارة التربية أم بوزارة الأشغال العامّة أم بأخبار الحوادث. كان أقصى ما يمكن أن يحصل عليه خبر تعبيد شارع في إحدى القرى النائية، أو قائمة بترفيع عدد من المعلّمين، وحين يبلغ الأمر ذروته يحصل على خبر عن إلقاء القبض على مجموعة من مهرّبي السجائر.

وكلّها، كلّ تلك الأخبار، كانت تُستخدم آخر الليل لملء بعض الفراغات في أسفل الصفحات، أو بين الإعلانات والتقارير الطويلة، وغالبًا كان المحرّر يحذف عدّة أسطر من أسطرها القليلة أصلاً.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

كان بهجت يحلم بخبر، خبر حقيقيّ، وفي لحظات كثيرة فكّر في أن يصنعه، أن يقوم هو بشيء كبير ما، يستحقّ النشر على الصفحة الأولى، لكنّه هدأ أخيرًا، بعد أن أجرى بحثًا خاصًّا على الصفحات الأولى لسبعة أعداد من صحيفته والصحف الأخرى.

تابع كلّ ما يُنشر في هذه الصفحات، وقام بوضع جدول يستطيع من خلاله تصنيف الأخبار المنشورة فيها. وبعد ثلاثة أيام تلت ذلك الأسبوع، أمضاها في تأمّل حصاد الدرجة الأولى للصحفيّين ووكالات الأنباء، كاد يستسلم تمامًا، وذلك أنّه لم يكن في مستطاعه، في أيّ حال من الأحوال، منافسة ما ورد في القائمة، حسب الترتيب الذي وضعه، إذ:

لم يكن بهجت ملكًا أو رئيس دولة عربيّة أو دولة صديقة أو حتّى عدوّة، من أولئك الذين تُنشر أخبارهم يوميًّا؛ ولذلك وضع إشارة «إكس» صغيرة، لا تكاد تُلحظ، على رأس القائمة، خوفًا من أن تقع هذه القائمة، لسببٍ ما، في يد أحد كَتَبة التقارير، فيحسب أنّ بهجت يخطّط لانقلاب كونيّ.

لم يكن بهجت وزير ماليّة، ولا وزير نفط، ولا وزير حرب أو دفاع، ولا رجل أعمال تسبّب في إفلاس بنك، ولا آخر فرّ خارج البلاد بأموال المساهمين، ولا حتّى شاعر بلاط؛ ولذلك وضع إشارة «إكس» صغيرة أيضًا على رأس القائمة لأسباب لا يعرفها.

لم يكن بهجت غارةً جوّيّة أمريكيّة على العراق، ولا اجتياحًا عسكريًّا إسرائيليًّا لمدينة جنين أو قطاع غزّة، ولم يكن تفجيرَ عبوة ناسفة في رتل من المدرّعات الأمريكيّة في ضواحي قندهار؛ ولذلك وضع إشارة «إكس» صغيرة فوق رأس هذه القائمة أيضًا، كي لا يُتّهم، إن وقع بصرُ أحد عليها، بأنّه جزء من شبكة إرهاب عالميّة.

لم يكن بهجت مبعوثًا دوليًّا رفيع المستوى، ولا رئيسًا أمريكيًّا سابقًا يقوم بزيارة متأخّرة للشرق الأوسط، ولا زعيمًا لحزب يحقّق نسبة غير متوقّعة في انتخابات بلاده، أو يصاب بهزيمة غير متوقّعة؛ ولذلك وضع إشارة «إكس» صغيرة فوق رأس القائمة، كي لا يعتقد أحد، إن رآها، أنّه يخطّط لعمليّة اغتيال، أو يفكّر في الانتساب إلى هذا الحزب أو ذاك.

لم يكن بهجت منشأة نوويّة، أو واحدًا من أسواق المال الكبرى، أو تحويلات العاملين في الخارج، أو إجراءاتٍ حكوميّة للحدّ من ارتفاع أسعار الدواجن واستقرار أسعار العدس، أو حتّى حالة للطقس ستشهد تغيّرًا دراماتيكيًّا، أو

ستبقى على حالها خلال اليومين التاليين؛ ولذلك وضع إشارة «إكس» صغيرة فوق رأس القائمة، لأسباب لا يعرفها.

لم يكن بهجت دولارًا يهبط إلى أدنى مستوياته، أو ينًّا يشهد صعودًا جنونيًّا، أو جنيهًا إسترلينيًّا يستردُّ عافيته، أو يورو يحافظ على ثباته، أو ذهبًا يراوح مكانه؛ ولذلك وضع علامة «إكس» صغيرة فوق رأس القائمة، كي لا يُتّهم، إن وقعت القائمة في يد أحد، بأنّه يخطّط للسطو على بنك أو محلّ مجوهرات.

لم يكن بهجت تحطُّمَ قاذفة أمريكيّة في مَهمّة عسكريّة، أو صهريجًا ممتلئًا بالوقود ينزلق على أحد المنحدرات، متسبّبًا في حرق مجموعة من السيّارات بمن فيها، أو سفينة معونات خيريّة يختطفها قراصنة قبل وصولها إلى هدفها؛ ولذلك وضع علامة «إكس» صغيرة فوق رأس القائمة، كي لا يُتّهم، إن رآها أحد، بأنّه يخطّط لمؤامرة، هو نفسه لا يعرفها.

لم يكن بهجت فنّانًا كبيرًا يرحل فجأة، أو كاتبًا عالميًّا يختطفُ جائزة نوبل من الكتّاب العرب مرّة أخرى وأخرى، أو إعلانًا عن حفل مغنّية جريئة، أو حتّى مقالاً افتتاحيًّا؛ ولذلك وضع إشارة «إكس» فوق رأس القائمة لأسباب لا يعرفها.

لم يكن بهجت طالب ثانويّة عامّة يقتل عشرة من أفراد عائلته، لأنّ أحدهم هدّده بعواقب وخيمة إن لم يحصل على معدّل يؤهّله لدخول جامعة رسميّة، ولم يكن فارًّا من وجه العدالة، أو امرأة تقطع عضو طفلها انتقامًا من زوجها الذي تركها؛ ولذلك وضع إشارة «إكس» صغيرة فوق رأس القائمة، وجلس حزينًا يفكّر في ذلك المصير الحالك الذي ينتظره وينتظر أولاده وأحفاده، حين لا يستطيع أن يثبت، أو يستطيعوا أن يثبتوا، أنّه عمل ذات يوم في جريدة محترمة.

لكن نسمة الأمل التي هبّت، آخر الليل، جعلته يعترف أنّه قد يكون واحدًا من المندوبين المحظوظين، ما دام مكلّفًا بأخبار مديريّة الأمن، التي غالبًا تتصدّر أخبارُها الصفحاتِ الأولى. رغم يقينه أنّ الأخبار الكبيرة لا تُخصَّص لأمثاله. لم ييأس، حتّى وهو يستعيد دروس التجربة المريرة لأمّه «رويتر» في هذا المجال، الدّروس التي يمكن أن تكون خارطة طريق لطلبة الصحافة والإعلام في أفضل الجامعات.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

فريق متميزون
E-BOOK

14

الشيء المؤكَّد أنّ كلّ أخبار الحارة كانت مكشوفة لـِ «رويتر»: مَن أحبَّ، ومَن تزوّج، ومَن تشاجرتْ مع مَن، ومَن على وشك الطلاق، ومَن استيقظت راضية صبيحة يوم الجمعة، ومن لم تستيقظ راضية؛ مَن تجاوزت حدودها مع زوجها، فنالت صفعة لم تكن تتصوّر في أيّ يوم من الأيام أنّها ستتلقّاها منه، ومَن تجاوز زوجها حدوده معها فراضاها برحلة إلى المتنزّه القوميّ!

كانت جارتهم «رشيدة» أشبه بكرة مصمتة، لم تتمكّن «رويتر» من معرفة ما فيها قَطّ. تمشي ككرة مصمتة، وتجلس مع جاراتها ككرة مصمتة، وحين تُغلق باب بيتها خلفها، يغدو البيت كلّه كرة مصمتة.

إلى منصب مديرة مديريّة في وزارة التنمية كانت رشيدة قد وصلت، لكنّها لم تتزوج، رغم جمالها الواضح. اشترت مع أخيها شقّتين متقابلتين في عمارة واحدة، وما لبث أخوها أن غادر الشقّة، لأنّه استطاع أخيرًا أن يبني بيتًا خاصًّا به في الضواحي، وقام بتأجير الشقّة لـِ «رويتر» نفسها.

كان لا بدّ إذن من أسباب للاحتكاك شبه اليوميّ، فهناك البابان المتقابلان؛ هناك تحيّات الصباح والمساء؛ هناك الماء الذي ينقطع ولا تنقطع مشاكله؛ وهناك مشكلات تنظيف الدرج وإنارته. وقبل ذلك كلّه وبعده، هناك أجرة الشقّة التي تتسلّمها رشيدة من «رويتر» مباشرة في نهاية كلّ شهر.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

15

حين راحت أمّ بهجت تحمل أخبار الحارة لرشيدة يومًا بعد يوم، انقبض قلب رشيدة، وأيقنت أنّ أخبارها، هي كذلك، ستكون على كلّ لسان إذا باحت بأيّ منها لأمّ بهجت. وحين حاولت الأخيرة استدراجها للبوح بشيء، أيّ شيء، أصبحت الكرةُ مصمتة أكثر فأكثر. وفي موجة أسئلة متلاحقة وجَّهتها إليها أمّ بهجت، وبدت أشبه ما تكون بجلسة استجواب في غرفة تحقيق، قالت لها رشيدة: «ولو!! ألا تكفيك كلّ أخبار الحارة؟! لو كان لديّ أسرار لبحْتُ لك بها. مشكلتي أنّني بلا أسرار وبلا أخبار أيضًا». وبمجرّد أن خرجتْ أمّ بهجت من عندها، صاحت رشيدة: «والله كأنّها وكالة أنباء «رويتر»»!

لا أحد يعرف أبدًا كيف انشقَّت النوافذ والحيطان، ووصل لقب أمّ بهجت الجديد إلى بقيّة الجارات، لأنّ رشيدة نفسها لا تجالسهنّ إلاّ صامتة، وتكاد لا تشرب كأس الشاي أو فنجان القهوة قبل أن تنتفض واقفة كما لو أنّها «تأخّرت عن موعد مع الملكة إليزابيث!» - كما تعلّق «رويتر» فور خروج رشيدة.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

فريق متميزون
E-BOOK

16

هنالك سرٌّ ما، وكان عليها أن تفعل أيّ شيء لكي تعرفه.

لم تجد «رويتر» وسيلة أفضل من أن تتمارض، فتمارضت. ولكونها وحيدة، كرشيدة، بعد زواج بهجت الذي لم يعش أبوه ليراه ويفرح به، كان لا بدّ من أن تُفتح الأبواب قليلاً بين الجارتين.

تصرخ «رويتر»: «بطني»! وتتلّوى، فيتفصَّد العرق من جبينها وعنقها حارًّا، وتهتف: «سأموت. خلاص. سأموت»، فتعلّق رشيدة بصدق وخوف: «الشّر بعيد»!

كان جسد «رويتر» يستجيب لادّعاءات مرضها عَرَقًا وحرارةً واحمرارَ عينين، كما يستجيب لسانها لها وهو يقلّب الحكايات على هواه.

أحسّت رشيدة برعب فقدان جارتها، كما لو أنّها اكتشفت، فجأة، نصفها الثاني، في الوقت الذي أدركتْ فيه أمّ بهجت أنّ خطّتها ماضية إلى نجاح باهر. ولكي تُقنع رشيدة بمرضها أكثر، قلّلتْ كثيرًا من مقادير الطعام التي تتناولها، فنحلتْ، ومقادير المياه والسوائل، فجفّت، وتحوّل شكلها، بتسارع غريب، إلى شبه مومياء، وبات الألم الذي تدّعيه حقيقيًّا أكثر فأكثر؛ ولذا، كان لا بدّ من الطبيب أخيرًا، لكن «رويتر» أدركت أنّها إن شُفيت قبل الوصول إلى سرِّ رشيدة، فلن تُشفى أبدًا. لكن رشيدة التي باتت قلقة عليها، اتّفقت مع بهجت على أن يأتي لها بطبيب، فجاء به بسرعة، كما لو أنّ الطبيب يعمل عنده!

بمجرّد أن ألقى نظرة على المريضة وجسَّ نبضها، قال: «يلزمها مستشفى».

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

17

رفضتْ «رويتر» أن تتزحزح عن سريرها، وحين أكّد الطبيب حاجتها إلى رعاية وسهر دائمَيْن، أبْدَتْ رشيدة استعدادها الكامل للقيام بذلك، وعندها، ارتسمت ابتسامةُ رضا على وجه «رويتر» أخفتها بطرف اللحاف.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

ثلاثة أيام قاسية مرَّت بعد زيارة الطبيب، تحايلت فيها «رويتر» على رعاية جارتها، ولم تتناول الدواء الذي وصِفَ لها، فازداد انحدار صحّتها أكثر فأكثر، وحين أدركتْ أنّ تمارُضها لن ينفعها بشيء أمام شفتي رشيدة المحكمتين، قرّرتْ بدء المرحلة الثانية من خطّتها.

بدأت «رويتر» تبوح بأسرارها واحدًا تلو الآخر، آملة أن تشجّع جارتها على أن تفتح قلبها.

روت «رويتر» حكايتها مع زوجها «حبيب» - ولا يستطيع أحد أن يعرف ما إذا كانت حكايتها حقيقيّة أم من اختراعها!- فأكّدت أنّها لم تكن ستتزوّجه أبدًا لولا أنّه «سترَ عرضها!» بعد أن غرّر بها شابّ عربيّ من دولة مجاورة وقعت في غرام لهجته، لكنّه اختفى قبل يومين من الموعد الذي حدّده للقدوم لخطبتها. وهكذا، لم يكن أمامها سوى أن تقبل بِـ «حبيب» الذي كان مثار تعليقات الجارات بسبب ذهابه وإيابه المستمرَّين أمام بيت أهلها.

قالت لرشيدة إنّها قرّرت الذهاب إليه، لكنّها افتعلت ذلك الذهاب كمصادفة، لتخبره أنّها ستعقد قرانها بعد أيّام، وحين رأت بعينيها حجم الكارثة التي هبطتْ على شَعره الجميل المُسَرَّح الذي يتباهى به كما تتباهى مهرة بذيلها، قالت له تلك الجملة التي فتحتْ له بوابّات الأمل: كان عليك ألّا تتأخّر إلى هذا الحدّ!

- صحيح؟! قال لها غير مصدّق أذنيه.

- صحيح. ولكنّك تأخّرت.

- ألا يمكن أن نجد حلًّا لهذا؟

- وما الذي يمكن أن أقوله لأهلي بعد أن حدّدنا موعد عقد القَران؟! قالت بحزن متقن.

- قولي إنّ خطيبك مات!

- وكيف أقول إنّه مات وهو لم يمت؟!

- سأقتله! وهكذا سيموت! قالها بتصميم لا يتناسب مع رقّته التي كانت مضرب المثل.

- وتريدني أن أخسرك؟!

- هل تخشَيْن عليَّ إلى هذا الحدّ؟

- وأكثر!

وصمتتْ قليلاً، بحيث بات على يقين أنّها ستنفجر بكاء، وقبل أن يبدأ البكاء حزنًا على عينيها المبتلّتين بأسى لم يرَ مثله في حياته، قالت له: أظنّه جبانًا بعض الشيء، يكفي أن أخبره أنّك ستقتله إذا عقد قرانه عليَّ، وأنا متأكّدة من أنّه سيهرب من البلد كلّها.

- هل تعتقدين ذلك؟

- بالتأكيد، فالغرباء جبناء في المعتاد!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

- بعد أقلّ من أسبوع جاء لخطبتي، وبعد أسبوع دخل عليّ، وهنا كانت المفاجأة في انتظاره. لم أكن بنتًا!

اقشعرَّ جسد رشيدة فسألت: وهل كنتِ وصلتِ إلى هذا الحدّ مع ذلك الغريب؟

- وأكثر، لأنّ بهجت في الحقيقة كان ابن ذلك الغريب أيضًا!

- وكيف استطعت الخروج من مأزق كهذا؟ فنصف هذه المصيبة قد يحرم أيّ فتاة من التفكير بالزواج طيلة حياتها!

- قلت له ما كنت أسمعه عن غشاء بكارة لا يتمزّق إلاّ بالولادة، وقد كان على يقين من أنّي فعلتُ المستحيل كي أتزوّج منه فَلانَ قليلاً، وبعد يومين اختفى ذلك العبوس الذي احتلّ وجهه.

- وبعد؟

- هكذا جاء بهجت، وحين راح حبيب يخطط لإنجاب الولد الثاني، ومرَّ الوقت اللازم لكي يكون هناك حَمْل، ولم يكن، بدأت مشاكلنا.

سألتها رشيدة: وما الذي حدث بعد ذلك؟

- ماذا؟!

- ما الذي حدث بعد ذلك؟

- في ماذا؟

- حين لم تحملي.

- أحمل بمن؟

- بِـ...

وسقطت «رويتر» في بئر نوم عميق.

أمّ بهجت

صورة مقرَّبة

جمالها في عينيها، وهكذا، إذا رآهما شخص ما في البداية، فإنّه لن يرى سواهما، أمّا إذا وقع نظره على أيّ جزء آخر منها، فقد لا يراهما أبدًا.

قامتها طويلة، وقد نال بهجت نصيبه منها.

كان مثالها الأعلى هو الراديو، ومنذ أن دخل بيتهم رأت فيه معجزة المعجزات، هذا الذي لا يكفّ لحظة عن الكلام والغناء. أحبّته قبل أن تحبّ أيّ شخص، بل بدا البشرُ، الذين حولها، بالنسبة لها غير مرئيّين إلى درجة لا تُحتمل، مقارنة بحضور أولئك الذين يختبئون عميقًا في مجاهل المذياع.

تمنّت أن تتزوّج مذيعًا، مهما كان شكله، لكن ذلك لم يكن سهلاً في تلك الأيّام؛ بسبب قلّة المذيعين ربما، وهكذا، كان من الطبيعيّ أن تقع في حبّ أوّل شابّ ثرثار قابلته في السّوق، تَبِعَها، وعلى طول الطريق التي تصل بيتهم بالسوق، أطلق سيلاً من كلمات الغزل، يفوق أشهر برنامج كان يبثّ في تلك الأيام: «همس الليل».

يومها، توقّفت واستدارت إليه، وقد بهرها تمامًا، رغم أنّها لم تنتبه قَطّ لشكله. لم تكن ترى سوى شفتيه اللتين تتحرّكان دون توقّف كطاحونة هواء. وكان يكفي أن تسأله عن اسمه ليتحدّث نصف ساعة دون أن يكون بحاجة لالتقاط أنفاسه.

وفي تلك اللحظة، قرّرت أن تكون له، له وحده.

لا أحد يعرف بالتحديد ما إذا كان هذا الشخص هو «حبيب» أو ذلك الغريب الذي باحت لـ «رشيدة» بحكايتها معه، ولعلّهما شخص واحد، انبثق من الواقع، بالقدر الذي انبثق فيه من مخيّلتها.

في أيّام شبابها، لم يكن هناك ما يملأ حضنها أكثر من المذياع، فبمجرّد أن ينسلّ أهلها إلى فِراشهم، كانت تتسلّل وتدسّه تحت لحافها، ولا تغلق عينيها قبل أن يتوقّف البثّ.

لم يتوقّع لها أحد أن تنتهي زوجة، إذ كان مرورها سببًا كافيًا لأن تُغلق الجارات أفواههنّ، بل بالغن حين بدأن يضعن أكفّهنّ على أفواههنّ لترى وتعرف أنّها في غير موضع ترحيب. لكنهنَّ كنّ بحاجة إليها أكثر من أي شخص آخر في العالم، كلّما نشب خلاف بين واحدة وزوجها، أو أرادت واحدة أن تُقدّم ابنتها

لخاطبين جاؤوا يطلبون يدها، أو جاء موعد عرس عروس في ليلة دُخْلتها، فقد كانت الأمهر في بعث الخُضْرة حتى في الحطب!

وهكذا كانت على الدوام: الشرّ الذي لا بدَّ منه.

لم تسلم عائلتها منها، ولذا، لم يعد الحديث في البيت يُسمع إلاّ همسًا. وحين جاءها «حبيب» ليأخذها، كانت العائلة هي الأكثر فرحًا، لأنّ أفرادها اكتشفوا قدرتهم على الكلام مثل سائر البشر من جديد دون خوف.

حين حملت أوّل الأسرار إلى إحدى جاراتها بعد الزواج، وانتشر السرّ، أدركت نساء الحارة أنّهنّ بحاجة مُضاعفة إلى خدماتها وأخبارها كحاجتهنّ إلى المذياع نفسه، ولأغاني أمّ كلثوم التي كانت تُبثّ عصر كلّ يوم. ولذا بدت كلّ منهنّ على استعداد للبوح، تضحيةً، بسرّ صغير، من أجل الاستماع إلى سرّ كبير.

ما لم تدركه الجارات هو أنّ كلّ سرّ صغير يبحن به هو سرّ كبير لدى مَن لا يعرفنه.

أمّا الملاحظة الأخيرة، فهي حول عينيها أيضًا، إذ كانتا مصدر دهشة مستمرّة، عينان واسعتان خضراوان وسط ذلك الوجه الصغير كحبّة سمسم.

نهايتها لم تكن متوقّعة، حتّى لها.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

فريق متميزون
E-BOOK

مجلس نقابة الصحفيين أبلغ بهجت أنّ دَوْره قد حان ليسافر، ولم يكن أحد يعرف إلى أين سيتوجّه الوفد التالي، وفي هذا بعض الإنصاف؛ ولأنّ حظّه كان دائمًا رجراجًا، قرّر هذا الحظّ أن يستقيم ويثبت ولو لمرّة واحدة.

حين سمع صوت مدير النقابة على الطرف الآخر مبتهجًا، ابتهج بهجت بدوره، وحين سمع أنّ نصيبه رحلة إلى الصين، لم يكد يصدِّق أذنيه. «إلى الصين دفعة واحدة»؟! صرخ بابتهاج داخل قاعة المندوبين.

(وليتني لم أصرخ.)

هكذا ظلَّ يردّد حتّى اليوم! «فعلاً، الله يُعطي حين يريد أن يُعطي. كنتُ أتمنّى رحلة إلى دمشق أو إلى القاهرة، أو إلى دُبيّ على الأكثر، فإذا بالطريق يمتدّ إلى الصين. يا منت كريم يا ربّ!».

ثلاثة أسابيع سيقضيها في الصين. ثلاثة أسابيع، سيخسر منها ثلاثة أيّام في السفر منها وإليها، ولكنّها ثلاثة أسابيع رغم ذلك.

مدير النقابة طلب منه جواز سفره لأغراض الحصول على التأشيرة، وقبل أن تُغلق النقابة أبوابها في مساء ذلك اليوم، كان بهجت قد وضع الجواز في يد مدير النقابة ناشرًا ابتسامة من الأذن إلى الأذن.

استفسرَ عن أسماء سائر الزملاء في الوفد، فقال له المدير: ستكونون ثلاثة. وأخبره بالاسمين الآخرين، فبدا مرتاحًا. صحيح أنّه لا يعرفهما تمام المعرفة، ولكنّهما جيّدان -حسب ما يسمع.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

قبل عودته إلى البيت، اشترى حلويات شاميّة فاخرة، وتفّاحًا أمريكيًّا، وحبّة أناناس من جنوب شرق آسيا، ولعبة لولده على شكل لاعب كرة قدم مصنوعة في الصين. «يمكن أن يلهو بها الآن حتّى أعود له بلعبة حقيقية من الصين» - قال لنفسه. فلسبب غامض، كان يحسّ أنّ تلك اللعبة ليست من صنع الصين، ولا بدّ أنها مقلّدة، وأنّ مصدرها كوريا أو سنغافورة!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

قالت له امرأته: لا شيء في الصين أرخص من الحرير، وطلبت منه مجموعة من الثياب الحريريّة الخارجيّة والداخليّة! وحين سارت باتّجاه المطبخ كانت تتمايل كما لو أنّها ترتدي تلك الملابس الموعودة، وقد أوقد ذلك فيه رغبات دفينة، فتخيّل نفسه يعود من الصين بعد جولات كجولات السيّد عارف غنّام

التي يسمع عنها، ملتهبًا كعريس جديد، مع أنّ بهجت لم يكن في الحقيقة بحاجة إلى كلّ تلك المحفِّزات!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

فريق متميزون
E-BOOK

19

في الحارة، كان هنالك قطّ رمادي وقطّة بيضاء مرقّطة بسواد فحميّ غريب، لم تكن تجد مكانًا يروقها أكثر من تلك المساحة الخضراء النظيفة كحقل خصيب، ونعني هنا: غطاء سيّارة محرّك الكورولا الخضراء التي يفتخر بها بهجت.

(المهمّ ألاّ تندسّ بين أجزاء المحرّك!)

كانت تبحث هناك دائمًا عن دفء ما، حتّى في تلك الأوقات التي يكون فيها الغطاء باردًا.

وفي ذلك ما يذكّره بأولاده.

لكن كلّ شيء تغيّر فجأة، إذ بدأ القطّ الرَّماديّ والقطّة البيضاء المرقّطة يتصرّفان برعونة واضحة، على مرأى من كلّ سكّان الحارة، رجالاً ونساءً وأطفالاً وقططًا.

بدا الأمر عاديًّا في البداية، يفعلان ما تفعله القطط! يقفز على ظهرها، يحشرها في زاوية ما، فتستجيب له، لكن تكرار الأمر أصبح مُحرِجًا. وليس في الأمر مبالغة إذا قال بهجت لزوجته: «كلّما وقفت خلف الشباك، وجدتهما يعملانها تحته»!

قالت له زوجته جميلة: «إنّك تبالغ بلا شكّ. كلّ ما في الأمر أنّ نحلتك قد بدأت تئزّ»!

كانت جميلة قد بدأت تفهم تمامًا، بالتلميح وبالتصريح، بعد زواج مستقرّ ممتدّ، أنّ ما تقوم به «نحلة» بهجت، هو أقرب ما يكون إلى ما تقوم به طائرة الاستطلاع المبكّر «أواكس»؛ وهكذا، ما إن تسمعه يقول: «هل تسمعين أزيزًا ما؟»، أو: «يُهيّأ لي أنّ النحلة بدأت تئزّ!»، حتّى تسبقه إلى غرفة النوم!

وللحقّ، كانت تئزّ دائمًا في الوقت المناسب الذي تتطلّع جميلة إلى أن تئزّ النحلة فيه.

أكّد لها بهجت: «إنّها لا تئزّ فعلاً، ولو أزّت لكنتِ أوّل العارفين»!

لكنّها لم تصدّقه وقالت: «القطط، أصلاً، لا تفعلها إلاّ في شهر شباط، ونحن وين وشباط وين»؟!

وهنا اكتملت المفاجأة فعلاً، فبهجت يعرف أنّ القطط لا تجنّ على هذا النحو إلاّ في شهر شباط، وفعلاً «نحن وين وشباط وين»؟!

بعد أقلّ من ساعة، اكتشفتْ جميلة صِدْق زوجها. التصقت بزجاج شبّاك المطبخ، وراحت تراقب ما يدور، وكان مخجلاً فعلاً. ولأنّها كانت تقضي معظم وقتها، خارج دوام الحضانة، في المطبخ، فقد رأت ما لم يره الآخرون. حيث لم تكن تتصوّر أنّ القطط يمكن أن يصل بها الشبق إلى هذا الحدّ. وكالمعتاد، كان القطّان يمارسان طقوس غرامهما الفاحشة كما لو أنّهما لم يغادرا البرّيّة ويستأنسهما البشر.

في تلك اللحظة قالت لنفسها: «كان بهجت دقيقًا في كلامه إذن، ولم تكن نحلته السبب»!

لكن ذلك لم يقف عند هذا الحدّ من الفحش الذي سيبدو احتشامًا إذا قورن مع ما سيأتي.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

فريق متميزون E-BOOK

20

لم يمضِ وقت طويل، حين تطوّرت الأمور بشكل أغرب، فقد أصبح باستطاعة بهجت أن يراهما في ممرّ البناية يفعلان ذلك، دون أن يعيراه أيّ انتباه. وتطوّر الأمر أكثر حين رآهما يفعلان ذلك بطريقة آدميّة تمامًا، إذ تستلقي القطّة البيضاء المرقّطة على ظهرها ويستلقي القطّ الرّماديّ فوقها، ويفعلان ذلك دون أدنى خجل في الشارع، في باحة الجيران، في الحديقة الصغيرة التي لا تنبت فيها سوى الأعشاب الضارّة، في قطعة الأرض الفارغة جوار البناية التي تستخدم كمكبّ لغصون الأشجار ومخلّفات البناء، فتأتي جرّافة وتزيل ذلك الركام كلّما تراكم، وحين يجيء الشتاء يأتي شخص ما بتراكتور، يحرثها، ويبذرها قمحًا أو شعيرًا ويذهب، فيأتي رفّ حمام ويلتقط ما بذر، ولا يعود إليها صاحب التراكتور إلاّ مع بدايات الصيف ليحصد ما نضج من تلك البذور التي لم يستطع الحمام الوصول إليها.

أما الأكثر إحراجًا، فهو قيام القطّ الرّماديّ والقطة البيضاء المرقّطة باختيار ممرّ البناية كمكان مفضّل، استقرّا على أنّه الأنسب والأفضل لهما. وحين وصلا إلى هذا الحدّ من الاقتراب، لم يعد يهمّهما أيّ شيء. يمرّ بهجت بجانبهما، على بعد ثلاث خطوات ليس إلاّ، فلا يعيرانه أيّ انتباه؛ وفي أفضل الحالات، كان القطّ الرّماديّ يوقف صعوده وهبوطه المتسارعين فوق بطن القطة البيضاء المرقّطة، وينظر إلى بهجت كما لو أنّه يقول له: «ما الذي تفعله هنا أيّها الرجل الطويل ذو العينين الصغيرتين كعيني فأر»؟! وعند ذلك، لا يجد بهجت أمامه سوى أن يواصل طريقه، وحين يلتفت وراءه يجد القطّ الرماديّ يواصل ما بدأه.

جميلة، امرأته، لم تصدّق ما سمعته من بهجت حول هذه التطوّرات، وقالت له: «لا بدّ أنّك تتخيّل. هل أنت متأكّد من أن نحلتك لا تئزّ فعلاً»؟! فأكّد لها بحزم من جديد: «لو أزَّت، لكنتِ أوّل العارفين»! ولو كانت تعرف في تلك اللحظة، ما ستفعله الغربان مستقبلا، لما رأت في العالم من هو أصدق منه!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

21

حين استأجر بهجت شقّته قبل ثلاثة أسابيع من موعد زفافه، كانت شقّةً قصيَّةً وَفق كلّ المقاييس، ولذا وجد نفسه مضطرًّا إلى شراء الكورولا الخضراء، فلا العروسة تستطيع، ولا هو أيضًا يستطيع، أن يسير مسافة مثل تلك التي كانت تفصل بيتهم عن الشارع العامّ. وهو لن ينسى أبدًا أنّه اضطُرّ في إحدى الليالي الثلجيّة أن يسير وإياها وحيدَين في تلك الصحراء البيضاء، كما حصل مع عمر الشريف في فيلم «دكتور زيفاغو» وأكثر، حتّى وصلا بأقدامٍ متجمّدة شبه ميّتة، أقدامٍ لو أُلقِيتْ في الشارع لَمَا نظر إليها حتّى قطّ جائع.

لكن إشارات المرور راحت تقترب تدريجيًّا من المبنى الذي يقيم فيه، عامًا بعد عام، مع ازدياد عدد البيوت، بحيث أصبحت إشارة المرور على بعد أقلّ من كيلو متر، لا غير، من شقّته.

كانت تلك هي الإشارة الوحيدة التي لا بدّ أن يقف عندها، في ذهابه وإيابه. أمّا بقيّة الإشارات، فكان يعرف الطرق الجانبيّة للالتفاف عليها، والوصول إلى عمله دون أن يكون مضطرًّا إلى الانتظار أبدًا.

كان الالتفاف يحقّق له هدفين، لا يقلّ الواحد منهما أهمّيّة عن الآخر: الأوّل أنّه لا يضيع الوقت، والثاني -وهذا ما تأكّدَ له بفعل التجربة- أنّه لا يضيع البنزين هدرًا.

حين وصل إلى الإشارة، توقّف بمحاذاة النصف الخلفيّ لسيّارة بيضاء -لا يحبُّ أن يذكر نوعها كي لا يبدو ذلك مديحًا مبطّنًا للكورولا الخضراء-، سيّارة بيضاء من تلك التي كلّما امتطاها أحدهم اعتقد أن الشوارع لم تُخترع إلاّ لجنونه وجنون عربته.

لم يكن صعبًا عليه أن يعرف أنّ التي في داخلها فتاة، لكن ما أثار انتباهه أنّ هوائيّ السيّارة كان يصعد ويهبط في حركة لا يمكن وصفها إلاّ بأنّها مَعيبة حقًّا.

أدرك أنّها تلهو بمفتاح الراديو، تغلقه حينًا وتشغّله حينًا، دون أن تعرف، ربّما، ما يحصل في الخلف مع الهوائيّ.

حاول التقدّم ما استطاع، بحذر شديد، ليلمح وجهها، فسيّارة الهوندا سيفيك الزرقاء الجديدة التي أمامه كانت تستحقّ كلّ شيء، إلاّ أن يُصيبها بضرر ما، نتيجة تلك الرّغبة الملحّة في مشاهدة وجه السائقة المستهترة بمَن خلفها.

تحرّكت سيّارة الهوندا سيفيك قليلاً، كما لو أنّها تريد أن تتيح له أن يرى كما يتمنّى، أو، وهذا هو الأرجح، لأنّ سائقها لاحظ الاقتراب الأرعن للكورولا عبر

مرآته، غير عابئة بشيء، بسبب قِدَمها -على الأغلب!

استدار بهجت بوجهه ناحية اليمين، ورآها: فتاة جميلة حقًّا، بشعر أشقر قصير، مثل جولييت بينوش في فيلم «المريض الإنجليزيّ» الذي رآه مؤخّرًا على قناة «mbc2». كانت تتحدَّث بالهاتف، وتدخِّن، وتعلك في الوقت نفسه، وحينما كانت تضع سيجارتها في المنفضة، كانت تنقل يدها إلى مفتاح المذياع، تُشعله وتطفئه، ولأول مرّة لاحظ أنها كانت تراقب الهوائيّ من خلال المرآة الجانبيّة لها بتلذّذ واضح!

فجأة نظرت إليه، وقد وضعَت السيجارة جانبًا، وكفَّ فكّاها عن العمل، وقد وضعت، لا بدّ، قطعة العلكة في مكان جانبيّ في فمها. رأى زجاج سيّارتها المحاذي له ينزلق بنعومة، ووجَّهتْ إليه كلامًا ما. حاول بهجت أن يفتح زجاج سيّارته المحاذي لها، تذكّر أنّ ذلك غير ممكن إلاّ إذا أمسك بيد مقبض النافذة وأداره، وضغط باليد الأخرى على الزجاج كي يهبط. أدركت المشكلة التي يعاني منها، نفضت شعرها، وحرّكت سيّارتها إلى الأمام، كانت الإشارة الخضراء قد أضيئت. عادت الشارة الحمراء بسرعة، فتوقّفت السيّارات من جديد، وعندها تمكّن من فتح زجاج نافذة الكورولا، استعدادًا للإجابة عن السؤال الذي وجِّه إليه قبل لحظات.

كان قد توقّف محاذيًا للنصف الخلفيّ لسيّارتها، كما كان في المرّة الأولى، بعد أن تمكّن سائق سيّارة «لادا»، لا يقلُّ عمرها عن عمر سيّارته، من إيجاد مكان لسيّارته خلف سيّارة الهوندا سيفيك الزرقاء.

لكنّها لم تنتظر اقترابه أكثر، فاستدارت بوجهها لسائق اللادا تسأله: هل تعرف في أيّ مكان تقع مؤسّسة الأحوال المدنيّة؟

فردّ مستوضحًا بصوت عالٍ: المؤسّسة الاستهلاكيّة المدنيّة؟

ردّت بصوت أعلى: مؤسّسة الأحوال المدنيّة، الجوازات!

فأجاب: المخابرات؟!

ارتجف قلب بهجت هلعاً، أما (جولييت بينوش!!) فقد نفضت رأسها بعنف وأغلقت زجاج السيّارة وانطلقت مع انفجار أبواق السيّارات وراءها.

كان قد أصاب بهجت ما أصابها من لعنات وهو يتابع الحوار ناسيًا الإشارة الخضراء. انطلق. وقبل أن تبتعد سيّارتها عنه، كان بإمكانه أن يرى الهوائيّ يعلو ويهبط، من جديد، في حركة لا يمكن القول إلاّ أنّها مَعيبة جدًّا، في وجهه هو، بهجت حبيب، هو بالذات، لأنّه كان على يقين من أنّ سائق اللادا لم يكن قد لاحظ ما يدور في مؤخّرة سيّارتها.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

فريق متميزون
E-BOOK

22

الأحلام التي لا تنبت في أرضها تتحوّل إلى كوابيس!

حين رنّ جرس الهاتف في ذلك اليوم، كان يتوقّع أن يكون صوت مدير النقابة على الطرف المقابل: «تفضّل أستاذ بهجت لاستلام جواز سفرك ممهورًا بتأشيرة جمهوريّة الصين»؛ إلاّ أنّ الصوت كان مختلفًا: «عليك أن تأتي غدًا للمراجعة في مبني المخابرات». فردَّ: «المخابرات»؟! -»نعم المخابرات، لماذا تردّد الكلمة ما دمت سمعتها بوضوح؟ عامل حالك بريء يعني»؟!

انهار الحلم دفعة واحدة. وليته انهار فقط، فقد وجدَ الانهيار يجرفه نحو الدائرة التي عمل الكثير كي لا يكون على عتبتها ذات يوم.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

ثلاث ساعات أمضاها في غرفة الانتظار، قبل أن يسمع اسمه، ويُطلّ رجل بشاربين كثّين لم يضحك في حياته يومًا، ويأمره أن يتبعه.

حين فُتِحَ باب المِصعد، وجد نفسه وجهًا لوجه مع عبد اللطيف! سأله عبد اللطيف باستغراب: «ما الذي تفعله هنا»؟! فردّ: «طلبوني»! وجاءه السؤال الغريب، كما لو أنّ التحقيق معه قد بدأ: «وما الذي فعلته؟ ألم أُوصِك أن تكون عاقلاً»؟! فردّ بهجت: «لم أفعل شيئًا؛ وهذا ما يطيِّر عقلي»! فعلّق عبد اللطيف: «إذا كنت نظيفًا فلا شيء تخشاه هنا»! وعندها سأله بهجت بوجل: «وأنت، ماذا تفعل هنا»؟ ابتسم عبد اللطيف وردّ دون أن يلملم ابتسامته: «جئت لتناول فنجان قهوة لا غير»!

راح بهجت يستعيد الحكايات التي عرفها، والتي سمعها، عن عبد اللطيف، وعندها أيقن أنّه كان طَوال الوقت يغفو ورأسه على فوهة بركان.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

فريق متميزون
E-BOOK

طلب منه الرجل ذو الشاربين الكثّين أن يقف مكانه قرب باب بنّيّ ذي عين سحريّة. وقف. طرَق الرجل الباب ودخل. بعد قليل، طلب من بهجت أن يدخل. حين ألقى التحيّة، تصنَّع المحقّق وضعيّةَ مَن لم يسمعها. اقترب بهجت من طاولة المحقّق، لكنّه لم يجرؤ على مدّ يده ليصافحه، فالنتيجة كانت معروفة، لن يصافحه المحقّق. وهنا فاجأه المحقّق بتلك الجملة الصاعقة: «مُعارض؟! حتّى إنّك تأنف من أن تضع يدك في يدنا ولو عن طريق المصافحة»؟!

- «أستغفر الله» - ردَّ بهجت، وهو يمدُّ يده نحو المحقّق.

- «أعِدها إلى جانبك!» -قالها بجفاف. «لا أحتاجها، لأنّنا نعرف ما نريد معرفته حتّى دون أن نكون مضطرّين إلى وضع أيدينا في أيدي أمثالك»!!

عاد المحقّق إلى تصفُّح ملفّ كبير بين يديه. وحين رفع رأسه قال لبهجت: «لم تترك شيئًا يعتبُ عليك! كلّ ما يزعجنا فعلتَه، بل وأكثر»!

كان المِلفّ كبيرًا، إلى حدّ أنّ بهجت أصبح على يقين من أنّه مِلفّ غير حقيقيّ، فلو قاموا بتسجيل كلّ حركة، وكلّ قول، وكلّ إشارة صدرت عنه، وكلّ حلم رآه، وكلّ أسئلة الامتحانات المدرسيّة التي أجاب عنها في حياته، ولو جمعوا شهادات ميلاد أفراد الأسرة، وصور وثائقها، وصورة وثيقة زواجه، وكلّ ما جاء به من أخبار للصحيفة خلال فترة عمله، لما كان له مِلفّ بهذا الحجم. أراحه هذا التفكير المنطقيّ، وأزعجه أيضًا (ماذا لو كان المِلفّ حقيقيًّا؟)

سأله المحقّق عن معهد المحاسبة الذي درس فيه بعد الثانوية، وعن علاقته بثلاثة تنظيمات لا يمتُّ أيّ منها للآخر بصِلة!

نسي بهجت الإجابة عن سؤال معهد المحاسبة، وأنكر أيّ علاقة تربطه بالتيّارات الإسلاميّة، وفي محاولة لدحض التهمة قال: «لا بدَّ أنّكم تعرفون أنّي أحبُّ البيرَة»!

وحين سأله عن الحزب الشيوعيّ قال: «تعرفون أنّي منذ زواجي لم أشرب البيرة أبدًا»!

عند ذلك قال له المحقّق: «أنت تنكر إذن علاقتك بهذه التنظيمات»! وصمت قليلا ثم سأله: «ثمّ بالمناسبة، أنت أصلك من وين»؟

بُهت بهجت، وردّ بيأس: «أنا من العاصمة سيدي»!

- هل تسخر منّا؟!

- أبدًا سيدي.

- لا أحد في هذا البلد أصله من العاصمة؟!

- أعني أنني ولدت هنا؟

- ولدت هنا، ولكن، أنت من أين؟

- أنا من قرية اسمها .... ! ولم يتركه يُكمل.

- ولماذا تقول بأنك من هنا؟ وتكذب في كلِّ كلمة تقولها؟! وفوق ذلك تأتي وتطالبنا أن نسهِّل سفرك إلى الصين؟! لماذا نفعل ذلك؟!

- لأنّي مواطن سيدي.

حدّق المحقق في وجه بهجت طويلًا، ثم قال له بحزم: إلى أن تعترف، لن تستطيع مغادرة البلد أبدًا.

- أبدًا؟ ردّ بهجت بهلع.

- أبدًا.

- حتّى للصين؟!

- حتّى للشام! مع السلامة!

استدار بهجت كما لو أنّ إعصارًا ضربه، وقبل أن يلمس مقبض الباب، سمع المحقّق يسأله: اسم ابنك فريد؛ أليس كذلك؟

استدار بهجت، وقد تجمّد: نعم. فريد. سيدي.

وعندها لوَّح له المحقق بملف أزرق صغير وهو يقول له: لعلمك! هذا مِلفّ فريد.

تجمّد بهجت مكانه. «ما بك»؟ سأله المحقق.

- لا شيء سيدي.

- امرأتك حامل كما علمت؟!

- نعم سيدي.

- ولد أم بنت؟

- الطبيبة قالت إنه ولد.

- وماذا ستسميه؟

- حليم. سيدي.

- حليم؟ تقصد عبد الحليم؟ تريد أن تجمع في عائلتك المطربَيْن اللذَيْن كانا متناحرَين على الدّوام، فريد الأطرش وعبد الحليم حافظ إذن؟!

- نعم سيدي، ولكننا سندلِّعه ونناديه «حليم».

- هكذا إذن، ونحن سندلِّعه ونناديه «عبد»!!

وامتدّت يد المحقّق إلى دُرج في الطاولة وأخرج مِلفًّا أزرق كتبَ عليه بضع كلمات، وقال: خلاص. لقد فتحنا لِـ «عبد» مِلفًّا.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

فريق متميزون
E-BOOK

24

تائهًا وقف بهجت على الرصيف، بعد خروجه من مبنى المخابرات، ينظر في الاتّجاهين بعينين زائغتين، محاولا أن يتذكّر المكان الذي أوقف فيه السيّارة.

لم يتذكّر.

صرخ به جنديّ الحراسة الواقف بباب الدائرة: «احمِلْ حالك وابتعد من هنا»!

ابتعدَ في الاتّجاه المؤدّي إلى قاع المدينة. بعد عشرين خطوة، تذكّر أنّ السيّارة في مكانها، أمام البيت، فلسبب غامض ما، قرّر أن يُبقيها حيث هي، حتّى لا تُضطرّ زوجته إلى البحث عنها في الشوارع الجانبيّة المحيطة بمبنى الدائرة، إذا حدث ما لا يمكن توقّعه.

أخذ نفسًا عميقًا. تجاوز الشارع. أشار إلى سيّارة أجرة. توقّفتْ. صعد إلى جانب السائق. أحسّ باختناق شديد. لم يعرف ما إذا كان هذا الإحساس يعود إلى أنّه تزوّج، أم لأنّه أنجب، أم لأنّه عمل في الصحافة، أم لأنّ حظّه كان جيّدًا فكانت الصين من نصيبه، أم لأنّ درجة الحرارة لم تعد تطاق بسبب تغيّرات المناخ التي ظلَّ يتابع أخبارها ويشكّ فيها!

بعد خمسين مترًا، توقّفت سيّارة الأجرة لفتاة ذات قوام رائع، أمسكتْ بمقبض الباب الذي بجانبه، منتظرة منه أن يُفسح المجال لها، لكن بهجت لم يتحرّك. لكزه السائق برفق: «الأخت تريد أن تجلس»! فاعتذر لهما: «آسف، آسف»! مفسحًا لها مساحة لم تكن تحلم بها من قبل، إلى ذلك الحدّ الذي لم يعد معه السائق قادرًا على أن يحرّك يده اليمنى بسهولة للتحكّم بالمقود. لكن السائق، بدوره، لم يستطع الطلب منه الابتعاد قليلاً، لأنّ هناك على الجهة الأخرى فتاة، ومن العيب أن يُلصقه بها، حتّى لو كان الأمر متعلّقًا بقيادة أكثر أمانًا للسيّارة.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

فريق متميزون
E-BOOK

فجأة أصبح عبد اللطيف بحاجة إلى نصفه الآخر، ما إن أصبح محرِّرًا، نصفٍ يقطع معه بقيّة مشوار الحياة بفخر، ولم يجد صعوبة في العثور على ذلك النصف: فتاة أقلّ من جميلة، لكنّها مثقّفة، عَلِمَ أنّها خرجت يائسة من علاقة حبٍّ من طرف واحد مع شاعر يعمل في صحيفة أخرى، وهكذا، قرّر أن يستغلّ الفرصة.

كان قد رآها مرّتين أو ثلاثًا في مؤتمرات صحفيّة لوزير الإسكان، في وزارة الإسكان، حيث تعمل. سأل عنها، وحين عرف مدى الجرح الذي يُدمي قلبها، تقدّم بثقة. كانت يتيمة، لكن خالها واحد من أهمّ رجال الأعمال، ومن أسرة شهيرة تتفرّع جذورها في أكثر من بلد. تقرّب إليها، محاولاً أن يبدو صديقَها في البداية، وحينما اطمأنّت، خطا الخطوة التالية، ودعاها خارج الوزارة. وبعد ثلاثة لقاءات، كان على يقين من أنّها في طريقها إليه!

كان عبد اللطيف يدرك مواقع قوّته، كمحرّر في صحيفة مُهمّة، يمتلك سيّارة «مازدا» لا بأس بها (لكنّها لا تقارَن بسيّارتها المرسيدس). أمّا نقطة قوّته الثانية، فكانت قدرته على أن يراها، وقد جلستْ هناك، على الحافة القلقة، لفتاة بلغت الثلاثين ولم تتزوّج بعد!

ألقتْ بقلبها بعيدًا، وفي لحظة جنون قرّرت أن تتزوّج من عبد اللطيف.

لم يصدِّق ذلك. كان الأمر أشبه بحلم، أشبه بجنّة تنزل له إلى الأرض وتقول: خذني.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

بسرعة جهّز جاهة محترمة، كان على رأسها السيّد عارف غنّام رئيس التحرير وزملاؤه رؤساء الأقسام في الصحيفة، وقام السيّد غنّام بخطوة مفاجئة حين دعا وزيرين في الحكومة، على رأس عملهما، للانضمام إلى الجاهة، من بينهما وزير الإسكان نفسه، معتبرًا ذلك هديّته الكبرى لعبد اللطيف.

هكذا، وجد خال العروس نفسه محاطًا بالسلطتين: الأولى - التنفيذية، والرابعة - الصحفيّة، وهو ما جعل الحديث في تفاصيل الزواج الأخرى أمرًا هامشيًّا.

كان أوّل ما فعله عبد اللطيف أن طلب منها الاستقالة من وظيفتها؛ وللحقّ، سَرَّها ذلك، لأنّها كانت قد تعبت من عمل لا يكاد يغطّي نفقات بنزين سيّارتها، ومن مكان يذكّرها بذلك الشاعر الذي سلبها ثلاث سنوات من حياتها وهو

يحدِّثها عن الحرّيّة وأغاني الشيخ إمام وقصائد بابلو نيرودا، ويمطرها بالكتاب تلو الكتاب، من «زوربا» إلى مؤلّفات هنري ميلر.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

فريق متميزون
E-BOOK

أوّل هديّة قدَّمها عبد اللطيف لعروسه، بعد الزواج، لم تكن ثوبًا أو سوارًا أو قلادة ماسيّة أو سيّارة جديدة، فقد كان عليها أن تنتظر طويلاً لكي يُقدِّم لها هدايا كهذه. أوّل هدية قدّمها لها هي تلك الهديّة التي أهداه إيّاها السيّد غنّام، حين طلب منه أن يقوم باستقبال وفد من الشعراء العرب المشاركين في مهرجان كبير احتضنته العاصمة.

قال له السيّد غنّام: «بلا شعراء بلا بطيخ! لستُ بمزاج جيّد لكي أستقبل كلّ هؤلاء العصافير في وقت واحد. استقبلْهم أنت».

- وما الذي أقوله لهم؟

- حدِّثهم عن أهميّة الشِّعر والثقافة في حضارات الأمم! وأكِّد لهم أنّ أمّة بلا ثقافة هي أمّة ميّتة. ويمكن أن تداعبهم قليلاً فتقول لهم: وليس هنالك أمّة أثبتت أنّها حيّة مثل أمّتنا والحمد لله. لماذا؟ لأنّكم، كشعراء، ومنذ الجاهليّة، كنتم دليل حياتها.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

لم يكن الأمر أقلّ من مفاجأة صَعقتْ كلَّ أولئك الذين هم أعلى منصبًا من عبد اللطيف: نائب رئيس التحرير، مدير التحرير، سكرتير التحرير، رئيس القسم الدوليّ، ورئيس القسم الثقافيّ و...

ارتدى عبد اللطيف بدلة العرس، فسألته عروسه بدلال شاحب وكئيب سيظلُّ ملازمًا لها: «يبدو أنّك قد قرّرت الزواج ثانية»! فأجاب: «لا تُفسدي المفاجأة!». وخرج تاركًا عروسه تتساءل عن طبيعة المفاجأة التي يُعدّها لها.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

حين عاد في الثالثة من بعد الظهر، كان فَرِحًا إلى حدٍّ لا يصدَّق. سألته، فأجاب: «لا تُفسدي المفاجأة!». وعندما تأخّر تلك الليلة، إلى حدّ لم يفعله من قبل -كما سيحدث مع بهجت بعد ذلك!- بدت أكثر من قلقة وهي تذرع البيت جيئة وذهابًا، دون أن تنسى إلقاء نظرة عبر الشبّاك بين حين وآخر، آملةً أن تُطلَّ سيّارته المازدا.

في الواحدة والنصف من بعد منتصف الليل، سمعتْ محرّك سيّارته، وقبل أن تتمكّن من رؤيتها كان قد دخل الكراج أسفل العمارة.

على الباب انتظرته، جاهزة لأوّل خلاف زوجيّ من عيار ثقيل.

فتح باب المصعد، فاجأها بابتسامة غير عاديّة، وملوّحًا بصحيفة في يده. وقبل أن تفتح فمها، قال وهو يناولها الصحيفة: «تفضّلي، المفاجأة!».

تراجع غضبها بمجرّد أن أصبحت نسخة الصحيفة في يدها: «انظري المنشور فيها».

قالت: «هذا عدد يوم غد، أقصد اليوم!».

هزَّ رأسه: «العدد الذي سيوزَّع بعد ساعات في كلّ مكان».

كانت أكثر من متفائلة حين راحت تستعرض أخبار الصفحة الأولى.

- لم يحن الوقت بعد لكي تفتّشي هنا!

انطلقت تفتّش في الصفحات الداخليّة بسرعة، إلى أن وصلت إلى ذلك الخبر الذي فوجئت بصورته وعنوانه: «وفد من شعراء العرب في ضيافة دار الصحيفة». وتحت الصورة كُتب بخطّ أسود دقيق: «السيّد عبد اللطيف يستقبل الضيوف»، ثم بقيّة الخبر الذي نُشر على أربعة أعمدة، متضمّنًا تفاصيل اللقاء التي اشتملت على حديثه عن أهمّيّة الثقافة...، والوضع العامّ للقصيدة العربيّة في ظلّ انتشار قصيدة النثر -وهذه ملاحظة قالها له مدير القسم الثقافيّ- وعلاقة الصحافة بالثقافة، وسبل دعم الحركة الثقافيّة العربيّة، وترحيبه بالوفد وتقديره لعمق مساهمتهم في حركة الشعر العربيّ والوعي العامّ للأمّة، باعتبارهم الضمير الحيّ واليقِظ على الدوام.

لسببٍ ما، فرحت العروس وقد أحسّت بأنّ زوجها قد أخذ بثأرها، فها هو يستقبل الشعراء ويرحّب بهم، كما لو أنّه أكبر منهم جميعًا، ولسببٍ ما انقبض قلبها، حين راحت عيناها تبحثان، دون جدوى، عن صورة شاعر بعينه قد يكون رافق الوفد.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

حينما اندسَّت بصمت إلى جانبه في السرير، أحسّت بأنّه أوصل إليها تمامًا الرسالة التي يمكن أن تُقرأ من أسفل إلى أعلى، ومن أعلى إلى أسفل، ومن اليمين إلى الشمال، ومن الشمال إلى اليمين. ومنذ تلك الليلة، وضعتْ نقطة كبيرة في نهاية تلك الجملة الطويلة، التي لم تكن سوى ذلك الحبّ التعس، من طرف واحد، لشاعر كانت على استعداد أن تدخل بيته ولو على ضرّة، ولم يقبَل بها.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

لو كان بهجت يعرف بتفاصيل ما جرى مع عبد اللطيف تلك الليلة، لعرف أنّ عبد اللطيف وُلِدَ محظوظًا وسيموت محظوظًا، لأنّ الخبر الذي سيحمله ذات

يوم لزوجته جميلة، الخبر الذي سيزلزل حياته، لا يشبه خبر الشعراء من قريب أو بعيد.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

فريق
متميزون
E-BOOK

عبد اللطيف

صورة مقرّبة

بدأ حياته العمليّة نحيفًا وطويلاً ولم يزل، مبكّرًا تساقط شَعره، ولكنّه توقّف عند نقطة محدّدة لم يتجاوزها. مبتسم دائمًا، حتّى حينما يُشْتَم، ولم يُبْدِ في أيّ يوم من الأيّام تذمّرًا من أيّ مَهمّة أُوكلت إليه.

محايد تمامًا، لا يستطيع أن يحبّ فعلاً، ولا يستطيع أن يكره. حواسّه أشبه بلوح صفيح فضّيّ أملس. لا يطلب أبدًا، ولكنّ عينيه تغرفان ما يريده بضوئهما النافذ المركّز.

لا يستطيع أحد أن يدّعي صداقته ولا عداوته، وله من اسمه نصيب كبير، بحيث يبدو أقرب لمتذلّل نموذجيّ.

وسيم، ولكنّهم اكتشفوا ذلك متأخّرًا، حين خلع لباس عامل البوفيه، وارتدى، فجأة، بذلة كُحليّة فاخرة، وقميصًا أزرق، وربطة عنق تزيّنها خطوط حمراء وبيضاء وسماويّة.

يداه اللتان كانتا مشغولتين بوضع القهوة في المكان الملائم أمام الضيوف، لم تجدا، بعد ذلك، مكانًا أفضل من جيبَيْ بنطاله كي تستريحا هناك، كما لو أنّهما فوق عرشين؛ وقامته التي طالما انحنت، اتّخذت هيئة قامة عسكريّ مثاليّ.

ندمت الفتاة ذات المؤخّرة العظيمة، لأنها صدّته ذات يوم، بعد أن بالغ في التودّد إليها، حين اعتبرها سُكَّر الجريدة، وقد باتت تعضّ أصابعها منذ تعيينه محرّرًا، وحين أصبح رئيسًا للتحرير، قيل إنّها راحت تعضّ أصابع قدميها!

لا يستطيع أحد أن يؤكّد أنّه أحبّها فعلاً؛ فكما سبق لنا أن قلنا، إنّه لا يحبّ، إنّه لا يكره.

قيل إنّه لم يصعد من القاع إلى الحافة مصادفة، فكلّ ما يبدو عليه من ثقة وأناقة، بدءًا من ملابسه وانتهاءً بمشيته العسكريّة، لم يكتسبه، فقط، أثناء رحلاته مع السيّد عارف غنّام.

يروى - وقد يكون ذلك من قبيل التفكُّه- أنّ حاجة السيّد غنّام إليه كانت أكثر من مُلحّة، لأنّ محاولات السيّد غنّام لاستمالة حتّى فتاة هوى، كانت تبوء بالفشل، بينما كان في مستطاع عبد اللطيف أن يعود وفي يده خمس فتيات في كلّ مرة، دون أن تتذمّر أيّ منهنّ بسبب الزحام الذي لن يتّسع له أيّ سرير، أو يتساءلن إلى أين يذهب بهنّ؟!

لم يفكّر يومًا في الانفراد بإحداهنّ، وقد كان يستطيع، بل كان يتلقّى عروضًا سخيّة منهنّ، فور مغادرتهنّ غرفة السيّد غنام. فقد كان يدرك أنّ السيّد غنّام لن يقبل أن يكون له شريك حتى في بائعة هوى. ومن المفارَقات أنّ السيّد غنّام لم يفكّر بإهدائه ليلة على حسابه، ينفرد فيها ببائعة هوى، حيث لم يخطر في باله أنّ عبد اللطيف قد يكون بحاجة إلى مثل هذه الأشياء!

ما أرّقه تمامًا، حين أصبح رئيسا للتحرير، أنّه لا يستطيع كتابة أيّ مقال، إلى أنّ أسرَّ له أحد مديري التحرير أنّ هناك من يكتب المقالات باسم رؤساء التحرير في أغلب الأحيان. فاستغلّ عبد اللطيف الفرصة، وأوكل إلى مدير التحرير، ذاك، هذه المَهمّة، ولم يكن يفعل شيئًا سوى قراءة المقال للاطمئنان. وحين اطمأنّ تمامًا لأسلوب كاتب مقالاته، لم يعد يقرأها إلاّ مع قهوة الصباح في اليوم التالي. وفي أحيان كثيرة، كانت زوجته تسمعه يصيح بفرح: «عبقريّ، عبقريّ!»، فتسأله: «مَن؟»، فيناولها الصحيفة كي تقرأ مقالته!

مع مرور السنوات، بدأ ينتابه إحساس غريب حول العلاقة التي بين عامل البوفيه ورئيس التحرير، واهتدى أخيرًا إلى أنّها كلّها خدمات، وكلّها مطلوبة، وأنّ أهمّيّة المرء لا تكمن في ما يعمله، بل في مَن يخدمه.

هناك صور كثيرة التقطها مع مسؤولين كبار، لكنّ الصورة الوحيدة التي أحضر أصلها إلى البيت، ووضعها في إطار يليق بها، هي صورته وهو يستقبل وفد الشعراء العرب.

كنيته اليوم «أبو عارف» وهذه هي إشارة الحبّ الوحيدة الكبيرة التي لم يستطع إخفاءها.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

فريق متميزون
E-BOOK

فكّر بهجت أن يدعو العائلة إلى اجتماع رسميّ، فعلاً، لكنّه أحسَّ أنّه بذلك سيورّط زوجته في مشاكل هي في غنى عنها. يكفي أنّه الآن أصبح ممنوعًا من السفر. يكفي أنّ الصِّين ابتعدت إلى ذلك الحدّ الذي لن يستطيع معه الوصول إليها، حتّى لو عاش ألف عام، وبدأ رحلته إليها بألف خطوة، لا بخطوة واحدة!

لقد قامت الحكومة نفسها بإغلاق الطريق، ولذا، كان على يقين من أنّ أيَّ قوة في الدنيا لن تستطيع فتحه من جديد، إلاّ الحكومة نفسها بالطبع.لكن مسألة وجود مِلفّ لوليده الذي لم يُولد كانت تؤرّقه. حاول أن يستشير أمّه في لحظة من لحظات صحوها، فانتفضت، كما لو أن روحها تغادرها وقالت: «أنا امرأة تموت، فلا تورّطني مع الحكومة!». إجابتها كانت قاطعة، بحيث لم يجرؤ على العودة إلى هذا الموضوع الشّائك ثانيةً.

فكّر في أصدقاء، لم يجدهم، في زملاء، أدرك بعد قليل أنّهم سيرفعون تقريرًا فيه قبل أن يغادر الجريدة، ولذلك، قرّر أن يفكّر وحده، بعيدًا عن أولئك الذين قد يورِّطهم أو يورِّطونه.

.. بسيطة وإنسانيّة أيضًا كانت الفكرة التي توصّل إليها، وصنّفها ضمن أدنى درجات المقاومة السِّلميّة، لكنّه لم يستطع اتّخاذ قرار حاسم بشأنها.

«لماذا لا أُغيِّر اسم طفلي القادم قبل مولده»؟! كان هذا هو السؤال الذي قضَّ مضجعه وأرَّقه («وبهذا أنتشلُ مستقبله من عتمة بئر ذلك الملف الذي أُعدَّ له!») وفكَّر في أسماء كثيرة: خالد، سالم، نبيل، أو شوكت (على وزن اسمه)، وحاول أن ينطق الاسم بصوت عالٍ: «شوكت بهجت حبيب»، فأحسَّ بأنّ الموسيقا تتفجَّر من كلّ حرف فيه كما الينابيع العذبة.

(«سأسمّيه شوكت وليكن ما يكون!»)

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

28

عائدًا من عند أمّه إلى البيت، كان يقود «الكورولا» الخضراء في ذلك المساء، وما كاد يصل، حتّى رأى الألعاب الناريّة تنطلقُ وتضيء السماء، وفي موجة ابتهاجٍ غمرتْه، أوقف السيّارة في مكان آمن، وهبط إلى الرصيف ليراقب بعينيهٍ مهرجان الألوان.

بدأ التفكير في الألعاب الناريّة باعتبارها إشارة («هذا يعني أنّ القرار الذي اتّخذته صائب. ستبحث الحكومةُ ذات يوم عن ولد اسمه عبد الحليم بهجت حبيب، ولن تجد مخلوقًا يحمل هذا الاسم، وبذلك ينجو شوكت!»)

بعد قليل توقّفتْ سيّارة أخرى خلف سيّارته، سيّارة فارهة من نوع «هوندا أكورد»، هبط منها أب وثلاثة أولاد وأمّهم، وراحوا يراقبون معه ذلك الجمال الذي يسلبُ الألباب.

تقافز الأولاد فرحين، فتمنّى أن تكون زوجته الآن في الشرفة، تراقبُ مع ولده فريد، وتتمتّع بما يتمتّع به في تلك اللحظة.

ظلَّ يحدّق في السماء بشغف أولئك الذين يندفعون لمراقبة عواصف الشُّهب التي تتدفّق من أعماق السماء بين فترة وأخرى. وحين تلفّتَ حوله بعد وقت طويل، كانت سيّارة الأكورد الفارهة قد غادرت منذ زمن، وفاجأه أنّه لم يحسّ برحيلها، في موجة افتتانه بما يراه.

لكنّه بقي متفائلاً («لا شكّ أنّ في ذلك علامة على أنّني اتّخذت القرار السّليم بتغيير اسم الولد!»)

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

تذكّر أنّ زوجته ستكون في انتظاره في لحظات خاصّة كهذه. صعد إلى السيّارة، وما إن أخذت مسارها على الشارع، حتّى أعطاها جرعة عاليةً من البنزين، بحيث وصل البيت، ومهرجان الألوان لا زال في بدايته!

- أظنّها إشارة خير. قال لامرأته!

فردَّت دون أن تبعد نظرها عن السماء: ما هي إشارة الخير؟!

- هذه الألعاب الناريّة!

- كلّ يوم هنالك ألعاب ناريّة. هل تأكّدت من أنّ هناك مناسبة وطنيّة، أم لم تتأكّد كعادتك؟!

لم تعجبه لهجتها، لكنّه أدرك أنّها تقول ذلك نصف غائبة عن الوعي بسبب افتتانها بالمشهد. وتأكّد له ذلك حين سألته بعد لحظات: ما الذي قلتَه؟

- لا شيء، لا شيء!

واحتضن ابنه أكثر، بحيث صاح الولد متألّمًا.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

بعد أن فقدوا الأمل في انطلاق أيّ سهم ناريّ جديد، أنزل ولده، ومضى نحو عدد ذلك اليوم من الصحيفة باحثًا عن مناسبة وطنيّة يقتضي حلولها احتفالاً ناريًا عارمًا كالذي رأوه.

استعرض عناوين الصفحة الأولى، التي تتصدّرها المناسبات الوطنيّة عند حلولها. لم يجد شيئًا. انتقل إلى الصفحات الداخليّة، فلم يرَ غير:

535 شهيدًا فلسطينيًّا بينهم 71 طفلاً قتلتهم إسرائيل العام الماضي

قلَبَ بهجت الصفحة بسرعة وهو يحدّق في بطن امرأته الحامل بخوف.

إسرائيل ترفض مثول ضبّاطها وسياسيّيها

أمام محكمة جرائم الحرب في لاهاي

- لا شيء!

وصل إلى الصفحة الثقافية؛ وعلى الرغم من أنّه يدرك أنّ الألعاب الناريّة لا يمكن أن تنطلق في مناسبة عقد ندوة أو أمسية شعريّة، استعرض عناوينها خطفًا:

في أمسية شعريّة موسيقيّة

الشعراء يضيئون أبجديّة المُحالّ ويدقّـون بالحلم غابات الليل

كان العنوان فخمًا، بحيث بات علي يقين من أنّ عناوين الصفحات الثقافية ستُلحق هزيمة كبرى بعناوين الصفحات الرياضيّة في القريب العاجل.

قلَّب الصفحات بسرعة، محاولاً اختصار الوقت ليصل الصفحة الأخيرة، وهناك أثار انتباهه عنوان غريب:

عائلة من الشمبانزي تبنّت طفلاً نيجيريًّا

«الدنيا بخير!»- همس لنفسه، وأضاف: «وجود الشمبانزي نعمة فعلاً في تلك البلاد؛ فالكلاب هنا لن تستطيع أن تتبنّى الأطفال!»

سألته زوجته: هل وجدتَ شيئًا؟

- لا شيء!

أثناء رحلة سياحيّة لهما:

اختلف مع صديقه على فاتورة حساب في المقهى... فقتله

تسعة مصريّين قُتلوا أثناء انتظارهم في طوابير الخبز بمشاجرات استُخدمت في بعضها أسلحة ناريّة

لكنّه لم يفقد الأمل، حتّى بعد أن وجد نفسه أمام ذلك العنوان العريض، العنوان الذي بدا ككارثة:

نوّاب يضربون الصحفيّين ويحطّمون كاميراتهم في مجلس النوّاب

حمد الله أنّه نجّاه، حين ألهَمَ السيّد عبد اللطيف ذات يوم بألّا يعيّنه مندوبًا تحت تلك القبّة.

تجاوز الخبر مفتّشًا عن مناسبة أخرى، فلم يلفت انتباهه خبر مثل ذلك الخبر:

دراسة رسمية:

نصيب البقرة من دعم الأعلاف

يفوق حصّة الفرد من المعونة الوطنيّة عشرين ضعفًا في العام

استطلاع للرأي أعاد التأكيد :

94 ٪ من الصحفيين يخضعون أنفسهم لرقابة ذاتية

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

أطرق بهجت نصف ساعة، غائبًا عن كلّ ما يدور حوله، وحين رفع رأسه، كان قد قام بمحو كلّ تلك الأفكار التي راودته بشأن اسم وليده الذي لم يُولد («ماذا لو جاء رجال الحكومة وسألوني بعد سنوات: أين عبد يا بهجت؟ ماذا سأقول لهم؟ غير موجود! سيقولون لي: أين أخفيته؟ لَمْ تُخْفِه إلا لأنّه ارتكب جرمًا كبيرًا! قد يكون إرهابيًّا! فماذا أقول لهم؟ إنّه غير موجود؟! عندها سيلوِّحون بالمِلفّ الأزرق أمام وجهي وسيقولون لي: مِلفّاتنا لا تكذب. اعترفْ! أين أخفيت الولد؟ وبالطبع سنكون، أنا وجميلة، حينذاك، في عمر لا يُتيح لنا أن ننجب ولدًا نسمّيه عبد الحليم لنعوّض خسارة الحكومة»!)

قال: سأسمّيه إذن عبد اللطيف، ما دام المِلفّ الذي فُتح باسم «عبد» فقط. وما الذي يهمّهم إن كان عبد اللطيف أو عبد الجبّار؟ وأعاد: «سأسمّيه عبد اللطيف؛ فهذا رجل له مستقبل ما دام يتناول قهوته الصباحيّة في ذلك المبنى»!

لكنّه عاد وتراجع.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

فريق متميزون E-BOOK

تقلّصت «رويتر»، أشبه بذكرى شاحبة غدت في وسط السرير، أو كطفلةٍ مصابة بالجوع في بلاد الصومال؛ وهكذا، وجد بهجت أن عليه التدّخل مستغلاًّ عاطفة الأمومة لديها، ولم يكن يريد منها الكثير؛ قال لها: «فقط اشربي صحن الحساء هذا»! ومدّ يده إليها بالمِلعقة، فزمَّت شفتيها اللتين تحوَّلتا إلى نقطة سوداء مريعة.

بعد إلحاح متكرّر، طلبتْ منه أن يقترب منها، وحينما اقترب، وضعتْ في أذنه تلك الجملة التي كان عليه أن يُنفّذ ما جاء فيها فورًا.

أخذ نفسًا عميقًا. حدَّق في الجدران الثلاثة التي كان باستطاعته أن يراها دون أن يستدير، نهض، ثم طلب من زوجته الحامل بعبد الحليم أن تتبعه، وحينما تركت ابنَها وابنتها خلفها قالت «رويتر» : «والولد والبنت أيضًا»!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

كان قد بات معروفًا أنّ إجازة رشيدة تبدأ فور وصول بهجت وأسرته. وبعيدًا عن هذه اللحظات لم تكن رشيدة تغادر غرفة «رويتر» أبدًا.

أكثر من مرّة، تطوَّعت جميلة للمكوث مع «رويتر»، لكن «رويتر» رفضت ذلك بعنف مُرْبِك. وحينما أحسّت رشيدة أنّها أكثر قربًا من أيّ شخص آخر، لهذه الجارة المسكينة، رقَّ قلبها أكثر فأكثر.

عندما عاد إلى الغرفة من جديد، قال لها: «خلاص، لا أحد هنا. ألا تريدين شيئًا من هذا الدجاج الذي أحضرته لك؟ من هذا الحساء الذي حضَّرتْه لك بيديها أمُّ حفيدك وحفيدتك؟ ألا تريدين أن تعودي كما كنت لترافقينا أيام الجُمَع في رحلة إلى المتنّزه القوميّ أو حديقة الطيور»؟!

هزَّت «رويتر» رأسها كما لو أنّها تقول: لا.

- إذا كان الأمر كذلك، فلا بدَّ أن ننقلكِ إلى المستشفى حتّى دون رضاكِ!

- وهل مرضتُ كلّ هذا المرض حتّى أذهب إلى المستشفى؟! قالت له مؤنّبة، بصوت قويّ، كم كان يشبه صوتها القديم!

- وهل مرضتِ بخاطرك؟!

- طبعًا بخاطري. قالت وقد انطلق صوتها كما كان دائمًا.

- ولماذا تمرضين؟!

طلبتْ منه أن يقترب مرّة ثانية، وبعد خمس دقائق من همْسٍ متواصل، همْسٍ تركَ أذنه تغلي لفرط حرارة تنفّسها، عدَّلت رأسها وراحت تحدّق في السّقف وهي تقول: هل فهمت؟!

- فهمت، ولكن هل يستحقّ هذا الأمر التضحية بصحّتك؟

- وسأضحّي بحياتي إذا لزم الأمر، لئلاّ يُقال إنّ «رويتر» فشلت في معرفة هذا السرّ!

- ولكن، قد لا يكون لديها أيُّ سرّ.

- لديها أكثر ممّا تظنّ، وكان عليك أن ترى وجهها حين كنتُ أحدّثها عن أبيك وعنك.

- وما الذي قلتِهِ لها؟

- لا شيء يستحقّ، فقط كنت أجرُّ رِجْلها لكي تبوح بما لديها!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

أمام إصرارها على مغادرته البيت وأسرته، قرّر بهجت أن يغادر، وحين وصل الباب الخارجيّ، سمعها تقول له: لا تعُدْ قبل أن أتّصل بك! أمّا الآن فاطرق بابَ رشيدة وأعلِمْها أنّني في انتظارها.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

31

بعد ثلاثة أيام، رنَّ جرس الهاتف في منزل بهجت. أمسكت زوجته السمّاعة: مين؟!

- أنا رشيدة. جاء الصوت من الطرف الثاني.

- شو في؟! سأل بهجت زوجتَه، فأشارتْ إليه، على غير عادتها، أن يصمت، وهنا أحسّ بالكارثة تعصف به.

- خير إن شاء الله، أمّ بهجت بخير؟

- أمّ بهجت أعطتكم عمرها.

- ماتت؟!! سألت جميلة صارخةً.

- الله يرحمها. قبل خمس دقائق.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

- هل قالت لكِ المرحومة شيئًا قبل أن تموت؟ سأل بهجت رشيدة قرب جسد أمّه المسجّى على السرير.

- لا. كانت تحدِّثني عن حياتها وذكرياتها، وفجأة صمتتْ، فحسبتُ أنّها تعبت كما يحدث كلّ ليلة، وحين تحسّستُ نبضها، عرفتُ أنّها رحلت. الله يرحمها!

- لا تؤاخذيني، وهل حدَّثتِها أنتِ بشيء قبل موتها؟!

- ما الذي لديّ لأقوله لامرأة تعرف كلّ شيء؟! كنت أستمع إليها.

- أعني، ألم تقولي لها أيّ شيء؟!

- وهل لديّ يا بهجت شيء يقال؟!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

رشيدة

صورة مقرّبة

شيء ما أفزعها منذ أن بلغت السادسة عشرة من عمرها، لم تستطع التخلّص منه؛ لسنوات طويلة كان مخدّتَها التي تسند بها رأسها، فلم تعرف النوم.

ذات يوم قرّرت أن تبتلعه. ولكي تكون مطمئنّة إلى أنّه لن يصل إليه أحد، تحوّلت إلى بئر.

للحظة فكّرت في أن تقتل «رويتر» حين أحسّت بأنّها توشك أن تصل إلى ذلك السرّ، لكنّها تراجعت وقد أبصرت «رويتر» تموت أمامها ببطء.

ذات يوم حلمت أنّها باحت لِـ «رويتر» بكلّ شيء...

لم تعرف ما إذا كان ذلك حدث فعلاً أم أنّها كانت تحلم.

بعد خمس دقائق اتّصلت ببيت بهجت. ردّت امرأته. فأخبرتها أنّ «رويتر» قد ماتت قبل خمس دقائق!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

فريق متميزون
E-BOOK

ثانيا !!!

1

نصف ليله كان قد أمضاه يهذي، والنصف الآخر يتصبّب عرقًا، غير قادر على أن يُغلق جفنيه.

«كبرتَ يا بهجت، شِختَ، وقد تموت دون أن تتمكن، حتى، من الوصول إلى الصفحة الأولى» همس لنفسه.

راح يستعرض وجوه أولئك الذين تربّعوا على صدر تلك الصفحة، قبل أن يستعرض أسماءهم؛ هاله أن كلّ واحد منهم لم يصل إلى هناك إلّا عبْر سُلَّم ما، وحين فكَّر باستخدام واحد من تلك السَّلالم، أدرك أن الأمر مستحيلٌ؛ وهكذا، انطلق يبحث، دون جدوى، عن سُلَّم آخر، وعندما أوشك أن ييأس تماما، طمأن نفسه، بأن سُلّمه لا بدّ أن يكون موجودا هناك في مكان ما، وأنه سيصله ذات يوم رغم سوء طالعه المطبق على قلبه كفكّي تمساح.

عاد لـحُمَّاهُ؛ كانت أرْحمَ من خواطره.

تمنّى أن يفيض العرق ويغمر جسدَه.

أمّه قالت له ذات يوم: «هذا نصف الشفاء»، وهو الذي لا يشكُّ في أيّ كلمة صدرت عنها. أمّه، التي يعود لها الفضل في أنّها ورَّثته أهمّ مواهبها: نقل الأخبار؛ أمه، «رويتر»، هذا الاسم الذي لم يعرف معناه العميق، إلاّ بعد زمن طويل، حين ساقته تلك الموهبة إلى العمل في الصحافة.

جاءت موجة العرق، لكنّها، فجأة، تحوّلت إلى برد لا يطاق.

السماء في الخارج صافية، منذ ثلاثة أيام، يعرف ذلك، والصقيع يملأ الشوارع ويغطّي زجاج السيّارات.

لم يحدث أن وصلت درجات الحرارة إلى هذا الانخفاض من قبل. هذا الانخفاض الذي دفع الناس أن يرفعوا الصلوات إلى السماء كي تمنَّ عليهم بعاصفة ثلجيّة!

كلّ شيء كان أرحم من هذا الصقيع.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

شخير زوجته، الذي عاد يفتنه من جديد، شخيرها المحبّب الرّخيم، لم يتوقّف طَوال الليل، لكنّه كان شخيرًا هادئًا منتظمًا، مثل صوت محرِّك عربة جديدة.

لم يزعجه هذا، بل وجد في شخيرها ما يسلِّيه ويحوّل أفكاره بعيدًا عن آلام تلك الحمّى التي تنخر عظامه.

الشيء الوحيد الذي لم يكن يتمنّى حدوثه هو أن يذهب إلى الحمّام، لكن نداء الطبيعة كان أقوى.

في لحظة، أقلّ من لحظة، أحسّ بأن مثانته على وشك الانفجار. قرر أن يقاوم، أن يصمد أطول وقت ممكن، لكنّه تذكّر تلك التحذيرات التي قرأها، وأكّدها زملاء صحفيّون وغير صحفيّين، حول مخاطر حبس البول على البروستاتا.

البروستاتا -كم يكره هذه الكلمة! البروستاتا التي يحسّها تقبع هناك في نهاية خصيتيه أشبه بحشرة مزعجة، متطلّبة، محتقنة، تعضّه من أوهى نقاط ضعفه!

دائمًا تخيّلها صرصورًا، لكنّه لم يفكر بالبحث عن صورتها، حتّى بعد أن دخل عالم الإنترنت على حياء رغمًا عنه، بسبب حاجة الأولاد اليوميّة لهذا العالم.

لسببٍ ما قرّر أن يقاوم عضّة تلك الحشرة الصغيرة، لكنّها انتصرت؛ ولن يعرفَ أبدًا ما إذا كانت انتصرت فعلاً لفرط تهيّجها واحتقانها، أم لفرط خوفه ممّا يمكن أن يلحق بها من أضرار.

رفع طرف اللحاف، كمن يفتح بابًا في زمن حرب، ليتأكّد من خلوّ الشارع من الأعداء.

كان خروج يده كافيًا لكي يعرف أنّ الصقيع قد أصبح في غرفة النوم.

مُعذِّبًا أصبح الأمر، وقد أحس بلسعات البرد أكثر فأكثر.

بسرعة نهض نحو الحمّام.

هو يعرف أنّ الخطأ الذي لا يمكن أن يرتكبه هو التعثّر في الظلام. يعرف موقع قدميه تمامًا، أين يبدأ السرير، أين ينتهي، أين تقف حافة الخزانة منتصبة، أين تخلع زوجته خفّيها، وأين تقع، تمامًا، قبضةُ باب غرفة النوم (مع أنّ الباب غالبًا ما يبقى مفتوحًا: محاولة مستمرّة منه لتبديد سوء ظنّ الأولاد بوالديهما!)

كان الباب مغلقًا، لأنّ المرض حمله إلى السرير قبل الجميع. بعد ساعتين لحقته زوجته، وأغلقت الباب خلفها، تاركة الأولاد يتابعون مسلسلاً مشوّقًا اسمه «بريزون بريك» (Prison Break)، عن رجل محكوم بالإعدام. مسلسل خلب ألبابهم وهم يتابعون شقيق الرجل المحكوم بالإعدام يعمل على إطلاق سراح أخيه عبر خطّة مُحْكَمة!

قبل أن يصل الباب، كان العرقُ الذي يغطّي جسده قد تحوّل إلى صقيع، صقيع فعليّ؛ لم يعرف إن كان عليه أن يتقدّم أم يتراجع. أحسَّ أنّه سيتحوّل

إلى قطع صغيرة من زجاج إذا بدرت عنه أيّ حركة، تمامًا، مثل شخصيّة في فيلم كرتون.

تسمّر مكانه.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

2

امتدّت يدُ زوجته تتحسسُ السرير في اللحظة المناسبة، لم تجده هناك، رفعتْ رأسها بحذر من تحت الغطاء، وفي العتمة، قرب الباب، استطاعت أن تلمح قامته. سألت بصوت مرتجف: «شو في؟! لماذا تقف في العتمة»؟ وعندما واصل صمتَه أدركتْ أنّه مات واقفًا، الميتة التي تمنّاها دائمًا؛ بلا مستشفيات وبلا نفقات علاج، كان يسميها نفقات موت!! أوشكت أن تصرخ. رمت الغطاء بعيدًا عن جسدها وراحتْ تركض. لم تصطدم بشيء. لم تتعثّر، فأثبتت أنّها ليست أقل منه قدرة على السّير في الظلام.

حين وصلته، تحسّستْ جسده، ارتدَّتْ يدُها برعب. قطعةً من جليد كان. تمثالَ جليد كان. تراجعتْ إلى الوراء دون أن تفارق عيناها جسده. سحبت اللحاف من ورائها، وألقته عليه. وراحتْ تفرك جسده بيديها الاثنتين وصدرها ملتصق به.

من حسن الحظّ أنّ جسدها استطاع بصعوبة أن يحيط بصورة لا بأس بها بجسده، فقد كان طويلا، وكانت صغيرة الحجم مقارنة به.

بعد لحظات، أحسّ بالدم يجري في عروقه من جديد. انسلَّ من بين يدَيْ زوجته كما لو أنّها لم تكن تحتضنه. خَطا نحو المقبض. أشرع البابَ. كان الأولاد قد نسوا المصابيح الكهربائيّة مضاءة. أوشك أن ينفجر أمام تصرّفهم الأرعن هذا. كظم غيظه، لكنّه أحسّ بأنّ الغيظ بثَّ فيه قدرًا لا يُستهان به من الحرارة.

قالت له زوجته: «سأوصلكَ إلى الحمّام». ردّ بجفاف: «لا داعي لذلك». وحمد الله أنّها لا تستطيع أن ترى أيَّ تعابير تلك التي ترتسم على وجهه مستنكرة عرضها السخيّ.

أمسك بمقبض الحمام، أشرع الباب، فاجأه ضوء ساطع لا يُحتمل. لقد نسوا إطفاء ضوء الحمّام أيضًا. وللحظة، أوشك أن يذهب إلى أسِرَّتهم، ويطلب منهم النهوض لإطفاء الضوء عقابًا لهم. لكن المسافة إلى أسرَّتهم كانت طويلة، إلى حدّ لا يملك معه الجرأة كي يذهب إلى هناك!

أطفأ ضوء الحمام، دخل، أغلق الباب خلفه.

في العتمة كان في إمكانه دائمًا أن يبول بشكل أفضل، دون أن يُطيِّرَ النورُ النومَ من عينيه.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

حين عاد وجد زوجته تنتظره في العتمة، أمام غرفة نومهما. حاولت أن تُمسكَ بيده، تساعده. سحب يده بعيدًا، بحيث كان يمكن أن ترتطم بحافة الخزانة؛ لكن كلّ شيء كان بالنسبة إليه محسوبًا تمامًا، بحيث لا يقع في خطأ كبير كهذا، حتّى في العتمة.

استدار نحو الجهة اليمنى للسرير حيث يرقد، بينما استدارت امرأته نحو الجهة اليسرى. كلّ ذلك جرى بصمت، كما لو أنّ زوجته لم تُفِق أصلاً، ولم تعرف ما حدث، ولم تمدّ له يدَ المساعدة، بذلك اللحاف الذي لولاه، لَتفجَّرت تلك الحشرة وهو واقف مكانه.

بعد أقلّ من عشر دقائق، أحسّ بالدفء يعود إليه ببطء. عطس ثلاث مرّات وسعل خمسًا؛ ونظر إلى النافذة، فلم يعرف ما إذا كان الضوء الذي يتسرّب من الخارج هو ضوء النهار أم ضوء أعمدة الكهرباء.

الشيء الوحيد الذي لا يمكن أن يفعله هو أن يشعل الضوء ليتحقّق من مواقع عقارب الساعة.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

3

تأمّل بهجت حياته في بحر العتمة، فأحسّ بأنّه كان يمكن أن يكون سعيدًا، لتلك الأسباب التي يتمنّاها كثير من البشر، فقد كان طويلا ورَزَقه الله بثلاثة أولاد طِوال، ولم يكن أحد يشكّ بذكائه، المدرسيّ على الأقلّ، فرزقه الله بابنة ذكيّة حقًّا، وكان وسيماً، ورزقه الله بامرأة إسمها جميلة!

على هذا الإحساس أغفى...

في التاسعة صباحًا استيقظ. لم تكن امرأته إلى جانبه. كانت قد غادرت إلى عملها في روضة الأطفال. الأولاد إلى مدارسهم. حاول أن يعرف ما الذي يدور في جسده بعد ليلة العذاب تلك، أطلقَ مِجسّاته السّريّة تتنقّل من أصابع رجليه حتّى جبينه. كلّ شيء كان يسير على ما يرام.

همس لنفسه: «أصابت «رويتر»، مرّة أخرى. يبدو أنّني تعافيت». وحاول أن يستحضر وجه أمّه، فهاله أنه لم يستطع، وعندها أحسَّ أن السنوات التي تفصله عن يوم موتها أكثر بكثير مما كان يظن!

أبعد الستائر. نظر إلى الخارج. كان ثمّة غيم كثيف يتقدّم من الجهة الغربيّة. تفاءلَ، رغم تشاؤمه الشديد، طَوال الأسبوع الماضي، من قرار الحكومة التي منعت النقابات من إقامة صلاة استسقاء في باحتها الواسعة، وقرّرت أن تنظّم بنفسها صلاة استسقاء، كما لو أنّ الحديث مع السماء لا يمكن أن يكون إلاّ إن جاء عبر الطّرق الرسميّة!

فكرة كهذه كان عليه أن يطويها ويدفنها عميقًا قبل أن يغادر بوّابة البيت، لأنّه لا يستطيع أن يكون مطمئنًّا، إذا خرج وهو يحملها في قلبه، فأفكار كهذه دائمًا فاضحة، وإن لم تُقَلْ.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

فريق متميزون
E-BOOK

4

أمام المرآة وقف طويلاً، قبل أن يخلع ملابسه ويستحمّ.

كالمعتاد، قامت امرأته بإشعال سخّان الماء الكهربائيّ. تلك عادة قديمة، اعتادتها منذ أن همس في أذنها قبل سبعة عشر عامًا، بعد ليلتين من ليلة زواجهما الكبيرة، طالبًا منها ألاّ تنسى إشعال السَّخان، حين لاحظ أنّها تنهض على الدوام قبله، أكثر نشاطًا وخفة، ولعلّ ذاك عائد إلى أنّها لم تتحمّل أيًّا من آلام تلك الليلة الكبيرة، لأنّ ما حدث بينهما كان قد حدث قبل أربعة أشهر وسبعة وعشرين يومًا وخمس ساعات، ولم يكن باستطاعته أن يخطئ في أمر كهذا، وقد عاش تلك الشهور والأيّام، خائفًا من أن تحمِل فينكشف الأمر قبل ليلتهما الموعودة.

كان يمكن للساعة أن تخون الزمن، متقدِّمة أو متأخّرة، لسبب ما، أمّا زوجته فلم تفعل ذلك مع السخّان. كان عملها متقنًا كما لو أنّه أحد بنود عقد الزواج التي عليها الالتزام بها!

لكنّه، للحقّ، لم يكن من أولئك الذين يمكن أن يطلِّقوا نساءهم لسبب كهذا.

«أعوذ بالله!» همس لنفسه حين خطرت له الفكرة.

لكنّ ثمّة أمرًا ما، في السَّخّان، بدأ يزعجه، إلاّ أنّه كتم انزعاجه. صحيح أنّه سأل زوجته أكثر من مرّة عن طريقة أخرى، قد تكون أفضل، لتسخين الماء، بعد التصاعد المستمرّ في فاتورة الكهرباء، إلاّ أنّ إجابتها كانت حاضرة دائمًا: «وهل هناك ما هو أقلّ تكلفة منها»؟! عندها، كان يغيّر الموضوع، فتلاحقه بملاحظات كثيرة حول سعر أنبوبة الغاز، وتقارن بينها وبين سعر السولار والكاز اللذين أصبحا في كفّة واحدة مع البنزين.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

فريق متميزون
E-BOOK

منذ مدّة، أحسّ أنّ أفضل وسيلة للتدفئة هي أن يلبس الأولاد أكبر قدر من الملابس، ما داموا داخل البيت. وقد أثبتت النتائج صحّة نظريّته، ممّا ساعده على الاكتفاء بشمعة واحدة مشتعلة من شمعات مدفأة الغاز الثلاث. ولم يكن غلاء الأسعار، أو التهاب الأسعار، كما يسمّيه، هو السبب الوحيد، إذ، ومن موقعه كمندوب لأخبار الحوادث التي يستقيها من مديريّة العلاقات العامّة في مديريّة الأمن، كان يعرف أنّ حجم المِيتات التي تَحْدث ليلاً، بسبب الاستعمال المتهوّر للمدافئ، يفوق كثيرًا عدد المِيتات التي تحدث بسبب البرد. ولعلّه لا يستطيع أن يتذكّر أبدًا حادثة موت واحدة، كان البرد أحد أسبابها، في هذه البلاد التي كان طقسها، على الدوام، دافئًا صيفًا، معتدلاً شتاء.

ما بات يؤرّقه، أن تموت العائلة عن بكرة أمّها وأبيها وهي ساهرة أمام التلفزيون دون أن تنتبه. وحين فكّر في الساعات التي يُمضيها الناس في هذا البلد، نيامًا، مقارنة بالساعات الطويلة التي يُمضونها أمام التلفزيون، بات على يقين من أنّهم قد يختنقون أحيانًا، دون أن ينتبهوا، ما دام التلفزيون وحده هو المستحوذ على انتباههم.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

في محاولة منه لتفادي كارثة مروّعة بهذا الحجم، يكون هو وعائلته أبطالها، كارثة سيتسابق عليها زملاؤه من الصحف الأخرى، غير عابئين بأنّ زميلهم ضحيّتها، قرّر أن يطفئ المدفأة كل ساعتين نصف ساعة، وهكذا أصاب عصفورين بحجر، فمن ناحية استطاع أن يقتصد في استخدام الغاز، بما يعنيه ذلك من وفر، ومن ناحية أخرى ضَمِنَ حياته وحياة أبنائه وزوجته، ووقاهم من أن يكونوا خبرًا عاجلا يتسابق عليه الزملاء في غيابه!

المشكلة الوحيدة التي واجهته، أو المضاعَفة -بلغة أهل الطبّ- كانت تلك المعارك الصغيرة التي تنشب بين الأولاد لأنّ كلاًّ منهم يريد أن يظلّ ملتصقًا بالمدفأة المطفأة، كما لو أنّها لم تُطفأ. وحين صرخ في وجوههم ذات يوم، متجاوزًا العهد الذي قطعه على نفسه (عدم الصراخ في وجوههم لأيّ سبب اقتصاديّ)، تراجعوا إلى الوراء، كما لو أنّ عاصفة، بل إعصارًا، حملهم وألقى بهم إلى أبعد زاوية في غرفة الجلوس.

صمتٌ طويل هبط، كما لو أنّه الثلج، غامرًا كلّ ما في الغرفة، وبعد أقلّ من ربع ساعة، رآهم يزحفون ببطء على مؤخّراتهم نحو المدفأة المطفأة، وفي نوبة حنان غامر، نهض من مكانه وسحب المدفأة المطفأة باتّجاههم، فتحلّقوا حولها بِرِضًا بالغٍ!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

فريق
متميزون
E-BOOK

6

كما لو أنّ وجهه التصق بالمرآة.

أحسَّ بهذا، وحين انتبه، هاله أنّ ملامحه شاحبة كيوم عزاء، شاحبة، ربّما، أكثر بكثير من ذلك المساء الذي شهد ما فعله مع زوجته، التي لم تكن زوجته آنذاك، في مكتب الإعلانات، مستجيبًا لذلك الأمر الذي ألقاه عليه عبد اللطيف، بأن يُثبت رجولته، وألاّ يكتفي بـ «اللحْمَسَة»!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

تحسّسَ ذقنه، طالع شعرات الشَّيب المتحفِّزة لنموّها الفاضح، وضع قليلاً من معجون الحلاقة «بلاك جاك» على طرف إصبعه، نقله إلى وجهه، وبطريقة آليّة، غمس شَعر الفرشاة في كأس الألومنيوم، وراح يحرّكها صعودًا وهبوطًا.

استدار مبتعدًا عن المرآة، جال في غرف البيت، كما يفعل كلّ يوم، حتّى يلين شعر وجهه ويغدو طيّعًا أمام شفرة «جيليت»، ثمّ عاد إلى المرآة من جديد، غمس الفرشاة ثانية في الماء، وراح يحرّكها صاعدًا هابطًا من جديد، ثم بدأ العمل، واثقًا من أنّه لن يجرح نفسه أبدًا، ما دام يحلق ذقنه بهذه الطريقة.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

منذ زمن بعيد، أحسّ أنّ أفضل أفكاره هي تلك التي تخطر له حين يكون أمام المرآة، كما لو أنّه يصبح اثنين، وبهذا تغدو قوة تفكيره مضاعَفة!

هكذا، كان يطوّر كثيرًا من القصص التي كان يحملها للجريدة كأخبار صغيرة لا قيمة لها، تُنشر في الصفحات الداخليّة، ويحوّلها أمام المرآة إلى حكايات دراميّة، يمكن أن تتهافت عليها شركات الإنتاج التلفزيونيّ لتعرضها في شهر رمضان الذي أصبح شهر المسلسلات الكبيرة المهمّة؛ الشهر الذي يُسمِّر الجميعَ أمام شاشات التلفزيون، الشهر الوحيد الذي يتحقّق فيه النصر بالضربة القاضية على كلّ المسلسلات والبرامج الأجنبيّة التي تُعْرض يوميًّا، من «Lost»، حتّى «Charmed»، مرورًا بِـ «Desprate House Wives» وَ «The Bold and The Beautiful” الذي شابَ ممثّلوه وانطفأت ممثّلاته، دون أن يفقد بريقه المشعّ منذ سنوات وسنوات. وقد فوجئ حين عرف أنّ مسلسلات رمضان العربيّة هي السبب الذي دفع إحدى المحطّات الفضائيّة إلى وقف بثّ برنامج «أوبرا وينفري»، لفرط خوف المحطّة من انفـضاض الناس من حول هذا البرنامج المحبوب. حتى أن بهجت نفسه اكتشف أن تلك المسلسلات أوشكت أن تقضي على حياته الجنسية تماما في ذلك الشهر، لشدة افتتانه بها، لو لم يتدارك الأمر، حين راح يستغلّ المساحة الإعلانية بين

هذا المسلسل أو ذاك (وقد كانت طويلة دائمًا) لكي ينسلّ هو وجميلة إلى الداخل، ويفعلانها، بعيدا عن أولاده الذين يستغلون مساحات الإعلانات لقضاء حاجتهم أو لإحضار شيء ما من الثلاجة أو سواها..

(«ليس هناك مكان أفضل من المرآة يمكن أن تتأمّل فيه ماضيك. ليس هناك مكان أفضل من المرآة يمكن أن تتأمّل فيه مستقبلك»)

همس لنفسه، وهو يمرّر أصابعه على ذقنه الحليق باحثًا عن شعرة ناتئة ما ليعود إليها بشفرته ويجتزّ عنقها!

وكما توقّع، اكتشف واحدة، أو ربّما أكثر، على حافة فكِّه، قريبا من أذنه اليمنى، غمس آلة الحلاقة في الماء الذي أصبح فاترًا، ومرّرها عليها ثلاث مرات، كي يطمئنّ. رفع أصابعه من جديد إلى المكان الذي كان رأس الشعرة يطل منه. كانت قد امّحت تمامًا. ابتسم.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

7

خرج من الحمّام، وقد أحسّ بأنّه ضيّع الكثير من الوقت في التفكير في مسلسلات لن يشتريها أحد. نظر إلى ساعته، التاسعة والنصف، تناول ملابسه الداخليّة، الموضوعة بترتيب فوق حافة السرير الخاصّة بزوجته (كالمعتاد، لم تنسَ أن تجهّزها له). عاد إلى الحمّام. كان عليه أن يستحمّ بسرعة، لكي يبردَ جسده، قبل أن يغادر البيت.

بقوّة راح يدعك أعضاءه، كما لو أنّه يريد أن يكشط كلَّ أثر للحمّى، كلَّ أثر للصقيع، كلَّ أثر للأنفلونزا، كما لو أنّه يريد أن ينتهي قبل أن يكتشف جسده أنّه أصبح عاريًا فيبرد، فيمرض، فتلقيه الحمّى في السرير ثانية، فينهض لوحًا من ثلج ويفاجأ بأضواء البيت مشتعلة.

لكنّه حين انتهى، لم يستطع أن يمنع نفسه من أن ينحني داخل حوض الاستحمام، ويلتقط بألم شديد ما تساقط من شعر رأسه.

راح يعدّ الشعرات. كانت هناك تسع وعشرون شعرة، بينها سبع عشرة شعرة بيضاء. «في المرّة السابقة كانت هناك أربع وعشرون شعرة فقط وعشر شعرات بيض» -همس لنفسه وهو يهزّ رأسه بأسى.

الشيء الذي كان لا يفعله أبدًا هو أن ينظر إلى شَعرِهِ قبل أن يجفّ، إذ كان منظره يوحي بأنّه قاب قوسين، لا أكثر، من صلع مرير.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

8

حين أشرع بوّابة العمارة، هالَهُ أنّ الياسمينة التي تزيّن الممرّ قد تحوّلت إلى كتلة من جليد، كان زهرها في جوف الكتل الصافية الصلبة، مثل أعين صغيرة ميّتة. أفزعه المشهد. أبعد عينيه فاصطدمتا بشجرة الحور العالية التي تحوّلت إلى تمثال جليد بآلاف الأصابع الدقيقة المشرعة كسكاكين تتطلّع إليه. تراجع خطوتين.

كان يعرف أنّ سقوط أيّ من هذه السكاكين يكفي لقتل إنسان، وكم أربكه أنّ الطبيعة يمكن أن تكون متوحّشة إلى هذا الحدّ؛ الطبيعة التي لم تكتف بوجود السكاكين والبنادق والمدافع في أيدي البشر، بل قامت بإشهارها في وجهه، في صباح لم يكن يتمنّاه أن يكون شرسًا إلى هذا الحدّ!

ألقى نظرة ثانية على الياسمينة، إلى جثث أزهارها المجمّدة، إلى تمثال شجرة الحور. وقبل أن يتّخذ قرارًا بالعودة إلى البيت، اندفع راكضًا إلى الخارج.

بسرعة قطَع المسافة الصغيرة بين العمارة وباب الكورولا، سيّارته الغالية التي احتفل بيوبيلها الفضّيّ في مطلع العام؛ سيّارة نموذجية، غير متطلّبة، حقيقيّة، ظلّت، منذ أن اشتراها، أقلّ الكائنات إزعاجًا بالنسبة إليه. ولو تُركَ الأمر لها وحدها («دون تدخّلات الحكومة المستمرّة في رفع أسعار قُوْتها»- كما يقول)، لكانت أهمَّ كائن ربطته به علاقة حتّى الآن.

لم تكن زوجته في الحقيقة سوى صورة للكورولا، ولكن استمرار تدخّل الحكومة في قُوتها وقُوت أولادها أيضًا، جعله يفكّر -في حالات كثيرة- بالاختفاء، وترْك نفسه عرضة لخبر هامشيّ يلتقطه الزملاء من دائرة العلاقات العامّة في مديريّة الأمن، يجعلهم يهرعون راكضين إلى صحفهم، حاملين هذا السّبق الكبير.

أدار المحرّك. استمع إليه. جاءه ذلك الصوت الذي يعرفه منذ ستّة عشر عامًا، هادئًا ومطواعًا وغير متذمّر من أيّ شيء. كان عليه أن ينتظر أربع دقائق على الأقلّ، قبل أن يحرِّك السيّارة، فهو يعرف أيَّ صقيع عاشه أمس في داخل البيت، فما بالك حين يتعلّق الأمر بسيّارة متروكة في الشارع وحيدة طَوال الليل؟!

فرك يديه باحثًا عن بعض دفء مجّانيّ. التفت إلى السماء. لاحظ أنّ الغيوم التي رآها قبل أقلّ من ساعة قد اختفت تمامًا، وحينما ارتدَّ ببصره نحو البخار الذي بدأ يتصاعد من غطاء المحرِّك، أفزعه ذلك المشهد غير المتوقّع: عصفور ميّت قرب ماسحة الزّجاج على يمينه.

لسبب لا يعرفه أبدًا، أطفأ المحرّك، وهبط من السيّارة. امتدَّت يده إلى العصفور تبعده. كان جزء من رقبته عالقًا بين الماسحة والزجاج. رفع الماسحة بيده اليسرى وسحب العصفور باليمنى. تأمّله، لم يستطع أن يعرف في أيّ ساعة قد مات. كان جسد الطائر باردًا على نحو مريع، كما لو أنّه أُخرج للتوّ من مُجمِّدة. احتار... ما الذي يمكن أن يفعله بعصفور ميّت وجده على زجاج نافذته؟! انحنى أخيرًا ووضعه على الأرض برفق. لو كان ثمّة رمق فيه، لربّما حمله إلى مستشفى الحيوانات، وهو في الحقيقة أقرب المستشفيات إلى بيتهم!

عاد إلى السيّارة. أغلق الباب بعنف. ولوهلة أنّبه ضميره، إذ لم تكن السيّارة تستحقّ صفعة قويّة كهذه، في صباح بارد كهذا، وعلى مرأى مشهد كهذا.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

فريق متميزون
E-BOOK

9

مرّت قطّة عسليَّة، بات يعرفها جيّدًا، بجانب العصفور الميّت، تشمّمته، نفضتْ رأسها بتأفّف واضح، ثمّ واصلت طريقها.

لسبب ما أراحه هذا، أراحه نبل القطّة التي أنِفَتْ أن تأكل عصفورًا ميّتًا. وتساءل: «كم سيمرُّ علينا من وقت قبل أن نأكله بأنفسنا»؟!

لم يكن متشائمًا كما هو متشائم هذه الأيّام. موجة غلاء إثر موجة غلاء، وتهديد يوميّ لا تكفّ الصحف عن تكراره حول المدى الخرافيّ الذي ستبلغه أسعار المحروقات، وما يعنيه ذلك من ارتفاع أسعار كلّ الأشياء، وكأنّ السماء متواطئة مع قرارات الحكومة، فها هي ترميهم بـِ «موجة برد إثر موجة برد إثر موجة صقيع أحرقت مزروعات سبعين ألف دونم في ليلة واحدة، في هذا البلد الصغير»!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

كانت سيّارته آخر سيّارة تتحرّك في الحارة، وهذه ميزة من ميزات العمل في الصحافة التي لا يستطيع إنكارها، رغم أن سيّارته كانت آخر سيّارة تصل إلى الحارة ليلاً، في بعض الأيّام، بسبب متابعةِ أمر ما في الصحيفة.

عدَّل المرآة الجانبيّة، عدّل المرآة الأخرى، نظر إلى المرآة الداخليّة أمامه، عدّلها، بما يتيح له أن يطمئنّ إلى شكله، فاقشعرَّ بدنه حين لاحظ بقعًا سوداء داخل أنفه، أشبه بعناكب صغيرة. امتدّت يده إلى محرمة ورقيّة أخرجها من كيس في جيب باب السيّارة، ونظّف أنفه تمامًا. ألقى نظرة أخرى إلى الموضع الذي كانت فيه العناكب، لكن بصره وقع على شعره الآخذ بالاندحار كجيش أُلحقتْ به هزيمةٌ نكراء.

هو يعرف أنّ عليه أن ينظّف أنفه وهو في الداخل، لكنّه كان ينسى هذا دائمًا، وإذا كانت إحدى جاراته خلف زجاج مطبخها، فإنها ستلاحظ أمرًا مقيتًا كهذا، عادة مقيتة كهذه. ربّما لم تكن هي العادة، ربما كان النسيان هو العادة الحقيقيّة.

راح يُرجع السيّارة إلى الوراء وهو يدير المِقْوَد ناحية اليسار. وقبل أن ينطلق، أبصر قطًّا أسود، يقترب من جثة العصفور الميّت، ويمضي بها بعيدًا.

أزعجه هذا، وفكّر في ما لو كان عليه أن يُلقي العصفور في حاوية النفايات، ويغلقها، أم كان عليه أن يتركه في الشارع؟! «من غير اللائق أن ينتهي عصفور صدّاح في حاوية للنفايات» -همس لنفسه. «أن يزدرده قطٌّ مَوّاء أمرٌ فيه بعض الكرامة على الأقلّ!» -أضاف.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

فريق متميزون
E-BOOK

10

أمام باب الصحيفة، وقف بهجت يتأمَّل المبنى، وهو يفكّر في السنوات التي أمضاها فيه، والتغيّرات التي طرأت عليه، في الداخل والخارج، وحتّى في عدد صفحات الجريدة الذي أصبح يتجاوز أحيانًا المئة صفحة. تذكّر اليوم الأوّل الذي قابل فيه السيّد عبد اللطيف، وحيّره أنّ كلّ الأحوال تغيّرت إلاّ حاله.

فقد بدأ حياته الصحفيّة مندوبًا، وأمضاها مندوبًا، وسيعيش ما تبقّى له مندوبًا، وسيموت، إذا لم يطلع نجم سعده، مندوبًا. وكلّما كان ينظر إلى زملائه الذين عملوا معه في الفترة نفسها، وما بعدها، كان يراهم هناك، في الأعلى، كما لو أنّ الله منحهم أجنحة ولم يمنحه سوى ما يمنح السلاحف التي لن تستطيع في أيّ يوم أن تطير!

السيّد عبد اللطيف أصبح رئيسًا للتحرير، بعد بعثة مخترعَة موّلتها الجريدة من جيوب مساهميها، قيل إنّه التحق بها في لندن، وحين عاد بعد ستّة أشهر، لم يجد الخبثاء من الزملاء، في الصحف الأخرى، من وسيلة يحرجونه بها سوى توجيه أسئلة له باللغة الإنجليزيّة، وفي كلّ مرّة كان يتملّص بحنكة يُحسد عليها، لكن الأمر بات مكشوفًا حين أكّد أكثر من مخبر صحفيّ أنّه لم يغادر البلد قَطّ.

أمّا الزملاء في الصحيفة، فقد كان كلّ منهم يعرف حجمه الطبيعيّ، ولذا هبّوا لإقامة ولائم حاشدة على شرفه، بمناسبة عودته، وقد أدركوا أنّه رئيس التحرير القادم.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

كانت مَهامّ رئيس التحرير قد أنيطت بالمدير الإداريّ، بعد خروج السيّد عارف غنّام من منصبه، وبات الجميع على ثقة أنّ طبخة جديدة تُعَدُّ في مكانٍ ما، ولن يمضي كثير وقت قبل أن يشمّوا رائحتها.

وكان حدسهم في مكانه؛ إذ لم يمضِ عشرون يومًا على عودته، حتّى اجتمع مجلس إدارة الصحيفة وقرّر انتخابه رئيسًا للتحرير.

«لو كانت الحياة تسلك الطريق نفسها في رعايتها لخطوات البشر، لكان الجميع رؤساء تحرير ووزراء وربّما أكثر بكثير» -راح يردّد في سرّه.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

فريق
متميزون
E-BOOK

11

لم يكن المحرّر الذي احتلّ مكان السيّد عبد اللطيف في القسم سيّئًا بأيّ حال؛ فقد تعامل مع بهجت كجزء من الموجودات التاريخيّة في الجريدة؛ والحقّ، أنّ أحدًا لم يهتمّ بما إذا كان ثمّة إنتاج حقيقيّ أم لا. كانت الجريدة في أفضل حالاتها مع طفرة الإعلانات، الإعلانات التي أصبحت صناعة ثقيلة، مع تصاعد المنافسة بين شركات الاتّصالات، ولم يعد هناك مجال لأن يُسأل الصحفيّون عن أيّ شيء.

كان يكفي أن يحضروا إلى مبنى الجريدة لينالوا رواتبهم ومكافآتهم السنويّة وأكثر، ولم يعد مكروهًا بينهم سوى ذلك الذي يعمل.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الشيء الوحيد الذي كان يزعج بهجت، أكثر من أيّ شيء آخر، أنّه لم يستطع أن ينقش اسمه بحروف من نور على الصفحة الأولى في الجريدة، بعد كلّ هذه السنوات من العمل المضني بين وزارة التربية ووزارة الأشغال ومديريّة الأمن. وفي لياليه الشاحبة الكئيبة، كان يتذكّر أنّه لم يغادر المكان الذي وُضِعَ فيه في الجريدة، كأيّ مسمار. وهكذا، كان يتساءل عن عدد الطلبة الذين أنهوا دراستهم الثانويّة منذ تعيينه في الجريدة، وعدد الذين أنهوا الدراسة الجامعيّة، وعدد الذين تخرّجوا أطبّاء ومهندسين ومحامين، وعدد الذين أصبح من بينهم وزراء ومديري شركات ورجال أعمال و...

ويتساءل عن عدد الذين ارتكبوا جرائم، وعدد السنوات التي أمضوها في السجون، وعدد الجرائم التي ارتكبوها ثانية وثالثة، وأفلتوا منها، أو أُلقي القبض عليهم فيها، فأُعيدوا إلى السجون وخرجوا منها، وأصبح بعضهم صالحًا فتزوّج وأنجب ووجد عملاً أهمّ من عمله...

ويتساءل عن عدد الجسور التي أُنشئتْ والأنفاق التي حُفرتْ والشوارع التي عُبِّدت والحوادث التي ارتُكِبت والأرواح التي أُزهِقتْ والسيّارات الفاخرة التي شُطبت والمخالفات التي قُيّدت والأموال التي حُصِّلَت، ومن أيّ جيب أُخرجتْ، وفي أيّ جيب أُنزِلَت...

وهو في مكانه...

وتساءل...

لكنّه قبل أن يصعد الدرج، بقدمين واهنتين وقامة بدأت أولى مراحل انحنائها، تذكّر ما الذي عانته «رويتر» من أجل خبر واحد، خبر التّحدي، الذي كان يعرف

أنّه ينتظره في مكانٍ ما، وأنّه سيصل إليه، وإنْ أدّى ذلك إلى دفع ثمن باهظ كالذي دفعتْه («رويترز»).

تذكّر الابتسامات المُختلَسة للجارات كلّما سمعن لقبها يتردّد. تذكّر تجاوُزَ إحداهنّ لكلّ معايير الاحترام والجيرة، حين سمعها تقول على مسمعه: إن كانت أمّه «رويترز»، فماذا سيكون اسمه؟!

فردّت أخرى بضحكة لا يمكن وصفها بأقلّ من ماجنة قائلة: «تقرير»!

فأجابتها أخرى بضحكة لا تقل مجونًا: «هذا، هذا لن يكون أكثر من خبر»!

(«كنت سألتفتُ إليهنّ وأقول: كلّكنّ أخبار، بل أقلّ من أخبار! لكنّي بقيت صامتًا يومها، وحمدًا لله أنّني لم أردّ عليهنّ، لأنّني لو فعلت ذلك لأعطيتهنّ أكثر من وزنهنّ؛ فقد كان عليّ أن أعمل في الصحافة لأدرك أهمّيّة الخبر، الذي تعاملن معه كشتيمة. كان عليّ أن أمضي كلّ هذه السنوات لأرى كيف يتسابق الكبار والصغار على وجود خبر عنهم في الصحف، كما لو أنّ مَن لا خبر له لا وجود له»!)

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

فريق متميزون
E-BOOK

12

الشيء الكبير الذي كان يبعث الأمل دائمًا في قلب بهجت هو دليل الهاتف، فقد نُشر اسمه مطبوعًا في أكثر من إصدار في هذا السِّفر الضخم، ولم يكن يفصل اسمه عن اسم وزير مهمّ سوى اسم واحد، وعن اسم فنان كبير مشهور سوى ثلاثة أسماء، وعن اسمِ صناعيّ بارز، كلّما خاض انتخابات البرلمان نجح فيها بأعلى الأصوات، سوى خمسة أسماء. وما دام اسمه قد نُشر على مسافة قريبة إلى هذا الحدّ، مع هذه الأسماء، فلا بدّ أن يُنشر ذات يوم إلى جوارهم على الصفحات الأولى!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

وأخيرا !!!

2:09 بعد الظهر...

لم يكن بهجت قد استراح فوق مقعده، خلف واحدة من الطاولات المخصّصة للمندوبين، في الساعة الثانية وتسع دقائق من بعد الظهر، حتّى راح جرس الهاتف يرنّ فوق طاولته.

من بعيد، كما لو أنّه القدر، جاءه الصوت من الطرف الآخر: «اتركْ كلّ ما في يدك وتعالَ فورًا»!

«قبل قليل كنت عندكم. ما الذي حدث»؟

«هناك مفاجأة مُعَدّة لكَ، لكَ وحدك. المهمّ ألاّ تتأخّر». جاءه صوت مدير العلاقات العامّة في مديريّة الأمن.

بسرعة أعدَّ الأخبار التي حصل عليها في جولته. وضع الأوراق أمام المحرّر، وانسلَّ إلى الخارج على غير عادته.

كان بهجت الصحفيَّ الوحيدَ الذي لم يزل يكتب الأخبار بيده، بعد دخول الجريدة عالم الكومبيوتر. ولسببٍ ما، لم يكن ذلك يزعج المحرّرين؛ إذ كان بهجت هو الشخص الأمثل الذي يذكّرهم بعالم الصحافة الذي كان، أو بأيّام زمان، على حدّ تعبير السيّد عبد اللطيف.

منهَكًا كان ومتعبًا بسبب عاصفة الأنفلونزا التي ذرّت خلاياه في الليلة السابقة.

لكن صوت مدير القسم تبعه: «على وين»؟

«هناك حدث طارئ وعليَّ أن أذهب فورًا إلى مديريّة الأمن» -قال بهجت خائفًا من أن يطلب منه المحرّر البقاء حتّى ينتهي من تحرير الأخبار التي أحضرها.

لكنّه قال له: «إذا كان هنالك أمر مهمّ فعلاً، فعليك أن تحضره بسرعة».

هزَّ بهجت رأسه وهبط الدرجات مُتعَبًا نحو الشارع حيث الكورولا الخضراء تنتظره.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

فكّر في سبب قويّ يجعل مدير العلاقات العامّة يتّصل به. استبعد أن يكون هنالك حادث سير كبير، فالبلد لم تنسَ، بعد، ذلك الحادثَ المروّع الذي هزّها قبل أيّام حاصدًا الأرواح بالعشرات.

كم تمنّى أن يسمحوا له بالذهاب لتغطيته! ولكنّه حين قرأ في اليوم التالي القصص المحزنة لركّاب الحافلة، انطلقتْ دموعه تجري رغمًا عنه، وحمد الله أنّهم لم يرسلوه إلى ذلك الموقع الذي قيل إنّه تحوّل إلى ساحة مجزرة.

(«لا بدّ أنّ السائقين لُقِّنوا درسًا قاسيًا بتلك الفاجعة، بحيث باتوا يحسّون بالدم يلاحقهم في كلّ مكان يذهبون إليه»!)

هو نفسه، الذي لا يقود سيّارته بأيّ من مظاهر التهوّر، بات يسير بصورة أبطأ وأكثر حذرًا. ورغم تأكّده من أنّ كلّ شيء فيها يعمل بانتظام، فإنّه ذهب بها إلى الميكانيكيّ المعتمَد لديه، وأجرى فحصًا شاملاً عليها، وحين أعلمه الميكانيكيّ أنّ الكوابح جيّدة، وأنّه يمكن استخدامها، بعيدًا عن احتمالات الخطر، شهرين إضافيّين، طلب منه بهجت بلطف أن يستبدلها بكوابح جديدة، مدَّعيًا أنّ فصل الشتاء لا يؤتمَن مطلَقًا.

في مسألة السيّارة لم يكن يساوم أبدًا، فإذا لم تكن السببَ في إزهاق روح إنسان لا يعرفه، فإنّها يمكن أن تكون السبب في إزهاق روحه وأرواح أسرته. وهكذا، قاوم كلّ الإغراءات المتاحة لترخيص سيّارته دون أن تُفحص، بعد أن عمل مندوبًا لمديريّة الأمن، بل كان يصرّ على أنّ أفضل ما تفعله دائرة السير، والحكومة من ورائها، هو إجراء ذلك الفحص الإجباريّ.

2:59 بعد الظهر...

بابتسامته الواسعة استقبله مدير العلاقات العامّة في مديريّة الأمن، وناوله ورقة، وقال: اذهب بها الآن، وفورًا، إلى السجن!

- وماذا فيها؟

- فيها المفاجأة التي تستحقّها!

- فقط، أوضح لي الأمر قليلاً. طلب منه بهجت برجاء.

- لا تُفسد المفاجأة! كما قلت لك، كلّ شيء مكتوب، ومدير السجن في انتظارك ليضعك في الصورة العامّة للموضوع. لا تُضع الوقت، فهو دائمًا ثمين، وهناك أوقات أثمن، وما سيأتي من ساعات هو من أثمنها!

هزّ بهجت رأسه، وشكر مدير العلاقات العامّة.

حين بلغ البابَ، تابعه الصوت: عليك أن تسلّم الورقة لحرّاس السجن على البوّابة، وهم سيتكفّلون بكلّ شيء.

في حالة أخرى، ربّما كان بهجت سيصرّ على معرفة ما يحمله، فقط لدواعي الاطمئنان، لكنّه في هذه الحالة، لم يكن يستطيع أن يشكّ في مصدر الأمان نفسه، ولذا، استبعد حكاية الشاعر العربيّ القديم (طرفة بن العبد) الذي حمل رسالة، قالوا له إنّ فيها مكافأة سيسلّمها إليه والي البحرين، وحين وصل قطعوا رأسه، إذ لم يكن في تلك الرسالة سوى جملة واحدة: «إذا وصلك حامل كتابي هذا فاقطع رأسه»!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

حين بلغ بابَ مبنى مديريّة الأمن الخارجيَّ، أدرك أنّه سيصارع أمواج ازدحام لا يرحم، قبل وصوله إلى مبنى السجن؛ وكم كان يكره ذلك! كم كان يكره تلك الساعات البغيضة من النهار، الساعات التي تنمو فيها مخالب وأنياب السائقين الذين يتحوّلون إلى وحوش حقيقيّة، ولم يكن يرى في أصوات أبواق سيّاراتهم التي تنفجر إلاّ عواء البشر أنفسهم، وكلّما أعادت إحدى المحطّات بثَّ فيلم «الذئب» (لجاك نيكلسون)، أحسّ أنّ السائقين يتحوّلون إلى ذئاب، لا لأنّ القمر قد اكتمل، بل لأنّ ساعة الصَّرع قد حانت.

كان بهجت يُجري كلّ الحسابات الدقيقة، بحيث يتجاوز نوبات الصَّرع العامّة تلك، قبل أن تبدأ بربع ساعة على الأقلّ، في طريق عودته إلى الجريدة كلّ

يوم؛ وإذا لم يستطع، لظرف قاهر، كان يسلك الطرق الالتفافيّة البعيدة عن الميادين والشوارع الواسعة وإشارات المرور.

كان الأمر معقولاً، ويُحتمل، قبل خمسة عشر عامًا، لكنّه لم يعد يُحتمل منذ تخفيض جمارك السيّارات.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

نظر إلى الكورولا كما لو أنّها سفينة، وتمنّى أن تساعده في اجتياز بحر الفوضى ذاك، نحو اللحظات الغامضة التالية التي تنتظره.

لم يكن بهجت من أولئك القادرين على استدعاء المستقبل، لأنّه لم يكن على يقين من أنّه واحد من أولئك الذين لم يخسروا الماضي!

3:16 عصرًا...

حاول بهجت أن يستحضر وجه مدير السجن الذي سبق له أن التقاه في غرفة مدير العلاقات العامّة للمديريّة ذات يوم، لكن الوجه بدا غائمًا، لا بسبب الوقت الطويل الذي مرَّ، ولا بسبب ضعف ذاكرة بهجت حين يتعلّق الأمر بالوجوه، بل لأنّه يومذاك لم يستطع النظر في وجهه إلاّ قليلاً، ربّما خوفًا من رجل مسؤول عن مئات المساجين!

همس بهجت لنفسه يطمئنها: «لا بدّ أنّه سيكون جالسًا خلف الطاولة في مكتبه الكبير، وعندها سأعرفه». لكنّه تساءل: «ماذا لو لم يكن في المكتب»؟ وأضاف: «تلك مشكلة». بحث عن طريقة أخرى يمكن أن تُسهِّل له الأمر فتذكّرَ: «ما دام مديرًا للسجن فسيكون الأرفع رُتبةً، وليس ثمّة أسهل من أن أنظر إلى كتفيه لأعرف ذلك».

بعد لحظات أحسّ بوخزة يأس، حين أدرك للمرّة الأولى أنّه لا يعرف شيئًا عن الرُّتَب، ولا يفرِّق بين النجمة وسواها من تلك الأشياء الذهبيّة التي تتناثر فوق أكتاف الضبّاط وقادة الجيوش:»كان عليَّ أن أعرف أمورًا كهذه منذ أن كُلِّفتُ بأخبار هذه المديريّة» - وبَّخ نفسه. لكنّه كان يعرف أيضًا، وبعد كلّ تلك السنوات التي أمضاها، داخلاً خارجًا من بوّابتها، أنّ أفضل ما كان يحدث له أن يغادر تلك البوّابة. وتساءل: «ماذا لو كان مدير العلاقات العامّة رجلاً غير بشوش»؟ وأجاب: «سيغدو الأمر كارثة حقًّا».

... لم يعرف كيف استطاع الوصول إلى مبنى السجن، عابرًا طرقًا رئيسة وأحياء مكتظّة وشوارع ذات أربعة مسارب، وجنونًا يستدعي بحمّاه تلاطُمَ أمواج يوم القيامة.

أمّا ما لم ينتبه إليه، فهو أنّ ساعة الصرع تلك أصابته، وأنّه صرخ وشتم وتحوّل إلى ذئب، مثل كلّ الذئاب، في تلك الظهيرة الباردة المجنونة.

4:00 عصرًا...

بمجرّد أن مدَّ يده بالورقة إلى حارس السجن الضخم وأراه هُويّته، وسمع كلمات الترحيب اللائقة بضيف مدير سجن، تنفّس بهجت ملء رئتيه، لكنّه في تلك اللحظة أحسّ بأنّ كمّيّات الهواء التي دخلت صدره كانت أكبر من رئتيه. راح يسعل سعالاً متواصلاً، سعالاً جافًّا يقتلع كلّ ما في طريقه من أشياء: لوزتيه ولسانه وسقف حلقه وجيوبه الأنفيّة وأسنانه الأماميّة وشفتيه.

كان لا بدّ أن يتوقّف قليلاً، يُحْكِم إغلاق معطفه على جسده، ويغمر وجهه بالياقة السميكة.

بعد لحظات هدأ، تنفّس هواءً ساخنًا من راحة يده التي تُخفي أنفه، فشعر بأنّه أفضل.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

صعد الدّرجات يسبقه أحد الحرّاس الرشيقين، وحين وصلا إلى بوّابة عالية تطلُّ على باحة واسعة، طرَق الحارس الباب ودعاه أن يدخل.

تلكّأ بهجت؛ ففي مثل هذه الحالات، يعرف أنّ عليه الانتظار قليلاً حتّى يُسمح له بالدخول، لكن الحارس شجّعه: «الباشا في انتظارك»!

بابتسامة تليق بصديق قديم، استقبله مدير السجن، وطلب منه أن يستريح.

اختار ذلك المقعد الملاصق للطاولة، وقبل أن يجلس، سمع الباب يُطرَق، وظهر شابّ طويل عارضًا تقديم واجب الضيافة.

حاول بهجت أن يعتذر، لكن مدير السجن أصرَّ: «السلطة الرابعة هنا، ولا نُقدّم لها الواجب؟! هذا غير معقول»!

«شاي إذا سمحت» -قال بهجت، وقد بدا أقلَّ توتّرًا. وسمع مدير السجن يقول: «وسأشرب شايًا بمعيّة ضيفنا»! فاطمأنّ أكثر فأكثر.

لسبب ما، كان بهجت يعتقد أنّ طَلَب كأس شاي أقلّ إزعاجًا من طلب فنجان قهوة، مع أنّ كثيرين قالوا له وردّدوا: «شاي أو قهوة لا فرق، ما دام الماء يغلي»! لكنّه كان يطلب، تأدُّبًا، الشايَ دائمًا، حتّى حينما كان يزور أمّه.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

ما أدهشه كثيرًا أنّ مدير السجن تذكَّره. هذا ما بدا واضحًا تمامًا، رغم أنّ بهجت كان التقاه مرّة واحدة في مديريّة الأمن، ونشر له إعلان تهنئة بمناسبة

نجاح ابنة أخيه وتخرّجها من كلّيّة الطبّ في جامعة القاهرة، مجاملةً، كما يحدث دائمًا مع بعض المسؤولين. تحدّثا يومئذٍ عن أخبار مديريّة الأمن، وأفلتت من بهجت تلك الجملة التي ندم عليها في ما بعد: «أتمنى أن أجيء إلى مديريّة العلاقات ذات يوم، فيقولون لي: تفضّل. هذا خبر صفحة أولى»!

ولوهلة، أحسّ أنّ كلامه قد يُفسَّر كما لو أنّه مقايضة، مقابل الإعلان الذي سينشره في اليوم التالي، لكن لم ينتبه إلى ذلك أحد، لحسن حظّه.

ابتسم مدير السجن وقال له: «لا عليك! خبر كهذا، ستأخذه من عندي وليس من عندهم»! وأشار إلى مدير العلاقات العامّة وهو يطلق ضحكة عالية.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

بسرعة فائقة شرح له مدير السجن كلّ شيء، قبل أن يُقدَّم له كأس الشاي، بحيث أحسَّ بهجت أنّ مدير السجن يبوح له بسرٍّ لا يريد لأحد أن يعرفه، حتّى ذلك الرجل الذي يُقدِّم إليه شايه وقهوته.

«الحقيقة أنّ مدير العلاقات العامّة في المديريّة هو الذي شجّعني على أن أخصّك وحدك بهذا الخبر، وهو -كما تعرف- خبر صفحة أولى. صحيح أنّ بقيّة الصحف ستزعل، لكن لا بأس، سنرضيهم في مرّات قادمة».

شكر بهجت مديرَ السجن، وحين راح الأخير يُدلي بتصريحه الرسميّ، بدأ جسد بهجت بالارتجاف ما إن سمع تلك الكلمات الثلاث: «تنفيذ حكم الإعدام»...

4:10 عصرًا...

أحكام الإعدام تُنفَّذ فجرًا. هذا ما يعرفه بهجت، لكنّه استوضح عن الأمر: «وهل سينفَّذ حكم الإعدام فجرًا كالمعتاد»؟!

- بالتأكيد، وكلّ الأمور ستكون مُعَدّة. الطبيب الشرعيّ موجود والشيخ موجود و ...، وبعد ساعات سنطلب من السجين أن يختار رغبته الأخيرة التي سننفّذها له.

وناول بهجت ورقة تسمح له بدخول السجن إذا قرّر أن يأتي لحضور تنفيذ الحكم.

- أظنّ أنّ قلبي لن يحتمل. قال بهجت.

- ضعها في جيبك، لعلّك تُغيّر رأيك في اللحظة الأخيرة.

وضع بهجت الورقة في جيبه، وهو يفكّر بارتياب في رحلة صيده الكبرى هذه، التي سيعود منها بشخص ميّت. وما إن غادر بوّابة السجن حتّى تساءل: «أيّ مفارقة هذه يا بهجت؟! كي يظهر اسمك على الصفحة الأولى، لا بدّ أن يختفي شخص من هذه الدنيا تمامًا»!

لكنّه رغم ذلك أحسّ برعشة فرح غامضة في صدره...

5:00 مساءً...

اختار طاولة في الركن، وكتب الخبر، محاذرًا أن يعرف زملاؤه أيّ شيء عن الغنيمة التي ظفر بها. وحين انتهى، وقف أمام رئيس القسم وناوله إيّاه.

بمجرّد أن قرأ العنوان، قال لبهجت: «ها أنت تقفز أخيرًا إلى صدر الصفحة الأولى! مبروك»!

شكره بهجت وقال بفخر: «سيكون الخبر لنا وحدنا»! هذا في الوقت الذي كان فيه مدير القسم يواصل قراءته.

- هناك محرّر وصل من محرّري الدوليّات. أعطه إيّاه.

مسح محرّر الدوليّات الخبر بنظرة خبير، وقبل أن يطرح سؤاله جاء جواب بهجت: «سننفرد بنشر هذا الخبر»!

- أكيد؟!

- أكيد، ولكن... أرجو أن تنشره بصورة واضحة.

- لا عليك، أخ بهجت. كن مطمئنًّا.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

فجأة أحسّ بهجت بالتعب، بالجوع وبارتفاع في درجة حرارته. كانت الساعة قد بلغت الخامسة مساء. انسحب بهدوء إلى البيت، وقد قرّر أن يعود بعد أربع أو خمس ساعات ليطمئنّ أكثر، غير عابئ بذلك الخبر، الذي بات شبه مؤكّد، حول اقتراب وصول عاصفة ثلجيّة تجتاح البلاد اعتبارًا من ذلك المساء.

كان الأمر بالنسبة إليه مربكًا. لم يعرف ما إذا كان عليه أن يخبّئ السرّ عن زوجته إلى أن يرى بعينيه الخبر منشورًا، أم يُفسد المفاجأة بدعوة الأسْرة إلى اجتماع رسميّ في غرفة التلفزيون يشرح فيه الأمر.

قرّر أن يجلس على السرّ كما تجلس دجاجة على بيضة، بصبر وصمت، لأنّه يتعامل، في النهاية، مع جهة أمنيّة، وعليه أن يكون حريصًا، حتّى في الأمور المؤكّدة.

لكن ما أفسد ذلك كلّه أنّ صورة القطّ الأسود عادت لتحتلّ رأس بهجت من جديد، القطّ الأسود الذي الْتهم العصفور الميّت، القطّ الأسود وسواه من القطط التي تكاثرت على نحو مريب، بكثافة غير معهودة، فغطّت جزءًا

أساسًا من أرصفة وشرفات بيوت الحارة الواطئة، وغدت المساحاتُ الصغيرةُ الفارغةُ بين محرّكات السيّارات أماكنَها المفضّلةَ للمبيت.

5:24 مساءً...

كانت الشمس قد اختفت تمامًا، بعد أن سَلَّم الخبر وغادر مبنى الصحيفة. ظلام صلدٌ لفّ الشوارع، وغابت السماء خلف غيوم سوداء، وبدا الأمر له أنّ أزمنة سحيقة، لا يعرف عدد سنواتها، تفصل شمس الصباح عن عتمة المساء.

هل كان المرض يعود ثانية بعد ليلة العرق والصقيع الماضية؟ كم أفزعه هذا، أن يصل الكورولا ولا يجد في نفسه القدرة على إدارة المفتاح لتشغيلها!

لكن ما لم يلحظه صباحًا لم يكن في مستطاعه إلاّ أن يراه مساءً. كان سُعار فترة الظهيرة في الشوارع قد تضاعف أكثر، امتلأت الطرقات بالسيّارات تمامًا، وحين وصل إلى أوّل ميدان، أدرك أنّه اختفى أيضًا، وأنّ عليه أن يتوقّف طويلاً وسط غابة الأبواق التي تنطلق من كلّ مكان.

لم يعرف ما إذا كانت هناك شرطة تنظِّم السير في الميدان الكبير الواقع تحت الجسر أم لا، الجسر الذي سكنت حركة السيّارات فوقه تمامًا، كما لو أنّها متوقّفة في كراج عامّ.

بعد وقت طويل تحرّكت العربات التي أمامه قليلاً، وقبل أن يستبشر بهذا، عادت وتوقّفت ثانية، فاندفع سُعارُ وصَرعُ الأبواق من كلّ الجهات.

كان على وشك أن يضع يده على بوق سيّارته ويطلقه، كما يفعل الجميع، لكنّ جسده كان أضعف من هذا بكثير.

فكّر أن ينعطف قبل الميدان، من تلك الفتحة المخصّصة للالتفاف، والعودة إلى الجريدة.

الوصول إلى البيت بدا أمرًا مستحيلاً.

زمن طويل مرَّ، قبل أن يستطيع الوصول إلى الفتحة الالتفافيّة.

حين رأى السيّارات العالقة فيها وعدد السيّارات المتناحرة على الطرف الثاني للشارع، قرّر أن يواصل الطريق إلى البيت، وهو يتساءل: أيّ حلقة جهنميّة هذه التي يدور فيها منذ الصباح؟!

6:05 مساءً...

أخيرًا، استطاع الوصول إلى طرف الميدان؛ كان الأمر أشبه بيوم القيامة، اللعنات تتطاير في الهواء من كلّ جانب، لعنات كان يمكن أن تؤدّي إلى ارتكاب جرائم كبيرة، لو سمعها شخص تُوَجَّه إليه في موقف غير هذا؛ لكنّ

أحدًا لم يكن يجرؤ على الهبوط من سيّارته ليبدأ عراكًا. كان الجميع سيقتلونه بسبب إعاقته لحركة السير!

لعنات من فوق، ولعنات من تحت؛ لعنات لا يمكن أن يتخيّل المرء عددها، ولا كيف قُيِّض لها أن تجتمع في مكان واحد.

الجنون وحده كان سيّد الموقف. كلّ شخص يريد ما يريده هو، غير عابئ بأيّ شيء، سوى الخروج من جحيم تلك الفوضى. وللحظة، أوشك بهجت أن يجد فسحة يعْبر منها، وقبل أن يفعل ذلك جاءت سيّارة نقل صغيرة من نوع «تويوتا هاي لوكس» وأغلقت الفسحة التي لو بقيت قائمة، لاستطاعت مجموعة كبيرة من السيّارات أن تمرّ عبرها، بحيث يتلاشى نصف الأزمة.

أخرج بهجت رأسه بغضب من شبّاك الكورولا. كان على وشك أن يوجّه لسائق الهاي لوكس شتيمة من تحت وأخرى من فوق، لكنّه في اللحظة الأخيرة تذكّر ذلك الخبر الذي احتلَّ مساحة لا بأس بها في النصف الأسفل من الصفحة الأولى برعب:

تبادُل نظرات غضب يتسبب في جريمة قتل

.. وتحدَّث الخبر عن مشاجرة بين شاب وخمسة أشخاص، ما أدى إلى مقتله، بسبب تبادل نظرات غضب بين الشاب المغدور والمشتبه بهم في سوق للخضار، حيث تلقى عدة طعنات تسببت في وفاته...

تخيَّل بهجت كيف يمكن أن تنهال عليه السكاكين طعنًا بسبب نظرة غضب، قد تكون غير مقصودة تمامًا في سوق أو أمام إشارة مرور أو في سوبر ماركت أو في طابور داخل أحد المكاتب البريدية من قبل أناس ، مثله، جاؤوا يسددون قيمة فواتير الهاتف أو الكهرباء..

خفَضَ بصرَه.. قال للسائق الشاب بأدب: «هل أنت راضٍ الآن بعد أن أغلقت الطريق»؟!

«ما داموا لم يسمحوا لي أن أمرَّ، فلماذا أسمح لكم»؟! قال السائق الشابّ ذو الوجه الشبيه بوجوه متسابقي برنامجَيْ «سوبر ستار» وَ «ستار أكاديمي»، وهو يهزّ رأسه مستجيبًا لنداء أغنية صاخبة، لا يستطيع المرء التقاط كلماتها، كانت منطلقة من مسجّل سيّارته.

بعد عشر دقائق، سمع بوق سيّارة شرطة، ومكبّر الصوت يأمر السائقين بالتنحّي جانبًا.

ولم يكن هنالك أيّ جانب.

لم يكن هنالك أيّ أمام أو أيّ خلف أو أيّ يمين أو شمال.

لم يكن باستطاعة أحد أن يفتح باب سيّارته ليفرّ، إذا اندلع فجأة حريق في تلك الغابة.

وقفت سيّارة الشرطة في مكانها، وراحت تطحن الأوامر دون جدوى.

في النهاية، كان لا بدّ من أن يحدث شيء، وقد حدث، لكنّ أحدًا لن يعرف كيف حدث. ابتعدت سيّارة الهاي لوكس من أمام الكورولا، فانطلق بهجت بسرعة عبر الفسحة التي خلّفتها، وتعالت أصوات الأبواق تحثُّ السائقين القادمين من يمين الميدان لترك الثغرة مفتوحة، لكنّها أُغلقت من جديد.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

تنفّس بهجت ملء رئتيه، وأطلق سعالاً متواصلاً. تذكّر أنّ شبّاك الكورولا مفتوح. أغلقه. حاول أن ينظر عبر الزجاج الأماميّ إلى السماء، محاولاً أن يرى أيّ شيء يشير إلى ما يحدث، إلى ما سيحدث، لم يرَ. وكم أحزنه أنّ يومًا كهذا، يتأهّل فيه اسمه للقفز إلى الصفحة الأولى، لا يمكن أن تُطلق الألعاب الناريّة فيه!

6:27 مساءً...

كانت القيامة قائمة على الأرصفة، كما هي خلفه في الميدان الواسع، وأكثر، حيث أطبق الناس على الفرن المحاذي للدوّار، فاختفت واجهة الفرن وواجهات محلاّت بيع الأدوات المنزليّة ومحلّ الزهور، وعلى بعد ثلاثين مترًا كانت واجهة السوبر ماركت قد اختفت، وكذلك البقالة الصغيرة المجاورة له، البقالة التي لم يعد أحد تقريبًا يشتري منها منذ افتتاح ذلك السوبر ماركت الضخم.

حاول بهجت أن يتذكَّر ما ينقصهم في البيت. لم يتذكّر شيئًا. لحسن الحظّ كان قد اشترى ما يلزم من أشياء قبل يومين.

تخيّل نفسه لحظة وسط جموع المتدافعين أمام الفرن، أمام السوبر ماركت، فكاد يختنق.

أخذ نفسًا عميقًا، وراح يسعل سعالاً متواصلاً...

وقبل أن يصل إلى محطّة الوقود، أدرك أنّه سيرى قيامة أكبر هناك.

وكانت قائمة فعلاً،

حتّى إنّه قال في نفسه: «لو أنّ للغضب شررًا، كما يقول الأدباء، لانفجرت محطّة الوقود»!

كانت أيدي الناس تلوّح بالأوعية البلاستيكيّة الفارغة، وقد بات العثور على مكان لهذه الأوعية إلى جانب أصحابها أمرًا مستحيلاً. أمّا السيّارات، فقد كانت تتزاحم في فوضى مريعة، ولم تكن أيدي السائقين تتوقّف عن التلويح كما لو أنّ السيّارات الأخرى أسراب ذباب يريدون إبعادها.

هدأ الأمر فجأة مع ابتعاده عن محطّة الوقود، التي ألقى عليها نظرة عبر المرآة الجانبيّة، فرآها مثل ساحة حرب.

أظلمت الشوارع أكثر، مع عدم وجود أبنية سكنيّة حولها، ثم عادت لأضوائها الشاحبة مع وصوله إلى أحد الأحياء السكنيّة.

لم يرَ أيّ قيامة. وعندها تذكّر أنّ القيامة -لا بدّ- في منتصف ذلك الحيّ، حيث مركزه التجاريّ.

انعطف بالسيّارة، تلك الانعطافة المألوفة نحو البيت، لكنّه فوجئ بالطريق مغلقًا. كان الناس يتدافعون بأسطوانات الغاز الفارغة، لاستبدالها بأخرى ممتلئة من سيّارة الغاز المُحاصَرة التي لم يبقَ هنالك ما يشير إلى وجودها سوى الموسيقا الرسميّة التي تطلقها مثيلاتها من سيّارات توزيع الغاز.

لم يكن البيت يبعد أكثر من ثلاثمئة متر فقط.

انتظر بهجت ربع ساعة، وحين لم يحدث أيّ شيء، أوقف سيّارته جانبًا، وقرّر قطع المسافة سيرًا على قدميه.

بمجرّد أن فتح باب الكورولا، هَبَّ هواء بارد لم يكن يتوقّع وجوده في الخارج. وقبل أن يقطع مسافة خمسين خطوة، متجاوزًا بصعوبةٍ الجموعَ المتدفِّقةَ، ومحاذِرًا أن يصاب بضربة قاسية من أيّ أسطوانة غاز، فارغة أو ممتلئة، قبل أن يقطع مسافة خمسين خطوة، بدأت قطرات المطر تتساقط من السماء متفرِّقة. وقبل بلوغه بوّابة البيت، كانت السماء قد تحوَّلت إلى مزراب. وقبل أن تحضر له زوجته طعام الغداء الذي تحوّل إلى طعام عشاء، كان قد اندسّ في السرير مرتجفًا ونام.

تأمّلته كما تتأمّل واحدًا من أطفالها، مدركة أنّ الحمّى عادت من جديد لتعصف به. تأملته، ولأول مرة أدركت كم كبر، وما الذي فعله الزمان به؛ أشبه بعجوز ضئيل الحجم كان.

أحضرت جميلة لحافًا آخر وألقته فوقه، وانسلَّتْ مغلِقةً البابَ خلفها بهدوء.

7:38 مساءً...

في العتمة الصغيرة المحاصَرة بأربعة جدران وسقف قصيّ، كان بهجت يرتجف بردًا. وما لبث جسده أن راح يهتزّ بعنف غير عِاديّ، كما يرتجف جسدُ

طائر ذبيح. السرير يعلو ويهبط مُصْدِرًا صريرًا حادًّا، والجدران تهتزّ كلّما ارتطم جسده بها.

كان أعمى في مكان لا يعرفه، مكان غامض تعمُّه الفوضى ويعصف به صمتٌ حالكٌ. حاول أن يجد ثغرة ما، ثقبًا يخرج منه، أو يزجّ جسده فيه كي يوقف هذا الاهتزاز الوحشيّ. لم يجد.

رأى وجه جميلة خطفًا، حين سطع نور كأنّه البرق. أشار إليها، ونادى، لكن يده لم تلوّح، وصوته لم يصل أبعد من حنجرته.

إحساسٌ بالقهر جارفٌ اجتاحه، فبدأ يبكي، لكنّ عينيه كانتا جافّتين كواحة مهجورة...

على وشك أن يطلق صرخة أخيرة كان، صرخة واحدة، صرخة هي كلّ الصرخات التي يمكن أن تكون داخل إنسان. وقبل أن يفتح فمه، أحسّ بجسده يُلقى بعيدًا خارج تلك اللحظات القاتلة، يُلقى إلى أبعد من أيّ مكان، إلى لا مكان.

لم يكن هناك ما يشير إلى وجود أيّ شيء حوله، سوى الصمت، الصمت الذي كان شفّافًا كدمعة عالقة بذكرى حزينة...

وفجأة، هدأ كلّ شيء. تلفّت حوله، أحسّ بأنّه في مكان يعرفه لفرط ما حلم به. امتدّت يده لتلمس ما يراه. لم يستطع. حاول أن يخطو. اكتشف أنّه معلَّق في الهواء. حاول أن يعود. التفت خلفه، وفاجأه أنّه لم يرَ أيّ شيء...

وفي أقلّ من لحظة، هبط ضباب أبيض، فأحسّ أنّه عالق هناك في العدم...

11:15 ليــلاً...

اشتدّت الريح،

فازداد اندفاع المطر، صافعًا الشبابيك، وما تناثر من قِطع معدنيّة فوق السطوح؛ وفي الشارع الرئيس المقابل، حيث باستطاعتهم مراقبة عبور السيّارات، لاحظ الأولاد -ومعهم أمّهم- أنّ كثافة حركة السير تقلُّ شيئًا فشيئًا.

لم يكن الأولاد قابلين للاستجابة لنداءات أمّهم المتكرّرة للذهاب إلى فِراشهم. كانوا يريدون أن يرَوْا بأعينهم بداية العاصفة الثلجيّة، كي يناموا مطمئنّين.

تحت أضواء إنارة الشوارع، كان باستطاعتهم مشاهدة مويجات المياه الصغيرة للبركة التي غمرت نصف شارعهم المغلق.

وكانوا خائفين؛

فوجود هذه الكمّيّة من الأمطار يعني أنّ الثلوج ستبذل الكثير من الجهد حتّى تستطيع الالتصاق بالأرض.

طمأنتهم أمّهم: «بعد قليل سيتوقّف المطر، ولن يبقى هنالك سوى الريح التي ستجفّف الماء عن كلّ شيء، وبسرعة لا تتخيّلونها».

وتوقّف المطر.

فجأة توقّف المطر.

كما لو أنّه كان في انتظار ملاحظتها الثاقبة تلك، فتطلّع إليها أولادها بفخر، ورأَوْا فيها أعظم متنبّئة جوّيّة عرفها العالم.

تدافعت المويجات في الشارع في كلّ الاتّجاهات. صفا الجوّ فجأة، مع تلاشي خيوط المطر، وأصبح باستطاعتهم أن يرَوْا أكثر، وأن يحدّقوا في السماء التي تغيَّر لونها المائل إلى بياض شاحب لم يرَوْه من سنوات.

لكنّ المطر الذي توقّف في الخارج انهمر غزيرًا في الداخل، عَرَقًا غمر جسد بهجت كلَّه. وفي تلك اللحظة، أدرك أنّه كان قد نام دون أن ينتبه، وأنّ سلطان النوم أخذه بعيدًا، فقفز كالملدوغ.

كانت الغرفة مظلمة تمامًا.

داهمه خوف لم يعرف مثله من قبل («هل أطلَّ الصباح»؟)

بيضاءَ كانت الستارة، كالشوارع البيضاء في الخارج، كالمدينة، كالصمت الذي هبط فجأة. تحسّس السرير بيد عمياء باردة. لم تكن زوجته هناك.

وكان يرتجف...

غيرَ عابئ بشيء، بعرقه، أو بذلك الإنهاك الذي شرَّش فيه؛ بخطوات مترنّحة اتّجه إلى الباب، أشرعه. كان الصمت كاملاً، ومن المطبخ وصله صوت زوجته خافتًا وهمهمات الأولاد.

نظر إلى الساعة، فهالَهُ أنّه نام كلّ ذلك الوقت. لم يكن قد تبقّى على بلوغها منتصفَ الليل سوى خمس وأربعين دقيقة.

- أين المعطف؟ صرخ بصوت عال.

سمعته امرأته، وقبل أن يعيد سؤاله كانت قد أصبحتْ أمامه: «خير إن شاء الله»؟!

- أين المعطف؟!

- وما الذي تريده من المعطف في وقتٍ كهذا، وأنت تقطر عرقًا؟!

- عليَّ الذهاب إلى الجريدة.

- وما الذي تريده الجريدة منك في وقت كهذا؟ بعد قليل سينزل الثلج وستُغلق الشوارع، ولن تستطيع العودة!

- أريد المعطف، وبسرعة.

حدّقت فيه، وجدت عينيه محمرَّتين، رفعتْ يدها ووضعتها على جبينه: «أنت تغلي! عليك أن تستريح» -قالت له.

تركها في مكانها، ودار في البيت كالمجنون. وجده أخيرًا هناك، معلَّقًا قرب الباب الخارجيّ.

- ألن تقولَ لي ما الذي يحدث؟

تَحلّقَ الأولاد حول أمّهم غير مصدِّقين ما تراه أعينهم.

- مَن الـ... الذي يمكن أن يخرج في ليلة كهذه؟ في ساعة كهذه؟ قالت بغضب.

- معك حقّ. لن يخرج أيّ مجنون في هذه الساعة؛ أمّا العقلاء فيخرجون!!

اعترضتْ طريقه: أنتَ تهذي، لا شكّ أنك تهذي. ليس هناك من سبب يستحقّ أن تخرج من أجله الآن.

- بل هناك. قال لها بحزم.

- وما هو؟

- ستعرفين حين أعود. ستعرفين أنّ كلَّ التعب الذي تعبته لم يذهب هباء، وأنّ الأوان قد آن، لكي أخرج إلى سطح الدنيا! وأبعدها برفق، وقد أدرك أنّ حلمه قد أصبح في متناول يده لأوّل مرّة منذ عمله في الصحافة.

- إذا أردتِ أن تعرفي المفاجأة، فانتظريني.

11:23 ليــــلاً...

بمجرّد أن سارَ خمس خطوات في الشارع، أدرك أنّ الأمور قد انقلبتْ تمامًا. في البعيد لاحت له بركة الماء الصغيرة بما تبقّى من مُويجاتها المتلاطمة، بحث بعينيه الصغيرتين عن مَـنْفذ يوصله إلى السيّارة، فلم يجد غير ذلك الرصيف الضيّق المزروع بأشجار الزيتون.

كان يعرف أنّ السير عليه بات مستحيلاً، مُذ كبرت تلك الأشجار، بحيث لم يعد أحد يستخدمه.

بصعوبة وجد طريقه أخيرًا، مثل ثعلب عجوز في شُجيرة صبّار. وفي تلك اللحظة أدرك أنّه أخطأ حين أوقف السيّارة بعيدًا عن البيت إلى هذا الحدّ.

كانت سيّارة بيع أسطوانات الغاز قد اختفت، ومعها اختفت جموع الناس، لكنّه للحظة أحسّ بأصواتهم تتصاعد، كما كانت تتصاعد قبل خمس ساعات، وفي لحظة خاطفة رآهم، فعلاً، يتدافعون نحو السيّارة دون كلل.

تجمّد في مكانه.

لكنّه استطاع أن يرى من خلال أطيافهم سيّارته الكورولا، هناك، على جانب الشارع وحيدة.

عند ذلك عاد الدم يجري في جسده، فاندفع نحوها، وقبل أن يصلها، لاح له فجأة طيف «رويتر» واهنًا وصغيرًا يرتجف وحيدًا تحت الثلج، فتجمّد في مكانه دقائق، بحيث لو قُدِّر لامرأته أن تراه، لحسبته رجل ثلج ليس إلاّ...

11:43 ليـــلاً...

كم بدت الشوارع مسالمة وطيّبة في تلك الساعة المشحونة باحتمالات البياض! كم بدت المدينة صافية وتُحَبّ!

هدأتْ دقّات قلبه. تحسّس جبينه؛ وجده رطبًا وحارًّا.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

بوصوله إلى مبنى الجريدة بسرعة لم يكن يتوقّعها، أحسّ بأنّهم محظوظون أولئك الذين يبدأ عملهم في مثل هذا الوقت المتأخّر من الليل.

لكنّه تذكّر أنّ هذا الهدوء هو هدوء العاصفة، لا هدوء المدينة المعتاد.

في الداخل، كانوا يسابقون الزمن، كي يُنهوا العمل بسرعة؛ إذ بات الجميع -بغريزتهم- على يقين من أنّ التنبّؤات الجوّيّة ستصدُق هذه المرّة، بعد مرّتين، كانتا أشبه بفضيحة، حين لم تصل العاصفة المتوقّعة، وانقلب الشتاء إلى أيّام صيفيّة حارّة.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

- بعد أقلّ من ساعتين، سيكون في إمكانك أن تطمئنّ، وتخرج من هنا ونسخة من عدد يوم غد في يدك. قال له المحرّر المناوب.

- والخبر؟! سأل بهجت بلهفة.

- وضعناه في أسفل النصف العلويّ من الصفحة الأولى، اطمئِنّ!

وأوشك أن يسأل: واسمي؟!

وكما لو أنّ المحرّر يقرأ أفكاره قال له: نشرنا الخبر كما تسلّمناه منك. لم نغيّر شيئًا حتّى العنوان، وظلَّ اسمك في مكانه أيضًا.

أخذ بهجت نفَسًا عميقًا، وفاجأه الأمر حين لم يسعل أبدًا.

- فأل خير. همس لنفسه. لكن جسده كان يرتعش.

- كان عليك ألاّ تغادر البيت. ألا تلاحظ أنّك تكاد تقع أرضًا بسبب المرض؟!

لم يجب بهجت. كانت عيناه تدوران باحثتين عن شيء آخر.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

كما لو أنّه أمام غرفة عمليّات، في داخلها زوجته تلد، أمضى بهجت الوقت متأرجحًا كبندولِ ساعةٍ ثَمِلٍ.

بعد ساعتين، ناوله المحرّر نسخة من الجريدة.

تسمَّر بصره فوق اسمه، الذي بدا واضحًا كعنوان، ودون أن يلاحظ، ارتسمت على شفتيه ابتسامة واسعة بحجم الصفحة كلّها، بحجم الصفحات كلّها، بحجم الجريدة والعالم الخارجيّ الهادئ المطمئنّ المسالم الطيّب.

جملة واحدة قالها المحرّر عن غير قصد، ربّما، قلبت الأمور رأسًا على عقب، فانكمشت ابتسامته حتّى غدت بحجم خُرْم إبرة خياطة.

- كلّ ما أخشاه أنّهم لن يستطيعوا تنفيذ حكم الإعدام في ليلة كهذه!

- ما الذي تعنيه؟

- ألم ترَ الثلج قد بدأ يتساقط؟ مَن يستطيع الوصول إلى السجن، غير الذين فيه أصلاً؟!

- ما الذي تعنيه؟! سأل بجزع.

- حُكْم الإعدام يتطلّب وجود طبيب شرعيّ ومندوبين عن مديريّة الأمن، وربّما عن القضاء، ووجود شيخ أيضًا.

- ما الذي تعنيه؟!! كرّر سؤاله بجزع أكبر.

- ذلك يعني، إن حصل، أنّ خبرنا كاذب، وأنّ المحكوم عليه بالإعدام سيقرأه في الصباح، ولعلّه سيضحك كثيرًا، فقد عاش حتّى رأى اسمه على صدر الصفحة الأولى.

- ما الذي تعنيه؟! سأل بفم جافّ ونفَسٍ مقطوع.

- وهل هنالك كلام أوضح من هذا؟! سيكون ذلك إحراجًا كبيرًا للصحيفة، لكَ، ولمدير السجن وللأمن العامّ ولكلّ شيء.

في تلك اللحظة، قرّر بهجت ألاّ يقفَ مكتوف اليدين.

سار بخُطًى عمياء نحو الباب، فاصطدم بأكثر من طاولة. لكنّه فجأة استدار عائدًا إلى المحرّر: هل باستطاعتي الحصول على نسخة أخرى من الصحيفة؟

- خذ نسختي. بعد قليل سيُحْضرون لي غيرها.

تناول نسخة المحرّر وانطلق مهرولاً فوق الدرجات، محاولاً اللحاق بقَدَره، غير عابئ بذلك الخوف الذي أصاب قلب موظّف الاستقبال في الصميم، وهو يرى شخصًا يغادر الجريدة بهذه السرعة.

- يا أخ، يا أخ! كان يصيح، لكن بهجت كان قد أصبح في عالم آخر.

2:35 صباحًا...

كانوا هناك،

مدير السجن، مساعد النائب العامّ، الطبيب الشرعيّ، مدير إدارة السجون، ومساعد متصرّف العاصمة. لكن الوضع لم يكن طبيعيًّا، إذ كانت الجُملة التي التقطتها أذنا بهجت كفيلة بأن توضّح كلّ شيء.

«هذا الأمر يحدث للمرّة الأولى»! -قال مدير السجن.

وحين رأى الجريدة في يد بهجت، اقترب منه وتناولها بعنف كما لو أنّه يصفعه، فارتدَّ بهجت إلى الوراء، وقد أدرك أنّ العاصفة التي في الخارج تعصف بكلّ مَن في الداخل بصورة أعتى.

لم يستطع أن يعرف سبب المشكلة، لكن حجمها كان أكبر من أن يتوقّعه.

بعصبيّة قرأ مدير السجن الخبر الذي يفترش، واضحًا، مساحةً لا بأس بها من الصفحة الأولى.

التفت إلى بهجت، كما لو أنّه السبب، وسأل: «كيف يمكن أن نفسِّر أمرًا كهذا؟! خبر يقول إنّه أعدم، وحقيقة تقول إنّه لم يزل على قيد الحياة»؟!

لم يعرف بهجت أنّ الأمنيات يمكن أن تتحوّل إلى لعنات بهذه السرعة. حاول استعادة ما مرّ به ليلة أمس، فأحسَّ بأنّ مرضه نعمة ما كان عليه أن يفرّط بها بسهولة. كان عليه أن يتمسّك بالفِراش وألاّ يغادره قبل ثلاثة أيّام على

الأقلّ، لأنّ الحياة أعطته من الإشارات ما يكفي لكي يفهم، ولو واحدة منها، لكنّه، وكما وصفه ذات يوم ذلك المحرّرُ الذي أصبح رئيسًا للتحرير: حمار.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

فكّر بهجت في ما يحدث، وهو يرى مدير السجن يدور حول نفسه في ذلك الصمت المعدنيّ الذي تحتكُّ به أنفاس الموجودين في المكتب، فيصدر عن ذلك الاحتكاك صريرٌ شيطانيّ، كما لو أنّ مَن في الداخل كائنات أسطوريّة، وجدت نفسها غريبة حائرة خارج الحكايات التي كبرت فيها.

في تلك اللحظة، لم يعرف بهجت ما إذا كان قد فعل الشيء الصحيح، حين حمل الصحيفة وأتى، أم أنّه فعل الأمر الأسوأ في حياته، حيث كان في إمكانه أن ينام ليله كلّه خارج هذا الكابوس، حالمًا بذلك الفرح الذي سكنه طيلة ما بعد الظهر!

2:40 صباحًا...

تجرّأ بهجت وفتح فمه، بعد أن اقترب من شخص مدنيّ طويل، خُيِّل إليه أنّه الطبيب الشرعيّ، وهمس بصوت مسموع، كي يصل صوته إلى تلك الأذن المحلِّقة: «ما المشكلة»؟!

سمعه مدير السجن: «المشكلة، يا أخ بهجت، أنّ الشيخ -مندوب قاضي القضاة-، الذي كان من المفترض أن يحضر، لم يحضر. إنّه مريض ومن الصعب أن يخرج في جوّ كهذا، وإلاّ فسيموت بدوره، قبل ذلك المحكوم بالإعدام»!

فكّر بهجت بسرعة، وتخيّل أيّ نهارٍ أسودَ ذلك الذي سيطلّ بعد ساعات.

تخيّل وقفته أمام السيّد عبد اللطيف رئيس التحرير؛

تخيّل مروره في أروقة مبنى الصحيفة بأذنين متدلّيتين؛

تخيّل زملاء يتهامسون، وفتاة ذات مؤخّرة عظيمة تنظر إليه بأسى!!

تخيّل كيف ستنكمش ابتسامة مدير العلاقات العامّة في مديريّة الأمن، وتغدو أضيق من ساعة يأس؛

تخيّل كيف يصل إلى مبنى الصحيفة، وهذا ما هو أمرّ وأقسى، ويكتشف أن كتاب فَصْله من العمل -بعد هذا العمر الطويل- في انتظاره، على طاولة موظّف الاستقبال الذي سيدَّعي أنّه لا يعرفه، تمامًا كموظّف الاستقبال الذي يناوب ليلاً.

أمّا ما تبقّى فكان أمامه، واضحًا إلى درجة لا تحتاج إلى أيّ تفسير؛ فها هو يُحرج ذلك الرجل الطيّب، مدير السجن، ويضعه في موقف لا يُحسد عليه.

انكمش جسد بهجت محاولاً أن يوقف ارتعاشاته الفاضحة، وعند ذلك امتلك جرأة السؤال:

- وهل تنتهي المشكلة إذا حضر شيخ آخر، أم ليس هناك سوى شيخ واحد يمكن أن يقوم بهذا؟ سأل بهجت.

التفتَ إليه مدير السجن، ورأى فيه عبقريّة من نوع نادر.

- كيف لم نفكّر في هذا؟! تساءل الطبيب الشرعيّ الطويل، الطبيب الذي كان باستطاعته أن يتأكّد من موت أيّ محكوم بالإعدام بأن يجسَّ نبضه قبل إنزاله عن المشنقة، والتفت مساعد النائب العامّ إلى بهجت وغمره بابتسامة فيّاضة.

- ومَن ذا الشيخ الذي يمكن أن يقبل بالخروج في ساعة كهذه؟ قال مدير السجن.

- أظنّ أننا نحن أنفسنا لن نستطيع الخروج من السجن قبل ثلاثة أيّام، إذا استمرّت العاصفة. علّق الطبيب الشرعيّ.

- سأُحْضر شيخًا! قال بهجت، ولم يصدّقوا آذانهم.

التفتوا إليه فأعاد: «سأُحْضر شيخًا، يعني سأُحْضر شيخًا»! وكان على وشك البكاء.

تأمل مدير السجن ذلك الجسد الضئيل المتهالك، وقال له وقد أحسّ في داخله برعشة أمل: «هذه مَهمّتك إذًا؛ وليس هناك من داعٍ لأذكِّرك أنّ الوقت أضيق من حبل المشنقة»!

2:45 صباحًا...

حين بلغ بهجت بوّابة السجن، وأشرعوها له، أدركَ أنّ مَهمّته أكثر صعوبة من مَهمّات الممثّل «توم كروز»، مجتمِعَةً، في سلسلة أفلام «مَهمّة مستحيلة».

تَراجعَ خطوتين وقد رأى الثلج ينهار إلى الداخل.

حدّق بصعوبة عبر العاصفة الثلجيّة، فرأى الكورولا الخضراء بيضاء، أو تكاد.

عاد إلى مكتب مدير السجن. طرَقه بأدب، وحين سمع صوتًا يائسًا يدعوه للدخول، دخل.

- لم أكن أعتقد أنّك ستكون قادرًا على تنفيذ مَهمّتك بهذه السرعة! قال مدير السجن بأسى.

- أريد سيّارة لاندروفر عسكريّة. بدونها، لن أستطيع أن أفعل شيئًا بالكورولا.

- بماذا؟!

- بالكورولا، سيارتي.

رفع مدير السجن سمّاعة الهاتف: «أريد سيّارة دفع رباعيّ فورًا». ثم التفت إلى بهجت وقال له: «السيّارة ستكون في انتظارك أمام الباب».

2:47 صباحًا...

حين أصبحتْ سيّارة الدفع الرباعيّ جوار الكورولا، ألقى بهجت نظرة عتب على سيّارته التي تخلَّت عنه قبل نهاية الطريق بقليل.

فكّر بسرعة، فاهتدى إلى أنّ أفضل طريقة للعثور على شيخ هي الذهاب إلى المسجد، أيّ مسجد.

أخبر السائقَ بما يفكّر فيه، فأطلق السائق عينيه تبحثان مع عينَيْ بهجت عن أيّ أضواء خضراء، من تلك التي تزيّن مآذن المساجد.

لم تكن المَهمّة سهلة، وقد تلاشى الأفق بما فيه، وتحوّلت الشوارع إلى مساحات بيضاء، وقد اختفت السيّارات تمامًا، أو كادت.

- علينا أن ندخل الأحياء السكنيّة، فهناك يمكن أن نعثر على المساجد بسهولة أكثر. قال بهجت، لكنّ السائق حذَّره: «صحيح أنّها سيّارة دفع رباعيّ، ولكن علينا أن نبتعد عن الطرقات الصاعدة والمنحدرة».

- معك حقّ.

وقبل أن يتوغّلوا كثيرًا، رأوا شبح ضوء أخضر، أشار إليه بهجت بفرح، فهزَّ السائق رأسه بصمت.

3:13 صباحًا...

كان مسجدًا فعلاً.

أوقف السائق السيّارة أمام الباب تمامًا، بما يتيح لبهجت أن يهبط مباشرة على الرصيف.

هبط بحذر،

وعلى الرصيف سار بحذر أشدّ.

أدهشه أنّه نسي مرضه. «كيف يحدث هذا»؟ -همس لنفسه، وما كاد يفعل ذلك حتّى أحسَّ بجسده ضعيفًا مرتجفًا.

تجاوز الباحة الصغيرة، نحو الباب الداخليّ، وراح يطرُق الباب برقّةِ مَنْ لا يريد المساس بهدوء المكان وقدسيّته.

لم يكن هناك سوى الصمت، الصمت وحده، وفوضى الثلج الذي تدور به العاصفة فيصفعه من أربع جهات.

حين أوشك أن يفقد الأمل تمامًا، طرَق الباب بقوّة ثم بعنف، لكن النتيجة لم تتغيّر.

تراجع خطوتين بحذر، ثم استدار عائدًا إلى سيّارة الدفع الرباعيّ، وأدهشه أنّ صوت محرّكها لم يكن مسموعًا له.

في منتصف المسافة، عاد وتوقّف،

نظر إلى ساعته: 3:13

استدار ثانية نحو بوّابة المسجد، وطرقها بعنف لم يتخيّله يصدر عنه.

ولم تتغيّر النتيجة.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

- علينا أن نجد مسجدًا آخر. قال للسائق وقد عاد يحدِّق بقلق في ساعته التي استطاع رؤيتها تحت ذلك الضوء الذي يشتعل، تلقائيًّا، للحظات، عند فتح باب السيّارة، همس بهجت: «لم نُضع الكثير، ولن نفقد الأمل».

- فالمساجد، والحمد لله، ليس هناك ما هو أكثر منها! قال السائق كما لو أنّه يُكمل جملة بهجت.

دارت العجلات عدّة دورات دون أن تغادر مكانها، فعلَّق السائق: «بدأ الجدّ»! وأضاف: «نحن رهائن الثلج أكثر ممّا نحن رهائن الوقت». لكن السيّارة انسابت بعد ذلك خفيفة وقويّة في طريقها.

3:23 صباحًا...

بعد أقلّ من عشر دقائق استطاعوا رؤية أضواء خضراء عالية أخرى، رآها السائق هذه المرّة، وانعطف نحوها قبل أن يراها بهجت.

وتدريجيًّا، بدأ المسجد بالظهور، كما لو أنّه يولد في تلك اللحظات.

كان بهجت على وشك أن يقول شيئًا، لكن السائق قاطعه: أراه!

وكما في المرّة الأولى، تكرّر المشهد: طرق باب المسجد برقّة ثم بقوّة ثم بعنف، وقبل أن يستدير يائسًا، سمع حركةً ما في الداخل، وأبصر أنوارًا تُضاء، فتنفّس ملء رئتيه، وقد أخطأ بذلك، إذ داهمته موجة سعال لم يجرِّبها من قبل كادت توقعه أرضًا.

- مين؟! جاء الصوت من الداخل.

- الصحافة!

- شو؟!

- الصحافة!

- وما الذي تريده الصحافة في ساعة كهذه؟!

- تريد الشيخ.

- الشيخ ليس هنا، إنّه في بيته.

- وأين بيته؟

- ولماذا تريده الصحافة في وقت كهذا؟!

- قلت لك إنّنا الصحافة، فافتح الباب.

أُشرِعَ البابُ فاندفع الثلج إلى الداخل.

- هل أنت متأكّد من أنّ الشيخ ليس هنا؟ قال بهجت بحزم غريب.

- ليس هنا. هل سأكذب عليك تحت سقف بيت الله؟! إنّني الحارس.

- ومتى يأتي الشيخ؟

- في ليلة كهذه لا يمكن أن يأتي، يعتمد عليَّ في بثّ الأذان عبر مكبّرات الصوت، الأذان الموحَّد الذي تبثّه الإذاعة.

- وأين بيته؟

- ليس بعيدًا من هنا.

- عليك أن تأتي معي فورًا لتدلّني عليه.

أوشك حارس المسجد أن يرفض مغادرة مكانه، وقبل أن يفعل ذلك رأى السيّارة العسكريّة أمام الباب تنتظر.

- حاضر. قال، وأضاف: فقط، دعني أرتدِ ملابسي وأنتعل حذائي.

- بسرعة! أمره بهجت.

3:39 صباحًا...

حين أشرع الشيخ بوّابة بيته أخيرًا على وقع الضربات الأشبه بليلة قصف عشوائيّ، أدرك بهجت أنّ الرجل أكبر سنًّا، وأضعف من أن يرافقه. لكنّه رغم ذلك قال له: «نحتاجك هذه الليلة في السجن لحضور تنفيذ حكم الإعدام بأحد المجرمين».

- ولماذا أذهب معك؟ هذا أمرٌ لم أقم به من قبل يا بنيّ!

شرح له بهجت المشكلة بسرعة، فالتفتَ إليه الشيخ وقال: «يا بنيّ، ما دام الله قد كَتَبَ لهذا السجين أن يعيش يومًا آخر، فلماذا أتدخّل أنا، في ليلة كهذه، في مشيئة الله»؟

وصمَتَ لحظة ثمّ قال: «صحيح أنّ صحّتي لا تساعدني على أن أسير معك، ولكن للحقّ، لو كانت تسعفني لما ذهبتُ معك أيضًا للسبب الذي ذكرته لك».

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

تركا الحارس يعود إلى المسجد سيرًا على قدميه، بعد أن أشار عليهما بالتوجّه غربًا، حيث سيجدان أكثر من مسجد هناك.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

تكرّر الأمر ثالثةً: طرَق بهجت باب المسجد برقّة، ثم بقوّة، ثم بعنف.

أُشعِلَت الأضواءُ، وأطلَّ رجل ملتحٍ نصف نائم، وسأل: «خير إن شاء الله»! فأدرك بهجت بغريزته أنّه الشيخ.

في العَقد السادس من عمره على الأكثر كان. شرح له بهجت الأمر بسرعة، لكن الشيخ راح ينظر إلى الأرض والسماء اللتين اختفتا تمامًا. وفجأة قال: «أنا لا أستطيع الخروج الآن. بعد أقلّ من ساعة يأتي موعد الأذان، وإقامة الصلاة، وليس هنالك مَن يمكنه القيام بذلك سواي. ثمّ أنا لا أعرف ما يقال في مناسبة كهذه أصلاً»!

نظر بهجت إلى ساعته...

3:39

فجأة، غيّر نبرة صوته: «أنا لا أطلب منك الذهاب معي. هذا أمر عسكريّ!! ولا أظنّك تفكِّر في خرق القانون لهذا السبب»!! وأشار غاضبًا إلى سيّارة الدفع الرباعيّ العسكريّة.

حين رآها الشيخ، قال: «نحن في خدمة القانون»! وأضاف: «نحن كلّنا في خدمة القانون بإذن الله»!

4:10 صباحًا...

أشرق وجه مدير السجن بمجرّد أن رأى بهجت يدعو الشيخ لدخول المكتب قبله، من قبيل الاحترام. تقدّم المدير نحو الشيخ وصافحه بحرارة، وشكره على تحمّله أعباء هذه المَهمّة المفاجئة، فأعاد الشيخ جملته: «نحن كلّنا في خدمة القانون بإذن الله»!

واصل مدير السجن طريقه نحو بهجت الذي وقف يرتجف قرب الباب، وصافحه بحرارة أشدّ، وهمس في أذنه: «لن أنسى موقفك هذا. سأتذكّرك في كل مناسبة قادمة من هذا النوع. وتأكّد أنّه لن يظفر أحد، مستقبَلاً، بمثل هذه الأخبار المهمّة سواك»!

هزّ بهجت رأسه وقد أحسّ بالوهن يضرب عميقًا في كلّ خليّة من خلاياه.

- هل تريد أن تقطف ثمار نجاحك هذه الليلة؟ سأله مدير السجن.

- أيّ ثمار؟ سأل بهجت.

- هل تريد أن تقول لي إنّك، بعد كلّ التعب الذي تعبته، لن تحضر تنفيذ حكم الإعدام؟!

- لا. لن أستطيع. أظنّ أنّني لا أستطيع.

- على راحتك!

بعد قليل وجد بهجت نفسه وحيدًا في المكتب الكبير.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

لم يعرف كم من الوقت مضى قبل أن يعودوا، وبمجرّد أن دخلوا، قال له مدير السجن: «الفضل لك، يا أخ بهجت، ولفضيلة سيّدنا الشيخ»! فقال الشيخ: «أستغفر الله! كلّنا في خدمة القانون بإذن الله»!

- كنت أتمنّى أن تبقَوْا معنا لنتناول طعام الإفطار بمعيّتكم، ولكن أظنّ أن عليكم التحرّك بسرعة قبل أن تُغلَق الطرقاتُ تمامًا. -قال للحاضرين الذين بدَوْا أكثر راحة واسترخاء.

- السيّارة التي أتت بالشيخ تعيده، وتوصلك يا أخ بهجت إلى بيتك. -قال مدير السجن.

- والكورولا؟!

- لا تقلق!

4:40 صباحًا...

بصمت قطعوا الطريق. أوصلوا الشيخ إلى عتبة المسجد. الشيخ الذي لوّح لهم بسرعة وهو يحاول ما استطاع لملمة جسده، وقد أحسّ بقوّة العاصفة خارج السيّارة، وقبل أن يقول شيئًا كان السائق قد تحرّك.

تأمّل بهجت الأفق بعينين محمرّتين وجسد لا يكفّ عن الارتعاش، فرآه كتلة هائلة من الثلج.

أمّا المدينة، فكانت أشبه بسمكة متجمّدة في ثلاّجة لا حدود لها. عينان ميّتتان وجسد متيبّس وسكون لا يُذكِّر بأيّ بحر.

أشار للسائق أن ينعطف باتّجاه اليمين، فانعطف، وبعد لحظات توقّفت السيّارة: «هل هنالك طريق آخر يؤدّي إلى بيتك»؟

- هذا هو الطريق الأسهل.

- وهل بيتك بعيد من هنا؟

- ربّما كيلو متر واحد أو أقلّ قليلاً. قال بهجت، وقد بدأ يحسّ بما ينتظره.

- إذا دخلتُ هذا الشارع فلن أستطيع العودة، هذا إذا نجحتُ أصلاً في دخوله؛ ولذا، أظنّ أنّ عليك قطْع ما تبقّى من الطريق سيرًا على قدميك. أعتذر لك، ولكن أعتقد أنّك تفهمني.

بصمت تفهَّم بهجت الأمر، أشار للسائق برأسه مودِّعًا، أحكَمَ إغلاق المعطف على جسده، فارتطمت يده بنسخة الصحيفة التي يزيّنها اسمه وخبره، وأشرع الباب.

في الخارج كانت العاصفة في انتظاره.

الرجل الذي أُعدم

صورة مقرّبة

بدأت مشكلته عندما عثر على صديقة، مثل أولئك الصديقات اللواتي يخاصرهنّ أبطال المسلسلات على الشواطئ. ولأنّ المدينة بلا بحر، لم يعثر على الشواطئ إلاّ في غرفة رجل عجوز في أحد الأحياء الشعبيّة. قيل إنّه يستقبل الحالات المستعصية، بتوفير نصف ساعة أو ساعة خلوة لأصحابها، باعتبارهم بعض أقاربه.

كان ذلك مصدر دخله الوحيد، وبهجته أيضًا كمثقّف قديم تُوِّجت أهدافه باليأس!

بعد خمس زيارات، أحبّ الرجل الذي لم يكن محكومًا بالإعدام، ذلك العجوز، واطمأنّت إليه الفتاة كأب، وفي المرّة السادسة نسيا أنّهما قادمان لسببهما الخاصّ، فتصرّفا كزائرَيْن مقرَّبَيْن، وقد أحسّا بأنّ العجوز نسي أن يغادر كما نسيا ما أتيا من أجله.

حين نفدت سجائر العجوز، استأذن منهما أن يذهب لشراء علبة سجائر، لكن الرجل الذي لم يكن محكومًا بالإعدام أصرّ على الذهاب بنفسه لإحضار السجائر.

لم يغب طويلاً. كان ذا قامة عظيمة، وخطوات واسعة، وقوّة يُحسد عليها.

قبل أن يصل الباب سمع صيحات صديقته، فاندفع هائجًا، وفي تلك الغرفة الواسعة التي تركها مرتّبة، رأى كلّ شيء قد تبعثر، وتحت جسد العجوز كانت الفتاة تحاول النجاة عبثًا.

الرجل الذي لم يكن محكومًا بالإعدام أمسك بالعجوز ورفعه كورقة بيد واحدة، وبالثانية ضربه بشيء ما لم يعرف ما هو، على رأسه، فقتله.

الرجل الذي لم يكن محكومًا بالإعدام غادر البلاد، واختفى طويلاً، لكنّه حين عاد، وجد الشرطةَ في انتظاره، وكذلك تسعَ جرائم غامضة لم يعثر لها المحقّقون على حلّ. وحين سألوه عن شركائه، أنكر وجود أحد غيره في المكان، كي لا يورّط صديقته في فضيحة تبدو الجريمة معها صغيرة!

بعد أشهر، اعترف مجرم آخر بارتكاب واحدة من الجرائم التسع، لكنّ المحقّقين تظاهروا أنّهم لم يسمعوا الاعتراف...

مثْل كثيرين، تابعت صديقته وقائع المحكمة، حتّى صدور الحكم ونشره في الصفحات الأولى، وعندها شكرت الله أنّه نجّاها من الارتباط برجل ارتكب تسع جرائم من خلف ظهرها!

5:16 صباحًا...

وصل بهجت إلى البيت، قاطعًا تلك المسافة التي لا يستهان بها على قدميه. كان الضباب أكثر كثافةً من لبن رائب، وكلّ شيء صامتًا، سوى صوت ذلك الثلج الذي تدفعه الريح بقوّة نحو كلّ شيء منتصب في طريقها. صوت غريب لم يسمعه بهذا الوضوح من قبل.

كانت نسخة الجريدة في يده، نسخة الجريدة التي جاء بها خصّيصًا لتراها امرأته، وهو يحسّ بأنّ زمنًا ما، جديدًا، قد أشرقت شمسُه، رغم جنون

العاصفة، ورغم ذلك الارتعاش الذي تزايد كما لو أنّه يريد اقتلاع روحه.

في أكثر من جانب من جوانبها كانت النسخة مبتلّة، فقد اضطُرّ إلى استخدامها، طَوال الطريق، كمظلّة يتّقي بها الثلجَ الذي راح يصفع وجهه دون رحمة.

تناولتْ زوجته الصحيفة التي مدّها إليها، شبه باكية: «أتريد أن تقتل نفسك»؟! وأضافت: «ما الذي يمكن أن يكون فيها؟ عاصفة ثلجيّة؟ إنّني أراها بعيني؛ أم إنّهم كلّفوك بتشكيل الوزارة»؟!

راح يفرك يديه وينفخ فيهما باحثًا عن شيء من الدفء.

كان غضبها لا يطاق، لكنّه اكتشف أنّه أجبن من أن يردّ عليها.

امتدّتْ يده إلى الصحيفة، سحبها من يدها، ونشرها أمامها بيدين مرتجفتين، وأشار إلى الخبر بوجهه: «اقرئي»!

راحت عيناها تبحثان مرهَقتين. لم ترَ ما يلفت انتباهها، فكان مضطرًّا أن يضع الصحيفة على الطاولة ويشير إلى الخبر بسبّابته.

فجأة انقبض قلبها.

وحين رأت اسمه بخط صغير تحت ذلك العنوان «تنفيذ حكم الإعدام بقاتل...»، التفتت إليه دون تعليق، وانسلّت نحو غرفة نومهما.

5:56 صباحًا...

أمام نافذة المطبخ ظلّ يراقب الثلج يتراكم ببطء غامرًا كلّ شيء. وللحظة تنبّه إلى أنّه لم يرَ أيّ سيّارة تعبر الشارع المجاور. وعندئذ أدرك أنّ الطرق باتت مغلقة تمامًا.

أشعل التلفزيون،

كانت الشاشة سوداء عكس العالم في الخارج، لا تضيئها سوى كلمات قليلة: «لا توجد إشارة».

أدرك أن الصحن اللاقط مغطًّى بالثلج على سطح البناية. تناول «الكاشطة» من المطبخ، وصعد إلى السطح. كانت الريح شديدة والثلج ينهمر، ولكن بوتيرة أقلّ. أزاح الثلج عن الصحن اللاقط بوَهَن، وهبط الدرجات بلا خُطًى. كان يعرف أنّ الثلج لن يلبث أن يغمر الصحن من جديد.

تضاعف يأسه...

كانت محطة «mbc4» تعرض برنامجًا شبابيًّا حول علاقات طلبة المدارس الأمريكيّة؛ هو واحد من البرامج السخيفة التي يتابعها أولاده بانتظام.

بسهولة اهتدى إلى الفضائيّة المحلّيّة. كان المذيع يُعلن قرار الحكومة تعطيل المؤسّسات الرسميّة والجامعات والمدارس، ثم تقدّمت مذيعة وشرحت حالة الطقس، محذِّرةً من استخدام الطرق الخارجيّة والداخليّة التي باتت مغلقة تمامًا بسبب تراكم الثلوج.

أفزعه الأمر؛ فهذا يعني أنّ الصحف لن توزَّع.

نهض بغضب، توجّه إلى المطبخ، وهناك، أمسك بالصحيفة وألقاها أرضًا، وظلّ يدوسها بقدميه حتّى تمزَّقت تمامًا.

ماذا لو فعلَ أمرًا كهذا في غرفة التحرير؟ -تساءل، وأجاب: «لن يطردوني فقط، سيعدمونني بالتأكيد»! ولكنّه لم يجد في نفسه القوّة للإنحناء وإزالة آثار جريمته!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

بِصمتٍ مرَّ اليوم. لم يدخل غرفة النوم. اكتفى بالتمدّد على الكنبة الطويلة مرتجفًا، وأمامه مدفأة الغاز التي نسي تماما، أو تناسى، أنها يمكن أن تكون قاتلته.

استيقظ الأولاد،

ضحكوا،

غادروا الشقّة،

لعبوا بالثلج وعادوا يرتجفون،

وتكرّر الأمر مرّات ومرّات...

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

فيما تبقّى من السهرة، تبادل الأولاد الأدوار في الصعود إلى السطح لإزالة الثلج عن الصحن اللاقط؛ فلم يكن هناك ما يمكن أن يفعلوه بعيدًا عن التلفزيون، سوى النظر عبْر الشبّاك لمعرفة مدى ارتفاع الثلج.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

في العاشرة ليلاً، تسلّل بصمت ونام. ومن غرفة النوم كان يتناهى للعائلة صوت سعاله الشديد، يطرق صدره بعنف، ويوشك أن يمزّق الجدران.

اليوم التالي

في الصباح التالي...

استيقظ أكثر وهَنًا. سار نحو المطبخ. لم يرَ فتات الجريدة هناك. ألقى نظرة نحو سلّة النفايات الصغيرة البيضاء فرآها.

أمام شبّاك المطبخ، كانت هناك قطعة صغيرة فارغة من الأرض، غطّاها الثلج تمامًا، سوى بعض أغصان جافّة كانت ملقاةً فيها، تكسِرُ بلونها البنّيّ العميقِ حدّةَ ذلك البياض الرهيب.

قبل أسبوعين جاء أحدهم بتراكتور حراثة، كالمعتاد، وقلَبَ الأرض، قبل أن يبذرها ببذور لم يعرف بهجت ما إذا كانت بذورَ قمح أو بذور شعير. وفور مغادرة التراكتور، انقضَّ سربٌ كبير من الحمام على الأرض، لا يعرف من أين أتى، وطَوال يومين لم يغادر قطعة الأرض المحروثة.

في الخارج، كانت العصافير تدور غير قادرة على الهبوط في أيّ مكان، ورأى حمامة تحوم فوق قطعة الأرض البيضاء المغطّاة بالثلج، ربّما تكون هي نفسها التي رآها منذ يومين على حافة نافذته، لكن أمل الحمامة بالعثور على شيء يؤكل كان مفقودًا تمامًا.

بعد قليل، دخلت امرأته المطبخ، ودخل ولداه اللذان لم يعرفا تفاصيل ما جرى حول الصحيفة.

امتدّت يده إلى كيس الخبز على الطاولة، وتناول ربع رغيف، وفي اللحظة التي أحسّوا بأنّه سيضعه في فمه ويأكله هكذا، فتحَ شبّاك المطبخ وألقى به إلى الخارج.

طار ربع الرغيف، وانعطف، بحيث بدا وكأنّه سيسقط في حوش الجيران، لكنّه عاد وانعطف نحو النقطة التي كان يريده بهجت أن يسقط فيها، في المنتصف تمامًا.

كان يعرف أنّ الجوع قد بدأ يمزّق أحشاء الطيور، بعد أن اختفت الأرض تمامًا.

اقترب ولداه وزوجته من النافذة، ليعرفوا ما يحصل.

لم يكن صعبًا عليهم أن يرَوْا ربع الرغيف فوق بياض ناصع كهذا، وفي أقلّ من عشر ثوانٍ قامت القيامة في الخارج:

في البداية رأَوْا عصفورًا يرفرف بحذر فوق قطعة الخبز، وقبل أن يهبط كان رفٌّ طيور يتساقط بجنون فوق الثلج.

اختفت قطعة الخبز تمامًا،

لكنّها عادت وظهرت من جديد، مع وصول تلك الحمامة التي لا بدّ أنّها هي نفسها التي رآها على حافة نافذته، وعندها تراجع رفُّ عصافير الدوريّ، وحطَّ أكثرُ من عصفور على الأغصان اليابسة الطالعة من بياض الثلج.

استجمعت العصافير شجاعتها من جديد. هبطت حول الحمامة، وتجرّأ أحدها ومدَّ منقاره مقتطعًا ما يملأ ذلك المنقار.

بدت السعادة ظاهرةً على وجوه الأولاد وأمّهم، أمام ذلك المشهد الذي نجح في تبديد ضجر البقاء في البيت، لكن بهجت كان مشغولاً بما يحدث للعصافير.

بعد لحظات، وصلتْ حمامة سوداء ضخمة، أغارت على الحمامة الأولى وجعلتها تفرّ، وكان يكفي أن تنظر نحو رفّ عصافير الدوريّ حتى يفرّ هو بدَوْره؛ وقبل أن تعود الحمامة السوداء إلى قطعة الخبز لتنفرد بها، هبط سرب حمام كامل فوق الثلج، بحيث اختفى جزء كبير من بياض قطعة الأرض الصغيرة تلك.

أدركتْ طيور الدوريّ أنّ الأمل بات مفقودًا في الحصول على أيّ جزء من تلك القطعة، فهبطتْ بعيدًا مُطلِقةً عيونها الصغيرة باحثة عن أيّ شيء يمكن أن يكون قد سقط، من قطعة الخبز تلك. وفي لحظة خاطفة أصبحت قطعة الخبز نصفين، وعندها تقدّمت العصافير أكثر، وقد انقسم رفّ الحمام أيضًا، وتمكّن عصفور من أن يختطف قطعة صغيرة طار بها قليلاً، قبل أن تسقط من منقاره، فاندفع رفُّ الدوريّ إليه بجنون باحثًا عن حصّته منها.

كان يمكن أن ينتهي الأمر عند هذا الحدّ،

يتكرّر المشهد،

ويتكرّر،

إلى أن تختفي قطعة الخبز تمامًا؛

لكن، وقبل أن يحدث ذلك، ظهر غرابان، هبطا على مسافة خمسة أمتار من الجموع المتناحرة، وراح كلّ منهما يسير نحو جزء من قطعة الخبز، وعندها تَراجعَ الحمام بعيدًا.

تقدّم الغراب الأوّل نحو قطعةٍ وتناولها بمنقاره وطار، وفعل الثاني الشيء نفسه بالقطعة الثانية.

وقف الحمام إلى جانب العصافير حائرًا، مراقبًا قطعتَيِ الخبز تحلّقان.

فجأة عاد الصمت من جديد.

صاح أحد الولدين وقد أعجبته اللعبة: «هل ألقي بقطعة أخرى»؟ فأجابت أمّه: «لا. انتظر قليلاً حتّى تستيقظ أختك وتفرح بالمشهد مثلكم».

الشيء الغريب الذي حيّر بهجت أنّ الغربان، المشهورة بالتقاط الأشياء اللامعة، رأت الخبز واختطفته بالطريقة نفسها.

انسلّ الولدان نحو غرفة أختهما يضحكان بسعادة، غير قادرَيْن على الانتظار إلى أن تصحو وحدها، وعند ذلك أحسّ بهجت برغبة عارمة في الصراخ.

خرج إلى الشرفة.

كانت عيناه مغرورقتين بالدموع، وتلمعان كجوهرتين في أصابع شخص ميّت.

كان على وشك الصراخ، لكنّه أبصر غرابين يُغيران على الشرفة متوجّهين إلى عينيه مباشرة،

فابتلع صرخته.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

فريق متميزون
E-BOOK

شرفة رجل الثلج.. ما لم يُقل!!

شكلٌ كتابي، سبعةُ أشكال

ثلاثة أو خمسة أشكال

لقد بحثتُ في الكون كلّه

عن الحقيقة ولم أجد شيئاً

الآن هبطَ الليل

سيتشو يوكين (980- 1052)

من كتاب (درب الكشف ـ شعر من الصين واليابان)

ترجمة: د. شاكر مطلق

حجر صغير

يستطيع المرء، أستاذ (عليّ) !! أن يتناسى كل شيء، إلا مواضع الألم، أو إذا شئت، يستطيع أن يتناسى كلَّ شيء في طريقه لتحقيق أحلامه، باستثناء شيء واحد: ذلك الحَجر الصغير الذي يمكن أن يكون في الحذاء. وهذا مَثَلٌ صينيّ، كنتُ حفظتُهُ عن ظهر قلب استعدادًا لرحلة تفوق الألف ميل، طولًا، إلى تلك البلاد.

منذ تلك الحادثة، هناك غرابان في حذائي!!

ولك أن تتخيّل: أيّهما أكثر قسوة: وجود حَجر صغير في حذائك، أعني حذائي، أم وجود غرابين؟!

الآن، أقاوم نفسي كثيرًا كي أظلَّ محتفظًا بحبي للطيور، أو لبعضها على الأقلّ. أنت تعرف السبب، إنها الغربان. إذ ليس من السَّهل أن تحبَّها إذا ما اقتلع أيٌّ من فصيلتها عينيك بكل تلك القسوة.

الأمر الذي حسمتُهُ هو أن الغربان ليست من فصيلة الطيور أو حتى من فصيلة الحيوانات، إنها فصيلة بعينها، لا تؤهلني قدرتي الأدبية أن أصفها. أما ما يحيّرني فهو أنني ليس لي أيُّ تاريخ معها، بل لا أذكر الآن أنني رأيتُ غرابًا في طفولتي، ولم يلفتْ وجود الغربان انتباهي في أيام شبابي وكهولتي! ويمكنك القول إنني فوجئت أصلًا بوجود غربان في ذلك اليوم، في تلك الساحة الترابية التي تتحوّل حينًا إلى حقل وحينًا إلى قطعة من القطب الشمالي.

قلتُ لك: الآن أقاوم نفسي كثيرًا كي أظلّ محتفظًا بحبي للطيور، أو لبعضها على الأقلّ، بعد أن فاجأتني صغيرتي بطائر كناري، أهدته لي، قالت: «إن لونه أصفر كلون الشمس وإن ريشه مجدول»!

بالطبع، لم أستطع ردَّ هديَّتها، وبخاصة أن الوضع مع الكناري كان مطمئنًا، لا لشيء، إلّا لأنه في قفص! تعرف، جميل أن يكون لك ابنة، في ظِلِّ وجود ولدَين متوحِّشين، لا تعرف أين اختفت براءتهما فجأة.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

كنتُ للحقّ، قد بدأتُ أكره كلَّ صوت، لفرط جلوسي أمام التلفزيون؛ وقد داهمني حسٌّ غريب، أكثر من مرّة، بأنّ ذلك الجهاز لا يعرِضُ سوى صور الغربان! كل نشرة أخبار تعجُّ بآلاف الغربان، وكذلك الأفلام التي يتساقط فيها الناس بسبب وبلا سبب، تعجُّ بالغربان أيضًا، وقد باتت إعلانات التلفزيون التي تدعو الناس لاغتنام إجازات الصَّيف، والرحيل بعيدًا، تعجُّ بالغربان أيضًا. فأيُّ مكان هذا الذي يمكن أن أزوره ويُشفيني من حنيني إلى تلك الرحلة، رحلة الصّين التي ضاعت إلى الأبد؟!

طبعًا، تستطيع، أستاذ عليّ، أن تتخيَّل المشهد كما تريد، فأنت كاتب، ولم أكن أكثر من صحفي، فَقَدَ اللقمة الكبيرة بعد أن أصبحتْ أمام فمه، بل في داخل الفم.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

ليس هذا ما يوجعني فقط؛ ما يوجعني أنني لم أستطع قطع الحدود إلّا مرّتين، بسيارة ذلك الحدَّاد الذي قررَ أن يكون مُطربًا ذات يوم، وأوشك أن يحقق حلمه، لكن حواسَّه خانته، كما خانته أذنه الموسيقية، ولم يكن غريبًا أن يحدثَ هذا لشخص في مهنته بالطبع!

لا أريد أن أُتعِب رأسك بالحديث عن ذلك الأمر، فهو موجود في تلك الأوراق التي وضعتُها بين يديك، والتي لم أكتف فيها بالحديث عمّا حدث معي، من عشية دخولي عالم الصّحافة، إلى يوم الغربان المشؤوم، بل تذكَّرتُ أحيانا بعض حوادث قديمة كنتُ أعتقد أنني نسيتها!

أربع فتيات

كنّا وصلنا معًا إلى بيروتَ ذات صيف، وفي جيب صاحبي الحدّاد بعض مال اعتقدَ أنّه كاف لشراء أغنية يبدأ بها مشواره الفني.

قبل أن يخرج طَرَقَ باب غرفتي، وطلبَ مني أن أقول له رأيي في أناقته، وبصراحة. امتدحتُها، فقد جلب معه، لهذه المناسبة، قميصًا جديدًا وبنطالًا

جديدًا وحذاء جديدًا، وسترة جميلة جديدة تُزيِّنها خطوط رفيعة، بيضاء وحمراء وسوداء، نصحته ألّا يرتديها في ذلك الحرِّ الشَّديد والرُّطوبة المُطْبِقَة على الأجساد ككماشة. ونصحته: «إن كان لا بد منها فاحملها، إلى أن تصل إلى هناك، فتلبسها قبل أن تدخل».

أشار إلى شَعْره وقال: كيف يبدو؟

طمأنته. كان يلبس في الحقيقة باروكة ذات لون مائل للأحمر قليلًا، -بدت برّاقة- يبدو أنه غسلها وجفَّفها جيدًا لهذه المناسبة.

في اللحظة الأخيرة، قلت له: أظنُّها مائلة قليلا نحو اليسار. عدَّلها، لكنه لم يطمئن، تجاوزني ودخل إلى غرفتي متوجّهًا للمرآة، واطمأنَّ لوضعها.

كنت أعتقد أنه سيقول لي: «لقد بدأ العمل. هيا بنا»! لكنّه قال لي: «لن أغيب طويلًا، ليس أكثر من ثلاث ساعات، انتظرني لنذهب للغداء معا، هذا إذا لم يَدْعُني الملحِّن لتناول الغداء معه»!

تركني في الفندق، فندق بسيط، يقبع في شارع خلفيّ، لا يبعد كثيرًا عن»الرَّوشة» ، وذهب للملحّن لاختيار أغنية.

للحقيقة، أحسستُ أنه يقصد شيئًا محدَّدا من وراء تَرْكي في الفندق، ولم تخطر ببالي فكرة أسوأ من أنه لا يريد أن أتعرّف إلى أناس مهمِّين، مثل ذلك الملحن الذي سيشتري منه العتبة الأولى في سلَّم صعوده نحو المجد.

باختصار، أحسستُ أنه يتعامل معي كمطرب منافس!!

في ذلك اليوم، وجدت نفسي أَسيرَ أربع بائعات هوى، من أولئك اللواتي لا يمتنَّ بصِلة، بالتأكيد، إلى بائعات الهوى اللواتي كان السيد عبد اللطيف يلتقطهنّ للسيد عارف غنام رئيس تحرير صحيفتنا الغرَّاء.

كان الممر ضيّقًا ومعتمًا؛ لن أنسى هذا، فلا شيء يلصقُ بذاكرتي أكثر من الأماكن الضيقة المُعتمة.

قدّرتُ أنّ ثمة أزمة في الزبائن كبيرة، وإلا لَما تهافتْنَ عليَّ وكلٌّ منهنَّ تحاول استمالتي واستدراجي إلى غرفتها الصغيرة كغرفتي التي نزلت فيها. فاجأني أنهنَّ بدأن بسعر مرتفع، ثم راح السِّعر ينخفض شيئًا فشيئًا، وحين انخفض أكثر، في (مناقصة) حادة لم أر مثيلًا لها، داهمني حسٌّ بأن آثار حَبَّ الشّباب، التي كنتُ أعاني منها في تلك الفترة، قد اختفت للأبد في هذه المدينة الرائعة، مدينة فيروز والشحرورة ومحمد جمال الذي شغلتْني كثيرًا أغنيته:

آهْ يا إم حمادة اعمليلي قهوة سادة

حبيبي عَمْ يدلل وزاد بدلاله زادا

كنت أشبه ما أكون بالحبيب الذي تحدّث عنه محمد جمال. والآن، بعد مرور كل ذلك الزمان، حين استعيد تلك اللحظات، أحسُّ بأن ذلك التّدافع لِتَيْلي، كان أكبر لحظة مجد في حياتي، إذا ما استثنيتُ تلك الحادثة المماثلة الأغرب -سأتحدث عنها حين يجيءُ وقتها- التي انتهت بكارثة مالية أربكتني شهرًا كاملًا!

كلهنَّ خرجنَ مهزومات، رُغم أن السِّعر وصل في النهاية إلى سبعين ليرة لبنانية، وهو بكل المقاييس رقم صغير، بالنسبة لي، أنا طالب المرحلة الثانوية في سنته الأخيرة، الذي كان مطمئنًّا لوجود سبعة أضعاف هذا المبلغ في جيبه؛ بمعنى، أنني كنت قادرًا على دعوة الفتيات الأربع إلى غرفتي معًا، كما سيفعل بعد ذلك السيد عارف غنّام، وأكون السَّبَّاق في تحقيق إنجاز كهذا.

لكنني لم أفعل.

صمدتُ، حتى بعد أن مالت عليَّ إحداهن وهمستْ في أذني: «خمسين ليرة»! بلهجتِها العذبة المُحببة.

هززتُ رأسي، كما لو أنني أقول لا، وأغلقتُ الباب خلفي بهدوء خشية أن تعتقد أيٌّ منهنَّ أنّني أوجِّه إهانة لهنَّ؛ وفي تلك اللحظة أحسستُ أن نحلتي في غاية توتُّرها.

وهكذا انشغلت في أمرِ إعادتها إلى هدوئها، وكنت خبيرًا بذلك مثل أي مراهق في سنّي!

ذلك الاكتشاف

بلغة أدبية، كنتُ أودُّ أن أكتبَ هذا كلّه، كما حاولت في الأوراق التي وضعتها كلّها بين يديك، ولكن الكتابة باتت أمرًا مستحيلًا كما تعرف، ولذا أبوح لك الآن بما لم أبح لك به من قبل. هل لأنَّ شيئًا لم يعد يُخيفني، أو يهمّني؟! هل لأنني اكتشفت أن الأعمى يمكن أن يكون الأجرأ، لأنه لا يرى الخطر الذي أمامه، كما يمكن أن يكون الأجبن أيضًا للسبب نفسه؟! أم لأنني بحاجة إلى أن أُثْبِتَ لك، على الأقل، أنني كنتُ هناك، وأنني عشتُ وأنني قاسيت؟! لا أعرف!! وربما يكون هناك سبب آخر أجهله تمامًا، لكنه لم يخطر لي ببال حتى الآن.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

كانت جميلة قد نامت في العاشرة والنصف كعادتها، وكذلك فتاتي الصغيرة والولدان. لم أكن أخشى شيئًا في الليل مع هذا الليل الطويل الذي فيّ، كأننا قطعة واحدة، شيء واحدٌ أنا وهو، وقد أثارت دهشتي تلك القدرة التي تنبثق

من داخل الإنسان لتعوِّضه عن شيء ما خسِره، فما إن أعتمتْ عيناي حتى أحسستُ بأذنيّ تتّسعان وتكبران وتبدآن بالتقاط أصوات لم أكن أسمعها أبدًا من قبل، وقد دفعني هذا لتحسُّس أذنيّ أكثر من مرّة للتأكُّد فعلًا من أنّهما لم تكبرا، وكنت بالتأكيد أخشى أمرًا كهذا؛ فأن تكون أعمى، مسألة شائعة، أمّا أن تتحوَّل إلى حمار، فهذا شيء فظيع، لأن أمرًا من هذا النّوع سيثبتُ أن السيد عبد اللطيف كان صاحب رؤيا حين قذفني بتلك الكلمة في وجهي دون أيّ ورع!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

كنتُ أريد أن أقول إنني كنت قادرًا على التقاط أيّ صوت يصدرُ في ذلك الليل المعتم، وبهذا، لم يكن باستطاعة أيٍّ من أفراد الأسرة ضبطي متلبِّسا في هذا الحديث الطويل مع نفسي. لكن، يبدو أنّك، أعني أنا، تكتسب عادات الكُتّاب السيّئة ما إن تحاول روايةَ قصتك ككاتب، تُطيل، وتدخل في أشياء جانبية، وتلفُّ وتدور وتتذكَّر حتى تصل في النهاية إلى شيء صغير واضح تريد أن تبوح به!

ربما تقول: إن كلَّ البشر كذلك، باستثناء القُضاة الذين يُصدرون حكم الإعدام في كلمات محدَّدة، أو أولئك الذين يُصدرون أوامرهم بقصف البلاد والعباد، والذين يمكنك أن تراهم بسهولة أنتَ، على الشّاشات المكتظة بالغربان!!

لم أكن أعرف أنك شاعر!

حتى هذا اليوم، لا أعرف إن كنتُ فعلت الشيء الصحيح حين رفضتُ ذلك العرض السَّخي لبائعات الهوى، أم لا؟! العرض الذي يعمل كثيرون المستحيلات كي يحققوه، ولا يتمُّ لهم ذلك إلا بعد أن يصبحوا رؤساء تحرير أو أكثر من هذا بكثير.

شيء وحيد يؤلمني: أن أتخيَّل أنهنَّ انزوين ذلك اليوم في غرفهن يبكين، وكل منهنَّ تصرخ في وجه صورتها التي تملأ المرآة دموعًا: «ألهذا الحدّ نُهين أنفسَنا، ولا نجد من يقبل بنا، حتى هذا الشاب النحيف الطويل كعود خيزران، الذي يُغطِّي حَبُّ الشّباب وجهه»؟!

لن يؤلمني شيءٌ أكثر من هذا الأمر، إن كان حصل، ولكنّي لا أستطيع الجزم بأنه لم يحصل، فلو كنتُ مكانهنَّ لفعلتُ الشيء نفسه، وربما تكون ليلة نشر الخبر الذي انتظرته طويلا واللقمة التي أوشكتْ أن تصل فمي، صورة أكثر وضوحًا لما حدثَ معهنّ.

لقد فعلتُ المستحيل ليلتَها، كما فعلنَ، ولم أظفر بشيء، مثلهنَّ!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

حين عاد الحدَّاد من زيارته للملحن، كان قد انتقى أغنيةً لا بأس بها. «هذا هو وصفه الدّقيق لها»، وأضاف» «إنها للأسف لن تكون البداية التي أتمناها». وبعد صمت حزين قال: «كانت هناك أغنية أخرى أجمل بكثير، عرضها الملحن عليَّ، ولكنّ ثمنها كان أكبر بكثير من طاقتي». وسيبقى هذا الأمر يعذِّبه لفترة طويلة جدًّا، بل طوال حياته، كما سيتبيّن لكم فيما بعد!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

لم تكن أحلامي بحجم أحلام صديقي الحدَّاد الذي ربطتْني به صداقة كبيرة في أواخر المرحلة الثانوية. ورغم فارق العُمْر بيننا، كنتُ مكتفيًا بصداقته، لقرب مشغله، ربما، من بيتنا، وحين عرفتُ أنه يحلم بأن يكون مطربًا، اقترحتُ عليه من باب الصَّداقة أن أكتبَ له أغنية أو أغنيتين، تكونان بمثابة أُولى خطواته بانتظار المرحلة التالية، أي مرحلة الاحتراف. لم يمانع، بل رأى في عرضي علامة كبيرة لصداقة أبديَّة.

حين جئتُ إليه في صباح اليوم التالي بثلاث أغنيات، فوجئ جدًّا، وقال لي: «لم أكن أعرف أنكَ شاعر»! فقلت له: «وأنا أيضا لم أكن أعرف»! وفي موجة حماس راح يُدندن بالأغنية الأولى باستغراق تام، وعندما انتبه لوجودي قال لي: «أغنية ممتازة، علينا أن نبحث لها عن مُلحِّن».

أوشكتُ أن أعرض عليه أن أُلحِّنها له بنفسي! لكي أرفع عن كاهله عبء نفقات التّلحين، ولكني لم أجرؤ، لأسباب أعرفها جيّدًا، فقد سبق لي وأن اشتريت (عودًا) وبعد خمس سنوات انتهى، بفضل مواهبي، إلى أن يكون (طبلة) لا أكثر!

قلت له: علينا أن نبحث عن مُلحِّن إذن.

اقترح مجموعة من الأسماء، لم تعجبني في الحقيقة، لأني كنتُ على يقين بأنَّ كلمات الأغاني التي كتبتها أعلى من مستواهم بكثير، وفي موجة طيش عاتية، اقترحتُ عليه اسم «بليغ حمدي»! الملحن المصري المعروف، وكنت مُغرمًا بأغنيته (زيِّ الهوا) التي لحنها للعندليب الأسمر عبد الحليم حافظ.

لم أكن أريد أن أذهب إلى هذا الحدّ في حكاية صديقي الحدَّاد، أستاذ عليّ، ولكن ها قد ذهبتُ، ربما لأني مستاء من القفز عن حكايته بعد أن سمعتُ منك ما كتبتَهُ عني، وقرأته لي يومًا بعد يوم، في موجة تعاطفك معي، بعد أن حدَثَ ما حدث.

طابع بريد

لسنوات طويلة، بقيتُ أفكر في تلك الرِّحلة إلى بيروت، وما حدث لي مع بائعات الهوى، ولم يهدأ بالي إلّا حين سمعتُ «جميلة» تتحدَّث معي وتفاجئني

بأنّها تحفظ اسمي، إذ إنني حين التفتُّ إليها ورأيتُها لأوّل مرة، ربما بعد شهر ونصف من وجودنا تحت سقف واحد، هو سقف قاعة الدَّرس تلك، في معهد المحاسبة، أقول، حين رأيتها أدركتُ أنني لم أُفرِّط بعذريتي هباء في ذلك النهار البيروتي القائظ من نهارات شهر آب.

ومنذ ذلك اليوم، لم أعد قادرًا على رؤية سواها، وقد حاولت أكثر من مرة، فقط لأختبر نفسي، وأنا أسترق النّظر لزميلة أو أكثر في ذلك المعهد، إلى أن حدث ما حدث لي مع الآنسة ليلى، وكاد يعصفُ بزواجي إلى الأبد.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

لم يكن غرامنا، أنا وجميلة، سرًّا، فقد انتشر انتشار النار في الهشيم، وقد لاحظ الجميع ذلك، وفي يوم ما همس أستاذ المحاسبة في أذني قائلا، حين اكتشف أنني نسيت وجوده تمامًا مذ رأيتها: «أنا الأستاذ سليم، أستاذ المحاسبة»!

قلت له: «إنني أعرف هذا»!

فقال لي: «كنتُ أعتقد أنك نسيتني»!

كلامه الصَّعب ذاكِ لم أفهمه كتجريح أو كلمْز يَطال طريقتي التي كنت أتحدَّث بها باستمرار مُذكِّرًا إياه باسمي؛ كلامه كان أشبه ما يكون بتحديد جديد لوجهة عينيّ اللتين استقرتا فوق وجه جميلة كطابع بريد على رسالة موجَّهة إلى الحلم نفسه!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

من الرائع أن يقع الإنسان في حبٍّ جارف من الجملة الأولى، وربما كان هذا هو السبب الفعليّ لتفرُّد حكايتي مع جميلة -عكسَ حكايات الحبِّ التي تبدأ بنظرة فابتسامة فسلام فموعدٌ فلقاء، وعلى مراحل متعددة- فقد اختصرنا المراحل كلها في لحظة محقِّقَين ذلك كلّه.

من الرائع أن تعرف أن انتظارك الطويل لم يذهب عبثًا.

«يا بهجت يا حبيب، أنا أحفظ اسمك جيّدًا، وأظنّ أنّ الجميع باتوا يحفظونه»! هذا ما قالته لي فعلًا، وبالحرف الواحد. وعندما التفتُّ إليها أحسستُ بأن العالم غدا أكثر اتِّساعًا ألف مرَّة مما كان. وربما تكون تلك هي المرَّة الأولى والأخيرة التي لم ألحظ فيها أننا كنا نسير في ممر ضيِّق ومُعتم.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

شهادة معهد المحاسبة، كانت أول طموح كبير لي، مثل تلك الأغنية التي حَمَلَها صاحبي من بيروت معه بصوت المُلحِّن، مسجلةً على شريط أزرق من نوع»توشيبا»، ولو كان لسيارته المرسيدس العتيقة، صندوق أسود، كذاك الذي للطائرات، لوضعها فيه كسرٍّ وطنيّ!

لكن كل أحلامنا، أقصد أنا وجميلة، ذهبت أدراج الرياح، فقد انتهى بها الأمر، كما تعرفون، مُعلَّمة في روضة، وانتهي بي الأمر صحفيًّا يتطلَّع لمستقبل لا وجود له في بحر من الحيتان وأسماك القرش ليس فيه حتى دلفين واحد!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الشيء الذي لا بدَّ لي من الاعتراف به هنا، هو أن وقوعنا في الحب، دفع أكثر من فتاة للتقرُّب منّي، بل وصل الأمر بإحداهنَّ أن تقول لي: «لا أعرف ما الذي يعجبكَ فيها! هذه الفتاة التي لا تمتُّ للجمال بشيء حتى في اسمها»!! وأضافتْ بغضب: «لو وقفتَ معها أمام المرآة لحظة، لعرفتَ أي جريمةٍ بشعةٍ تلك التي ترتكبها في حقِّ نفسك»!

بهدوء غريب، نصحتُها، في ذلك اليوم، أن تبحث عن غيري.

أما أنا وجميلة، فقد كان علينا أن نبحثَ بعد أسابيع عن شيء آخر!

عشرة أيام هزّت عالمي

طُفنا بالبنوك بنكًا بنكًا، وقد اتّفقْنا على أن تدخل هي مرَّة قَبْلي، وفي المرَّة التالية أدخل البنك الآخر قبْلها. كان الهدف من ذلك، أن يأخذ كلٌّ منا فرصته، إذا ما كان أحد البنوك ليس بحاجة إلى أكثر من موظف واحد!

بعد عشرين يومًا، خرجنا من جولات البنوك بخيبتيّ أمل كبيرتين، يمكن أن نجمعهما معا فنقول: «خيبة أمل عُظمى»! كان موظفو البنوك ينظرون إلينا من تحت لفوق ويعتذرون لنا بأدب. ولكننا كنّا نفهم جيدًا معنى نظراتهم غير المؤدَّبة.

اقترحتُ عليها أن نبدأ بحثنا في الشَّركات، فوافقت دون مناقشة، وفي اليوم العاشر قالت لي: «أظن أننا نبحث في المكان الغلط». فوافقتها على الفور بعد أن رأيتُ بأمِّ عيني ما رأت.

قلت لها: «لنفترق هذه المرَّة وليبحث كلٌّ منّا على هواه، وليمضِ في الطريق الذي تختاره قدماه». واتفقنا على أن نعود ونلتقي بعد عشرة أيام.

.. يمكنني القول هنا، إنها عشرة أيام هزَّت عالمي فعلًا، إذ كان وصولي لوكالة إعلانات هو حبل النَّجاة وبداية الطريق الذي أوصلني للصحيفة.

كان صاحب المكتب إنسانًا طيّبًا أدرك حجم حاجتي للعمل وهو ينظر إلي من فوق لتحت، نظرةً لا تشبه نظرات أيٍّ من موظفي البنوك.

قال لي: اسمع، لديَّ، لا يوجد عمل، ولكن أعرف أن إحدى الجرائد بحاجة لمندوبين صحفيين. وسألني عن علاقتي بالصحافة، فلم أجد كلامًا أفضل مما قلته له: «إنها ممتازة»! والحقيقة أنني لم أكن أعرف عدد الصحف اليومية التي تصدُر في البلد.

قال لي: «يظهر عليك شَبّ طيب وابن ناس، ولذلك سأُوصي محرر المَحليَّات بك خيرًا، وأظنّه سيأخذ بترشيحي لك».

أعطيته اسمي كاملًا، وحين سمعه قال: اطمئن يا (بهجت يا حبيب)! وعندها أحسستُ أنه الشخص الطيّب الثاني الذي أتعرف إليه بعد جميلة. وليس في هذا أيُّ نوع من الانتقاص من قيمة صداقة صاحبي الحداد، الذي نجح فعلًا في أن يشقَّ طريقه إلى الإذاعة؛ صاحبي الذي كان يقول لي: «لو كان لي اسم كاسمك لاستطعت أن أشقَّ الطَّريق إلى ما أريد بضربة ساحر»! وكان يحيّرني أنه لم يفكر بالعثور على اسم فنيٍّ له، كما يحدث معي الآن!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

«الصحافة مقبرة المواهب»! قال لي صاحب مكتب الإعلانات الذي سيتبين لي، فيما بعد، أنّه صاحب مقال أسبوعي في صحيفة أسبوعية متواضعة. وأضاف» لقد دخلتُ الصحافة شاعرًا يشار له بالبَنان، وانتهيتُ كاتبَ عمود أسبوعيّ مرهق لفرطِ السُّرعة التي يسير بها الزمن بين مقال ومقال»! وحمد الله أنه لم يعمل في صحيفة يوميّة تورطه بكتابة عمود يومي.

ثم سألني ذلك السؤال المفاجئ: «هل لديك أيُّ نوع من المواهب»؟! كان السؤال صعبًا بحقّ، فأن أجيب بلا، يعني أنني غير أهل للعمل في الصحافة، وأن أجيب بنعم، وأقول له: إنني كتبتُ عددًا لا يستهان به من الأغاني لصديق فنان، سأدخل في سين وجيم، ويكون عليَّ أن أذكُر اسم الفنان وأسماء الأغاني، وربما يصل به الأمر أن يطلب مني أن أُسمِعَه بعض ما كتبتُ مُغنَّىً! حين يقول لي: إنه لم يسمع باسم هذا الفنان ولا بأسماء هذه الأغاني. وسيكون الحقُّ معه، لأنها لم تُذع أصلًا.

قلت له: بعض المحاولات الشِّعرية لا أكثر!

ولم أكن أعرف أن جملتي هذه ستكون السَّبب الرئيس في كتابة هذا الكتاب من «شينهِ» إلى «جيمهِ»! كما ستَرَوْن!

كافية وبليغة، كانت الإجابة ومُرضية إلى حدٍّ بعيد، إذ علَّقَ: «لا بدَّ أنكَ تتواضع»! ثم قال لي تلك الجملة التي أحسَّ بها بعد ذلك السيد ِعبِد اللطيف، لكنّه لم

يقلها!: «لقد استلطفتكَ فعلًا». فشكرته. وعندما كنت أهمُّ بالنهوض قال لي: «على وين»؟! وأصرَّ أن يُسمعني بعض القصائد التي كتبَها. وللحق،كانت قصائد فخمة للغاية، أو هكذا بدت لي، رغم أنني لم أفهمها أبدًا.

ماء بارد

في تلك الفترة انتابني حس غامض بأن صاحبي الحدّاد لا يغار من اسمي فقط، بل من جمال الأغاني التي أكتبها له، ولذا كان عليَّ إيجاد حلٍّ سريع يحفظ صداقتنا، فاقترحتُ عليه أن أطلق عليه اسما فنيًّا.

كان ردُّ فِعله شنيعًا لوهلة وهو يقول لي: «وما الذي يجعلك تعتقد أنّك قادر على هذا»؟! فقلت له بغضب: «على الأقلّ، اسمي جميل باعترافك»! وعندها ألقى عليَّ سطل ماء بارد بجملته تلك: «وهل سيادتك هو الذي اختاره»؟!

أُسقط في يدي، ووقفتُ غريبًا أمام اسمي حين اكتشفتُ أن الفضل يعود للسيدة الوالدة (رويتر)، تلك السيدة التي لن أستطيع أن أوفيها حقَّها مهما قلت، رغم رعايتي الكاملة لها في حياتها وبعد موتها، كما سترون!

التفتُّ إليه بغضب وأوشكتُ أن أقول تلك الجملة المريعة: «إنني أسحبُ كلَّ ما كتبته من أغان لك، لأنك أثبتَّ استهانةً فظيعة بصداقة طويلة بتجاوزك حدَّك». لكني ابتلعْتُ غضبي في اللحظة الأخيرة، وحسنًا فعلتُ.

الطِّيف

لم أكن أعرف أن صوت الإنسان يمكن أن يكون موحِشاً إلى هذا الحدّ في العتمة، فما بالك إذا ما كان صوته يرنُّ في عتمتين كم تمنيتُ أن يؤنسهما أيّ مخلوق، أو طيف مخلوق في هذا العالم؟! وكم كان يزعجني أن الكناري ينام مبكِّرا، كما تنام أي دجاجة فاضلةٍ في بلادنا!

في البداية كان طيف الوالدة يزورني. هل هو طيفها حقًّا؟! لا أستطيع أن أجزم بهذا، لأن الأمور تطوّرتْ، فيما بعد، بطريقة لا يمكنكَ أن تتخيلها! كنت أوقف آلة التسجيل وأصمت، متوقِّعًا أن يقول طيفها كلمة ما، لكنه يبقى صامتًا. مرَّة حاولتُ أن أسأله، إن كان هو طيفها أم طيف سواها؟! لكنه لم يُجِب. كانت كلماتي تدور وحدها في الصمت، وأكاد أراها تخترق الطّيف وتخرج من الجهة الأخرى وتدور عائدة إليّ. فأصمت أكثر.

ذلك كلّه سيتطوَّر باتجاه لم أكن أتوقعه كما قلت لك!

حين كنتُ أحسّ بأن طيفها قد غادر أو نام، أبدأ هذا الحديث مع نفسي، مستندًا في ذلك لخبرتي الطويلة مع مسألة نومها! إذ كانت تنتقل، رحمها الله، إلى العتبة الأخرى للحياة، وأعني عتبة النّوم، بعد عشر دقائق تتقلَّب خلالها

بشدَّة، كما لو أنها تنفضُ عن جسدها كل الهموم التي علِقَتْ بروحها طوال اليوم، ثم تستقرُّ بعد ذلك وادعة، لا تتحرَّك أبدًا.

كانت العتبة الأولى بالطبع، هي عتبة الحياة، أما العتبة الثانية، فهي لا بد عتبة الكون، هذا ما توصَّلتُ إليه بعد رحيلها بسنوات.

على العتبة الأولى كانت تعيش حياتها طولًا وعَرْضًا؛ لم ينقصها شيء، سوى أبي، ربما، ولا أستطيع الجزْم إن كانت تتوق للقائه، حين مضت في لعبتها مع رشيدة إلى آخر الشوط أم لا! لا أحد يعرف هذا حتى أنا، ابنها، ابن لحمها ودمها وصرخاتها وحنينها.

كانت حنونة، لست أدري لِـمَ ْلم يذكر الأستاذ عليّ شيئًا من هذا، ربما لم أُحدِّثْهُ عن هذا الأمر، ولكن حنينها كان صارمًا أحيانًا، إذ كادت تُجنُّ حين عرفت أنني وصلتُ بيروت من خلْف ظَهْرها، وقد كنتُ قلتُ لها إنني ماض في رحلة صيفيَّة للمدرسة، نخيُّم فيها في الجبال!

نعم، كنتُ أكذبُ بين حين وآخر!

حين عدتُ، حدَّقتْ بي جيدًا، ثم راحتْ تتشمَّمُ الهواء، وفجأةً قالت لي وبلا مقدمات: «رائحتكَ رائحة بحر وليستْ رائحة جبل»!!

كدتُ أسقط أرضًا.

«في مسألة البحر ورائحته، لا يستطيع أحدٌ أن يكذب عليَّ»! وصمتتْ «ولكن أيّ بحر ذاك الذي يمكن أن تكون ذهبتَ إليه؟! اعترف»! وراحت تدور حول نفسها كأنّما لتحدِّد أيّ جهة تلك التي يهبّ منها هواء بحر!

اعترفتُ.

يومها قالت لي: «ليس من اللائق أن تذهبَ مع رجل أكبر منكَ سِنًّا إلى مدينة بعيدة كبيروت»! ثم سألتني: «كم تبعد هذه المدينة عن هنا»؟

قلت لها: بضع مئات من الكيلو مترات!

- هذه مسافة بعيدة. وليس أدلُّ على ذلك من أن بيروت نفسها موجودة في بلد آخر غير هذا البلد! أم أنني مخطئة؟!

لم أُجب، فسألتني: وماذا فعلتما هناك؟

- لا شيء! قلتُ لها.

- كيف لا شيء! لا أحد يذهب إلى مدينة بعيدة بلا سبب!

اعترفتُ لها بما حدث، وحدَّثتها عن جارنا الحدَّاد الذي يُريد أن يصبح مطربًا، وعن الأغنية التي اشتراها من هناك. فسألتني دَهِشَةً: «وهل دفع الكثير من المال كي يحصل عليها»؟! قلت: «بالتأكيد، فأسعار الأغاني ليست مُنخفضة في أيّ مكان كما أخبرني. فهمتُ منه هذا لأنه لم يستطع شراء أغنية أحلى كان سعرها أعلى»!

المفاجأة الكبيرة التي صعقتني، هي تلك الجملة التي قالتها: «يُعجبني الطَّيف

المفاجأة الكبيرة التي صعقتني، هي تلك الجملة التي قالتها: «يُعجبني صاحبك. لديه طموح»! ثم نظرتْ في عينيَّ مباشرة وسألتني: «وما هو طموحك في هذه الحياة»؟ فقلت لها: «لا أعرف»! ولأنها امتدحت طموح الحدّاد، تداركتُ: «طموحي أن أكتبَ أغنيات له»! فنظرت إليَّ وقالت بغضب: «هذا ليس طموحًا. هذا إضاعة وقت. إذا ما أردتَ أن تطمح في أمر كهذا، فإن عليك أن تكتب الأغاني لأم كلثوم، وألّا تقبل بمن هم أقلّ منها. مفهوم»؟!

هززتُ رأسي موافقًا، ثم سألتني عمّا حدَث غير ذلك: «هناك أشياء لا تريد أن تقولها. هذا واضح في عينيك»!

فحدّقتُ في الأرض.

- ليس ابني الذي يُحدِّق في الأرض هكذا!

فحدَّقتُ في قطعة السّماء التي تملأ الشّبّاك زرقةً. فقالت لي: «نعم. هكذا، إلى هناك يجب أن تحدِّق»!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

بعد ذلك لم تسألني عن تلك الرحلة، إلا لتعرف مصير أغنية صاحبي. ولم يطل الوقت، إذا سيتحدد مصيرها بسرعة لم يتوقَّعها أحد، حتى هو!

صِفر كبير!

فشلًا مريعًا، ذلك ما توقّعه الجميع لي في امتحانات الثانوية العامة. لم أعرف لماذا كانوا على ثقة من ذلك، هل لأنّني يتيم؟! أم لأنني (تربايةِ أرملة) كما يقال عن أمثالي؟! لا أدري، ولكنّي كنت أعرف أن الأول على صفِّنا دائما كان يتيمًا وابن أرملة لديها سبعة أبناء.

نجاحي كان أفضل مما توقَّعه أحدٌ، حتى أنا! وحين أحلل المسألة أصل إلى أن كتابتي المُتقنة لموضوعيّ الإنشاء، أو التعبير، بالعربية والإنجليزية كان لها الأثر الأهم في ذلك، إذ توقَّعتُ يومها، مع بعض الطلبة، الموضوعات التي يُمكن أن يُطلَبَ منّا الكتابة عنها في هذا المجال، وقد اخترتُ واثقًا موضوع (هل تُفضل العيش في القرية أم في المدينة، ولماذا؟) بالإنجليزية، وموضوع

(الحياة في عام 2000) بالعربية، وقد استطعتُ تقديم صورة حيّة لفكرة العيش في الريف! رغم أنني واصلت العيش في المدينة، رغم تفضيلي الريف لكثرة أشجاره وطيوره ونقاء مائه وهوائه في ذلك الموضوع. أما في ما يتعلق بالمستقبل، وقد بلغتُ عام ألفين، وما رافقه من نبوءات تقشعرُّ لها الأبدان، فقد أدركتُ أن لا شيء من خيالاتي قد تحقّق، ولو عادت وزارة التربية لتصحيح أوراقي تلك، الآن، لوضعتْ لي صفرًا كبيرًا، وهذا ما أستحقُّه فعلًا!

لكني نجحتُ بجدارة تُحتَرَم.

نظرتْ إليَّ أمي بفخر في ذلك اليوم، وقالت جملتها المشهور: نجاح كهذا كان يمكن أن يكون أجمل لو حضره «حبيب».

عند ذلك بكيتُ، فالتفتتْ إليَّ وقالت: «عليك ألّا تبكي في يوم كهذا حتى لسبب عظيم»!

لا أعرف لماذا غدتْ صارمةً فجأة. وأضافت: «علينا أن نفكِّر في مستقبلك الآن».

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

سبع ليال جلسنا نفكِّر دون جدوى، بعد أن قذفت الجامعةُ بكل أوراقي التي قدمتها للالتحاق بها في وجهنا، رغم أن أحد أبناء صفِّي دخلها بمعدل أقلّ، ومِنْحة أيضًا، بسبب عمل أبيه في مؤسسة حسَّاسة!

قلنا: «راحتْ الجامعة»! مع أنه كان علينا بلوغ المستحيل كي نسطيع دفع تكاليفها أصلًا، فقد عشنا طوال الوقت على معونات خالاتي وجدّي البسيطة، وعمل أمِّي المتواضع، الذي لم أعرف طبيعته إلّا متأخِّرًا، وأعني هنا العناية بأجساد النساء، والعرائس منهن بشكل خاص.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

معهد المحاسبة كان خيار الحياة فعلًا، لأنني بغيره، ما كان يمكنني أن أصل إلى «جميلة» أو التقي بها، ففي مدينة كبيرة مثل هذه، كيف يمكنكَ أن تصادف شخصًا ما مرتين؟!

ربما لهذا السبب، ما إن أمسكتُ بيد «جميلة» حتى بقيت قابضًا عليها حتى اليوم، باستثناء تلك الأيام التي لم أكن أتوقّعها، حينما هبّت بيننا رياح الآنسة ليلى..

نشيد عاطفي!

وصول أخبار صديقي الحدّاد إلى أمي بانتظام، كان كافيًا لتحويله إلى نجم، وهكذا تغيّرت نظرات النساء إليه، وغدا شخصًا آخر تمامًا. ولعله الشخص الوحيد الذي جنى خيرات «رويتر» دون أن يدفع فلسًا واحدًا، أو يتضرر من كلامها. حين تحقق حُلْمه، وبَثَّت الإذاعة أغنيته بعد نشرة الوفيات التي تجيء بعد أخبار العاشرة صباحًا، في ذلك اليوم البعيد.

كانوا قد أخبروه بموعد بثِّها مسبقًا، فأخبرتُ أمي فأخبرتْ بدورها الجارات.

من رأى المشهد في ذلك اليوم، لن ينساه أبدًا، كانت الحارة كلّها تتحلَّق حول أجهزة الرّاديو كما لو أن حربًا ستشتعل بين لحظة وأخرى.

لكن الحارة انقسمت بين معجب ومتردِّد في الإعجاب بتلك الأغنية، إلا أنّ أُمّي رأت في الأغنية شيئًا جميلًا، وأرجعت السببَ إلى أنني رافقتُ صاحبها واخترتها له بنفسي! وكما تعرفون لم يكن ذلك صحيحًا.

في ذلك المساء قالت لي: «لا بأس بأن تدعم ابن جيراننا بأغنية أو اثنتين، فهو أحقُّ بأغانيك من أم كلثوم»!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

كنت قد توصَّلتُ إلى هذا قبل أن تقول ما قالته، إذ إنني نجحتُ في بيعه ثلاث أغنيات، ثم ثلاثًا بعدها بسعر يؤهِّلني للإنفراد بأربع بائعات هوى في وقت واحد مقابل أغنية واحدة.

بالطبع، كان يرى في تلك الصّفقة إنجازًا كبيرًا، فهو يعرف أن عليه أن يدفع ستة أضعاف المبلغ الذي استلمتُه منه ليحصل على ما حصل عليه.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

بعد سنين طويلة، سألته: ولكن لماذا اشتريتَ الأغاني، ما دمتَ لم تُغنِّها؟ فقال لي: «إن أحد الملحنين أُعجب بكلماتك التي تكتُبها، وحين أصرَّ على أن يصلَ إليك، قلتُ سيخطف كلَّ أغنية جديدة تكتبها ويعطيها لغيري من المطربين المنافسين، ولا يمكنني أن أخسرَ هذا كلَّه كما خسرتُ ذات يوم تلك الأغنية التي لم أدفع ثمنها، لأنه كان عاليا، وها أنت تعرف ما الذي حدث للذي غنّاها»!

كان على وشك البكاء فعلًا، لأن تلك الأغنية التقطها مغنٍّ لبناني، وبمجرد وصولها للإذاعة تحوّل إلى نجم كبير، وتحوَّلت أغنيته، التي تتغنَّى بالقمر والأحباب والسهر، إلى نشيد عاطفي لجيل بأكمله.

التفتَ إليَّ أخيرًا وقال: «ليس هنالك أسوأ من أن تبدأ حياتك بخطوة عاثرة، إذا كان لا بدَّ لك من أن تحبو في البداية، فذلك ليس عيبًا، أما إذا ما قررتَ

الوقوف والسَّير في طريقك، فعليك أن تتأكد من قوَّة تلك الخطوة الأولى التي ستخطوها»!

كان كلامه في ذلك اليوم بمثابة واحد من الدّروس الكبيرة التي تلقيتُها، ودون مقابل، ولعلَّ ما قاله كان أهمّ من كلِّ الأغنيات التي كتبتُها له وحاولتُ أن أكتبَها، من خلف ظهره، لسواه!

لكن، وللأسف، لم أستفد من حكمته، تماما كما لم يستفد من أغانيّ التي كتبتها له!

كائن فضائي!

بالمناسبة!!

لم أحبّ وصف الأستاذ عليّ لي في الرواية، رغم أنه فعل ما فعل، كما قال لي، لكي يحميني! (وعدني بأن يعود لما كتبه ويكون أكثر صدقًا في وصفه لملامحي!)

يكفي أن أقول إنني لو قرأت ما قاله عنّي بصيغته الأولى، دون أن يكون اسمي موجودًا لما عرفتُ أنني المقصود بهذا الكلام، ولكنّ ما أزعجني أن يصف وجهي بالاستدارة والطول معًا وكذلك عيني بالصغيرتين، أو كما قال «كنقطتين تحت حرف ياء في نهاية كلمة»! ويديّ، بالطويلتين وأصابعي بالأطول! وأنني أقرب ما أكون إلى الممثل آندي غارسيّا الذي لا أعرفه، وأبعد ما أكون عن الممثل ألن ديلون! وما إلى ذلك؛ ولو أُعطيتْ هذه الصفات لرسام كاريكاتير في الجريدة لخرج منها بوجه واحدٍ من مخلوقات الكواكب الأخرى!!

صحيح أنني لا أصلح لأن أكون ممثِّلا، بحكم طبيعتي، ولكن يكفي أن امرأة واحدة وقعتْ في حبّي وأخرى سترى فيَّ وسامةً تفوق وسامة وزير، وثالثة ادّعت أنني تحرشت بها! لأقل إنني جميل، هذا إذا ما تجاوزت مسألة رغبة أربع فتيات بالإنفراد بي في ذلك الصيف البيروتي، ورغبة فتاتين خارقتي الجمال باختطافي ذات يوم وأنا عائد من الجريدة للبيت!

لهذا الكلام مناسبة أخرى، ستـأتي في حينها!

كان حَبُّ الشَّباب، للحقّ، مصدر إزعاج لي، وقد رافقني طويلا، وحين أنهيتُ المرحلة الثانوية كان في أوْجِهِ، وبعد ظهور النّتيجة بأيام، بدأتُ ألاحظ أنه يجفُّ ويتوارى مُخلِّفًا تلك الأخاديد الصغيرة التي لا يمكن أن توصف بأنها أحالت جانبيّ وجهي إلى ما يشبه حبة تَمْر، كما قال!

أرجو أن يحذفَ ذلك الوصف من الصِّيغة الأولى، كما وعد، وإلّا، فها أنا أصحِّحه بنفسي، فقد اتّفقنا أن أسجل ما أشاء، إضافة لأوراقي القديمة، وأن ينشره دون تدخُّل جوهريّ، باستثناء ما تقتضيه الصَّنعة الرّوائية ولغة الرّواية كما أوضح لي!

باب الريح

قبل تحديد موعد الذهاب للجريدة بتوْصية صاحب مكتب الإعلانات، كان عليَّ أن أفعل ما أوصاني به: أن أكرِّس الأيام القادمة لقراءة الجرائد، ومعرفة ما يدور في العالم، بعد أن لاحظ أنني لا أعرف حتى اسم وزير التربية والتعليم الذي وقَّعَ لي شهادة نجاحي.

تركيزي هنا على صاحب مكتب الإعلانات، لا يجيء بهدف التَّعريض بشِعره، واستعراض الثَّمن الباهظ الذي دفعته على مدى أيام متتالية، حين كان عليَّ أن اذهب للاستماع إلى قصائده؛ تركيزي على حكايتي معه هدفه أن أقول إنني لم أدخل الصحيفة بطُرُق ملتوية، أو كما دخلَها السيد عبد اللطيف الذي صعدَ السُّلم في ثلاث قفزات، فإذا به رئيسا للتّحرير؛ هدفي أن أقول هنا إنني وصلتُ إلى عملي بطريقة طيبة، شريفة، إلّا إذا أراد أحد أن يعتبر طيبةَ صاحب مكتب الإعلانات نوعًا من أنواع الفساد أو المحسوبيّة!! والدّليل على نصاعة موقفي، أن السيد عبد اللطيف الذي لم أشهد خطواته الأولى على عتبات سُلَّم الصعود، كان يمكن أن يرفض تعييني، أو التَّنسيب بتعييني، أو حتى بوضْعي تحت التَّجربة، فعلاقته، كما تبيّن لي فيما بعد مع صاحب مكتب الإعلانات، كانت علاقة أقلّ من عاديّة، بل لا تتعدّى إلقاء التحيّة والسؤال عن الصِّحة والعمل، تلك الأمور العامة التي لا طعم لها ولا تعني شيئًا لا للسَّائل ولا للمسؤول!!

سأقول أكثر من هذا!

لقد تبيَّن لي، ولا أعرف كيف لم يتبين للسيد عبد اللطيف، أن الدُّخول من باب صاحب مكتب الإعلان للجريدة، سيجلب لي متاعب لم أكن أتوقّعها، وستَرون!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

أرَّقني أن عقلي بدأ يعمل، كما يعمل عقل أيّ مواطن في هذا البلد، حين قرأ لي الأستاذ عليّ كثيرًا مما كتبه عنّي، فقد بدأتُ أشكّ في نفسي، فما دام ذلك الجوُّ كلّه حولىَ فاسدًا، كما كتبَ، وكما كنتُ أخبرته، فكيف يُمكن أن أكون أنا النَّظيف الوحيد في ذلك المستنقع الذي يُدْعى الصَّحيفة؟!

لعلّي أكون الآن قد أوضحت الكيفيّة التي دخلتُ فيها إلى عالم الصحافة، وهنا أحب أن أؤكد أن كثيرين، لا بدَّ، غيري، قد عمِلوا هناك بالطريقة نفسها، ولكنّهم عرفوا، أو على الأقل بعضهم، من أين يؤكل الكتف، فلم يجدوا سبيلا لذلك أفضل من الصعود على كتف الحكومة ذاته لالتهام ما يشتهون من أكتاف، أما الآخرون فقد ظلّوا، مثليَ، حيث هم!

قلب الجحيم

حين رأيتُ السّيد عبد اللطيف خلف طاولته اقشعرَّ بدني. كان يجلس بمهابة ويحررُ الأخبار بمهابة، وحين رفع عينيه ونظر إلى وجهي، كنتُ قد تيبَّستُ تمامًا، ولم يكن ينقصه، وهو يراني على تلك الحال، سوى أن يقول تلك الجملة التي قالها لي ذلك المحقق في ذلك اليوم المشؤوم: «مُعارض؟! حتّى إنّك تأنفُ من أن تضع يدكَ في يدنا ولو عن طريق المصافحة»؟!

لكنه ابتسم، وقال لي: «أهلًا وسهلًا»! وطلبَ مني بأدب جمٍّ أن أستريح ريثما يُنهي ما في يده من أخبار، وحين أحسَّ بأن عمله عليها سيطول، تلطَّف ومنحني ثقته دون مقدمات، حين مدَّ يده إليَّ بحزمة من الأخبار وطلبَ منّي أن أُحرِّرها؛ وحين بدأت العمل على ذلك قالَ شيئًا ما، نهضتُ بعد سماعه وجلستُ خلف الطاولة وبدأتُ العمل، دون أن أُعير أيّ انتباه لأي شيء غير ذلك الذي بين يديّ.

لكن عينيّ، طوال الوقت، كانتا تسترقان النّظر إليه، وأستطيع القول إنني حين لمحتُ طيف ابتسامة على شفتيه، أدركتُ أنّ كلَّ شيء يسير على ما يرام، وأنني بتُّ موظفًا في الجريدة؛ ولعل قراءة الأستاذ عليّ لتلك الابتسامة غير بعيدة عن الصّواب، إذ إن السيد عبد اللطيف استلطفني فعلا. ثم ما الذي كان يمكن أن يفعله غير ذلك ما دام اسمه عبد اللطيف؟!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

أستطيع القول هنا: إن نصيحة صاحب مكتب الإعلانات قد كانت في محلّها، إذ كنتُ أعمل على الأخبار التي وضعها السيد عبد اللطيف بين يديّ، وفي رأسي كلُّ تلك الصِّياغات المُبهرة للأخبار التي قرأتُها على مدى أسبوع تقريبًا على صفحات تلك الصّحف المرموقة، ولعل أفضل شيء فعلته هو أنني حفظتُ أيضا أسماء الوزراء جميعًا، وبهذا جنَّبتُ نفسي الوقوع في أيِّ فخٍّ قد يُنصَب لي، كأن يُوضَعَ بين يديَّ خبر عن وزارة الزِّراعة فيه اسم وزير التربية أو وزير التخطيط، أو يضعوا اسم مدرب الفريق الوطنيّ لكرة القدم مكان اسم وزير الأوقاف مثلا!

في حالة كتلك، كان يمكن أن أجد نفسي بين أحضان باب الخروج!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

سأعترف بشيء هنا لم يكتبه الأستاذ عليّ، رغم مبالغته في الاقتراب حين رسم صورتي عن قرب، واعترافي هنا هو أنني شكَّاك بطبيعتي، ولا أستطيع أن أكون مطمئنًّا لشيء إلا بعد أن يثبتَ بالدليل القطعي أن شكّي لم يكن في مكانه!

هل ألتقي في هذه النقطة مع الحكومة وعلاقتها بالمواطن؟! ربما!

لكن، وبعد أن جرَّبتها، أعني الحكومة، تبيّن لي أنها تُبالغ في الشّكِّ كثيرًا! بل ويمكن أن تكون ظالمة، وهذا ما لا يمكن أن أكونه أبدًا؛ وما رفضي ذلك العرْض المُغري من قِبَلِها، الذي سأتحدّث عنه بالتفصيل، إلا نتيجة إيماني الأكيد بأنني لا يمكن أن أكون ظالما!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

ما إن حدَّد لي السيد عبد اللطيف مديرية الأمن، واضعًا إياها ضمن اختصاصاتي، حتى أحسستُ بأنه يُلقي بي مباشرة إلى الجحيم، قلْب الجحيم، بحيث تغيَّرتْ نظرتي لابتسامته تلك. قلت: «إنه يريد تحويلي إلى أمثولة لأشباهي الذين يأتون من الشّارع معتقدين أنهم الأكثر قدرة على العمل في الصحافة».

وبالطبع، لو تمَّ ما تمَّ، لكنتُ في وضْع لا أُحسَد عليه.

تصوّروا أن أجد نفسي في مشكلة ليس لها أول من آخر مع هذه المديرية بأكملها، والتي يكفي أن ينظر شُرطيّ واحدٌ من منتسبيها إليَّ لأشعُر بالدُّوار!

لكن الأمر مرَّ بخير، وأثبتتِ الأيامُ أنني كنتُ شكّاكًا أكثر مما يجب، ولم يكن هناك دليل أجمل وأسطع من هذا:

ذلك الحيّز الضيّق

لم تكن أقلّ من امرأة فاتنة لم أرَ شبيها لها من قبل، ولا أعني هنا سوى مديرة مكتب وزير التربية والتعليم؛ ولو خُيِّرتُ بينها وبين «جميلة» ما قبل أيام الخطوبة وأيام الحب، لاخترتُها هي لا سواها. وأقول ذلك هنا مُضطرًا، لأن الأستاذ عليّ أوحى بأنني أعمى منذ البداية، وأنني لا يمكن أن أنظرَ إلى أيّ امرأة غير زوجتي «جميلة»! كما لو أن عينيّ مبرمجتان كأيِّ جهاز لالتقاط المحطات الفضائية، بحيث لا يمكنك أن تَرى خلاله محطتين في آن واحد على التردُّد نفسه!

لا، كنتُ أرى، ومن العيب أن أوصف بأنّني لا أرى، وأن جمالًا كذلك الجمال، يُمكن أن يكون بالنسبة لي شيئًا عابرًا بلا معنى. لقد رأيتُها جيدًا كما رأيت زميلتها سكرتيرة وزير الأشغال العامة، لكن هذه الأخيرة لم تكن بجمال تلك أبدًا.

لوهلة انتابني أمامها ذلك الإحساس الغريب، بأنّني لا أريد أن أتزحزح، لا أريد أن أغادر المكتب، وحين اعتذر زميلي الذي رافقني ليقدِّمني لموظفي العلاقات العامة، في البداية، عن شرب الشّاي أو القهوة أو الزُّهورات، كدتُ أموت غيظًا، إذ كيف يمكن أن يرفض احتساء شيء وهم يعرضون علينا ثلاثة أشياء؟!

لكن أفضل ما حدث أننا جلسنا واحتسينا ما احتسيناه، بحيث أُتيح لي أن أتأمَّل، خطفًا، وجهها المضيء كشمس خلال انهماكها في مراجعة الكتب الرّسمية التي أمامها باستغراق، كما أُتيح لي أن أنظر إليها من الخلف وهي تتَّجه كعارضات الأزياء نحو باب مكتب الوزير بكعبها العالي، ومؤخرتها التي لم يسبق لي أن رأيت مؤخرة مثيلة لها محشورة في هذا الحيز الضيق الذي يُدعى تنّورة!

كان لا بدَّ من أن يلكزني زميلي، كان لا بدَّ من أن أنهض، لكن أجمل ما حدث فعلًا هو أنني اكتشفت فجأة أن باستطاعتي العودة غدًا وبعد غد! وإذا كنت سأحسُّ بعد أقلِّ من نصف ساعة من دخولي مديرية الأمن، أن أفضل ما حدثَ لي هو أنني غادرتُ مبناها، فقد كان أفضلُ ما حدث وسيحدثُ لي، وإلى زمن طويل، هو أنني سأعود إلى مكتب مديرة وزير التربية.

لكن مشاهدتها بالطبع، كانت أقصى حدود حلمي، إلى أن حدث ما حدث بعد ذلك، حين أطلقت عاصفة أنوثتها على بعد مليمترات قليلة من روحي!!

عتبة الجنّة

حُلُم الوصول إلى الصفحة الأولى لم يكن ضمن قائمة أحلامي في البداية، فقد أمضيتُ السّنوات الثلاث الأولى طالبًا السِّتْر، كما لو أن فترة التّجربة ليست ثلاثة أشهر بل ثلاث سنوات، ولم أكن أريد أن أخوض في حساسيات أخبار تلك الصفحة، بل كان يُرعبني في الحقيقة أيّ شخص يظهر اسمه فيها، ولا أريد أن أتحدَّث في هذا، فلعلَّ القائمة التي وضعها الأستاذ عليّ حول أولئك الذين ينجحون في الوصول إلى مرتبة الصّدارة، هي خير دليل على ما كنت أُفكر فيه منذ البداية. لكن حسَّ الحسد، ولا أقولُ المنافسة، في البداية، ثم حسُّ الحقّ في الوصول إليها، فيما بعد، هو الذي حرَّكني وجعلني أُفكِّر بذلك.

بدأ الأمر حين حاولتُ التمدَّد خارج اختصاصاتي، وأعني: الأخبار، بمحاولتي كتابة تحقيقات صغيرة في البداية عن أمور تتناول قضايا تلك الدوائر التي كنتُ مُكلَّفًا بأخبارها. أقول هذا، لأن من يقرأ ما كتبه الأستاذ عليّ عنّي، يُوحي بأنني لم أُحاول، وأنّني بقيتُ محصورًا في الأخبار والتقاطها جاهزةً، ولذا، ربما كان عليَّ أن أوضِّح هنا ما لم أكن قد أوضحته له في المرَّة الأولى.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

أجريتُ تحقيقًا صغيرًا عن تسرُّب طلبة المرحلة الابتدائيّة من المدارس، كان في سبع صفحات بخط يدي، وللحقّ، كان السيد عبد اللطيف قد طلب منّي ذلك لنشره في أحد أيام السَّبت، حيث تكون الأخبار شحيحة، كأمطار هذه الأيام، بسبب عطلة يوم الجمعة وانفلات الموظفين يوم الخميس. قال لي: «أريد تقريرًا»! خفتُ في البداية، فليس للتّقرير سوى معنى واحد في ذهني، ذلك الذي يتمُّ رفْعُه للجهات العُليا، ومن حُسن حظّي أنني تنبَّهتُ للمعنى في اللحظات الأخيرة، بعد أن أحسستُ بأنني قاب قوسين من الوقوع مغشيًا عليَّ.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

لم يخطر ببالي في ذلك اليوم إلا وزارة التربية والتعليم حيث مديرة مكتب الوزير الفاتنة، ولا أقول الجميلة!! التي كنتُ أحبُّ أن أبدأ صباحي، يوميًا، بالتمتُّع برؤية وجهها النَّضر العذب ومؤخرتها الأسطورية التي، للأسف، كانت تجعلني أستحضر دائما مؤخرة زميلتي إياها التي اتَّهمتني بالتحرُّش بها، وهذا ما كان يُفسد الأمر عليَّ دقائق، قبل أن أعود وألملم أفكاري من جديد.

حدَّثتها عن فكرة كتابة تقرير عن الوزارة، ففرحت كثيرًا، وقالت لي «عليَّ أن أُقدِّمك للوزير.. فهو الآن غير مشغول بشيء. من زمن كان عليَّ أن أفعل ذلك. كيف نسيت»؟! ونهضتْ من على كرسيّها نحو باب مكتبه، ولأول مرَّة أنسى أن لها مؤخّرة رائعة، إذ لم أر سوى يدها التي راحت تتَّجه إلى أكرة الباب، وقبل أن تلامسها قلتُ بجزع: «ليس الآن»! وعندما استدارت، حيّرني أنني لم أر وجهها النَّضِر الجميل أيضًا.

- لماذا؟! سألتْني باستغراب.

قلت لها: «لا أعتقدُ أن لباسي مناسبٌ للقاء معاليه»!

وكانت تلك أسوأ كذبة مكشوفة، إذ كنتُ أحرص دائما على أن ألبس أفضل ما لديّ، ولم أكن مفتونًا بشيء مثل القمصان البيضاء التي تُوحي برزانة غير عادية.

التفتتْ إليَّ، ثم راحت تتوجَّه نحوي، كما اتجهت كاميرون دياز بثوبها الأحمر نحو جيم كاري في فيلم (القناع)، وحين وصلتْني انحنتْ حتى أحسست بشفتيها تلهبان أذني؛ ولو دخل أيُّ شخص في تلك اللحظة، أو فتحَ الوزيرُ البابَ لظنَّ أنّها تُقَبِّلُني، فانفجرتْ ينابيع العَرق من جسدي دفعة واحدةً وارتفعتْ درجة حرارتي، إذ كانت تلك هي المرَّة الأولى والأخيرة التي تقترب فيها امرأة على هذه الدَّرجة من الجمال، أو القبح مني إلى هذا الحدّ.

طالت اللحظةُ بحيث اعتقدتُ أنها ساعة، بل شهر، ومع إحساسي برائحتها قريبةً فوَّاحةً طازجةً مُسْكِرَةً أحسستُ بأنني أترنَّح، وفي النهاية همستْ لي بخفوت: «لا تقُل عن نفسكَ كلامًا كهذا، فأنت (أشْيَكْ) من ذلك الذي في الداخل، وأوسم، بعشرين مرة»!!

وهنا كانت المفاجأة الكبرى، فكلُّ شيء كان يمكن أن أتوقَّعه، إلّا أن تهمسَ هذه الفاتنة في أذني كلامًا ناعمًا كهذا.

حين اعتدَلَتْ، أحسستُ بأنني كنتُ في الجنة، وحين ابتعدتْ أحسستُ بأنني أُطرَد منها.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

لم أكن قد رأيتُ الوزير الجديد من قبل، وقد تبيّن لي حين رأيته، أن جملتها في مكانها، وأنها لم تكن تجاملني، وقد مضيتُ في تحليل ما قالته إلى أن توصَّلتُ إلى أنّها لا تحبُّ هذا الوزير، وأنها تُمضي أيامها في مكتبه مُكرَهةً، وهذا ما أكَّدته لي فيما بعد حين قالت: «سأفتقدكَ أستاذ بهجت»!

في تلك اللحظة استعدتُ تلك الجملة التي قالها مدير العلاقات العامة في مديرية الأمن لزميلي الذي أسلَمني مهامَّه في المديرية، فقلتُ لها بغباء واضح ندمتُ عليه: «ولكنّي لن أتركَ الوزارةَ إلى وزارة أخرى»!

فقالت لي: «بل أنا التي ستترك الوزارة إلى وزارة أخرى»!

وعندها سألتُها السؤال الأكثر غباءً: «هل ستصبحين وزيرة»؟! وكنتُ أرى أنها تستحق.

عند سماعها ذلك ضحكتْ كثيرًا، وحسنا أنها اعتقدتْ أنني أمازحها، إذ قالت: «أظنّك ستصبح وزيرًا قبلي»! وأسرَّتْ لي أنها ستنتقل إلى مديرية المخابرات، لتكون مديرة مكتب مُديرها الذي كان وزيرًا للتربية هنا!

برقَّة شديدة، طلبتْ منّي أن أنسى ما قالته لي، وعندما أكَّدتُ لها ذلك، قالت: «إنه يريدني معه، بعد أن تأكّد من أنني لا أفتح فمي إلّا لقول ما هو مسموح

به. وذكّرتني أنها أمضتْ أربع سنوات معه هنا؛ وعند ذلك فهمتُ لماذا لا تُطيق الوزير الجديد.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

بعد أن طمأنتني بأنني أكثر (شياكة) من ذلك الذي في الدّاخل، وقبل أن تقوم بتنفيذ ما عزمتْ عليه بلحظة، فُتِحَ بابه، ورأيته أمامي بلحمه وشحمه، فنهضتُ عن الكرسيّ احترامًا، كما تقتضي الضَّرورة، وحييته بهزِّ رأسي؛ في حين أفسَحتْ مديرة المكتب الطريق له ليمرَّ، وفي اللحظة المناسبة قالت له: «أُحبُّ أن أعرفِّك إلى الصّحفي الّذي يُغطي أخبار وزارتنا». وعندها رأيته يبتسم لي، ويسألني عن اسم الجريدة التي أعمل فيها، ويُحمِّلني تحياته إلى السيد عارف غنام – رئيس التحرير؛ وللحظة أراد أن يقول شيئًا ما، لكنه بدا متردِّدًا، وحين حسم الأمر قال: «بس غيرولنا هالصُّورة القديمة إللي بتنشروها مع أخباري! أي ما في غيرها عندكم»؟!

فقلتُ له بارتباك: «حاضر سيدي، سنُغيرها». فسألني ذلك السؤال الصعب: «كيف ستغيِّرونها ما دامت هي الوحيدة الموجودة لديكم؟! وحسنا أنه لم يكن ينتظر إجابتي، إذ قال: «أرسلوا مصوِّرَكم غدًا إلى مكتبي ليلتقط لي بعض الصُّور»! وصمت لحظة ثم أضاف: «لا، غدًا سأُحضِر لك مجموعةً من الصُّور الجاهزة، وستُسلِّمها لك الآنسة ليلى»!

وخرج.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

كانت تلك هي المرَّة الأولى التي أقتربُ فيها من وزير إلى هذا الحدّ، المرَّة الأولى التي أُكلِّمه، وحمدتُ الله أن ذلك تمَّ أثناء مغادرته المكتب، لا في مكتبه، وأظن أن نجاتي عائدة لرضا الوالدة وقلبها الذي يرفرفُ فوق رأسي كحمامة بيضاء على الدوام.

وما إن رأيت الوزير خارجًا يجرُّ قفاه! حتى عاد تأثير تلك الهمسة ليضرب بقوة في عمق أعماقي.

باب الزنزانة!

جهَّزتُ الأخبار ووضعتُها بسرعة أمام السيد عبد اللطيف وغادرتُ مبنى الصَّحيفة. رحتُ أفكِّر في المكان الذي يُمكن أن أذهب إليه، وأقضي فيه ساعات أتأمَّل خلالها ما حصل، أتأمّل وجهَها الذي لم يزل أمامي، مؤخِّرتها الرائعة، بطَّتي ساقيها المشدودتين فوق الحذاء ذي الكعب العالي، همستَها، اقترابها منّي، حرارةَ شفتيها تلفح أُذني، رائحتَها؛ وحيَّرني أنني لا أعرف مكانًا واحدًا يستحقُّ أن أحمِل إليه هذه الذِّكريات كلّها لأرتاح فيه.

وصولي إلى الكورولا الخضراء كان بدايةَ الطريق للخروج بحلٍّ ما؛ وحين فتحتُ الباب وجلستُ في الداخل، هيئ لي أن ليس هنالك من مكان أفضل من حُجْرة سيارتي الصغيرة ذات الشّبابيك الستة.

نصف ساعة على الأقلّ، أمضيتها داخلها قبل أن أنتبه إلى أن خمسة زملاء على الأقل أيضًا! قد مرّوا من أمامي وخرجوا بسياراتهم، وهم يُلقون عليَّ نظرات استغرابهم. عند ذلك امتدَّتْ يدي لمفتاح السّيارة وأدارتْهُ، وكانت المفاجأة أن المحرِّك جأر تلك الجأرة مُصدِرًا هديرًا مرعبًا يُنذر بتفجُّره.

«كيف لم أنتبه إلى أن المحرك كان دائرًا، كيف»؟!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

رحتُ أُفكِّر من جديد في المكان الذي يُمكن أن أذهبَ إليه، وكم أحزنني أنني لا أعرف في هذه الدنيا إلا ثلاثة أماكن، هي: البيت ومبنى الصحيفة والكورولا الخضراء؛ هذا إذا ما تجاوزتُ المعايير السائدة في تحديد ما هو المكان بالفعل!

كانت الكورولا هي ذلك المكان الذي تركتُهُ يقودني إلى حيث يُريد، وحين وصلتُ الميدان الواسع انعطفتُ يمينًا، بعيدًا عن طريق البيت. لم أعرف في الحقيقة كيف حدث هذا! ولماذا؟ وكدتُ أعتقد أن الكورولا قد فعلتْ ذلك من تلقاء نفسها، وأنها تمضي بي فعلًا للمكان الذي تختاره لي، ولم أعرف ذلك المكان فعلًا إلّا حينما وجدتُها تُبطئ سرعتها وتأخذ أقصى اليمين لتتوقَّف أمام سور وزارة التربية والتعليم!

كانت الكورولا في ذلك النّهار هي قلبي، قلبي الذي يُحسُّ بي وأُحسُّ به، ويقاسمني تلك النَّشوة التي تملأ كياني بنوع جديد من الحياة لم أكن أعرفه من قبل.

للحظات، بقيتُ في مكاني أنظر إلى مبنى الوزارة، إلى الطابق الثاني بالتحديد، حيث مكتب مديرة مكتب الوزير. كلّ شيء هادئ، فقد غادر الموظَّفون والمراجعون وخَلا الكراج من السّيارات، ولم يعد يُرى سوى شُرطيّ الحراسة الذي يترقَّب بعينين يقظتين أيَّ أخطار يمكن أن تُطلَّ برأسها مُهدِّدةً هذه الوزارة - الدولة، وأقول ذلك لأن عدد المعلمين والمعلمات والطلبة والطالبات والموظفين والموظفات والحُجّاب والحُرّاس وسواهم، أكبر بكثير من عدد مواطني كثير من الدول؛ ولأول مرَّة أُحسُّ بأنني صافحتُ رئيس دولة هذا الصباح، حين صافحتُ السيِّد الوزير! ولم أجد موقِعًا للآنسة ليلى، في هذه الدولة، أفضلُ من أن أراها ملِكة متوَّجة.

كنت أريد النّزول من السيارة، واستغربتُ كثيرًا لأنني لم أفعل، كما لو أنني أنتظر من الكورولا التي أوصلتْني إلى هنا، أن تتفضَّل وتفتح لي الباب بنفسها!

حين أدركتُ استحالةَ ذلك فتحتُ البابَ بنفسي، وأغلقتُهُ، ثم رحتُ أسير بمحاذاة السُّور جيئةً وذهابًا، إلى أن حدثَ ذلك الأمر الذي لم أتوقَّعه، والذي خجلتُ أن أبوح به للأستاذ عليّ.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

لم أكن أعرف كم مرَّ عليَّ من الوقت وأنا أتأرجح كبندول السّاعة بمحاذاة ذلك السُّور. كنتُ في مكان آخر؛ وقد اكتشفتُ أنّني أحاول تَشَمُّمَ أُذني، دون جدوى بالطَّبع، لأَنعَمَ بما تبقّى من رائحة الآنسة ليلى، ولا شكّ أن حركاتي المجنونة تلك، هي ما لفتَ انتباه الشّرطي الحارس لي بسبب وجودي المشبوه بجانب وزارة حكومية كبرى، وجودي بجانب دولة!

لم أره، هو الذي كان يشير إليَّ ويُنادي، ويقترب! وأنا أُفكِّر بذلك الخطأ الكبير الذي فعلتُه حين تسرَّعتُ وتزوجتُ «جميلة»! لا بد أنّني كنتُ حمارًا فعْلًا، كما وصَفني، بالضبط، السيد عبد اللطيف، فلو لم أكن تزوجتُها لكان الباب مفتوحًا الآن أمامي للتقدُّم بجرأة لطلبِ يد الآنسة ليلى.

فعلا، لقد أضعتُ شبابي، حين اعتقدتُ أنّ عليَّ عقد قراني على «جميلة» قبل أن يختطفها رجل آخر، كما لو أنها المرأة الأخيرة على هذا الكوكب!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

هزَّني الشرطي؛ وحين صحوتُ، أحسستُ بذُعر وأنا أجد نفسي في قبضةِ شرطي يحملُ مدفعًا رشاشًا، عيناه تقدحان شررًا وفمه لا يتوقَّف عن إطلاق سيلٍ من كلمات لم أكن أسمعها.

بصعوبة استطعتُ إقناعه أنني صحفي، وأنني آتي كلَّ يوم إلى الوزارة لكي أحملَ أخبارها للصَّحيفة، وأنشرها؛ وحين قلتُ له إنني اليوم كنتُ أتحدَّث مع السيد الوزير، وإنه يعرفني وأعرفه، وإنه سيُحضِرُ لي صُوَرَهُ غدًا لأن الصُّورة التي ننشرها له لا تُعجبه، حدَّق فيَّ وقال: «لا حولَ ولا قوّة إلّا بالله. الله يرحمنا»! وطلب مني بلطف أن أعود إلى بيتي بعد أن سألني: «هل لكَ أهل، وهل تستطيع الوصول إلى بيتكَ بنفسك»؟! هززتُ رأسي مؤكدًا أنني أستطيع، وأنني أملك كورولا خضراء أوقفتها على الجانب الآخر من المبنى؛ فقال: «وكورولا خضراء أيضًا»؟!

قلت: «نعم». وأشرت برأسي إلى المكان الذي تركتُها فيه.

- مع السلامة يا أخ. انتبه لنفسك!

شكرته وأنا أتصبَّب عرقًا، فقد كان الشيء الوحيد الذي توقّعته هو أن يطلبَ سيارة شرطة تحملني مقيَّدًا إلى زنزانة مديرية الأمن أو إلى أيّ مخفر قريب.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

لم تكن «جميلة» هي نفسها جميلتي حينما اجتزتُ عتبة عُشِّنا؛ كانت قد غدتْ شيئًا آخر تمامًا، كما غدوتُ أيضًا. ولأول مرَّة أجد نفسي أصرخُ في وجه نفسي: «إن لم يكن هذا هو الحبُّ فعلًا، فأي شيء آخر يكون»؟!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

كان يمكن أن أعيش عمري كلّه على ذكرى رائعة كهذه، إلى أن شوَّش أفكاري، وأعادني إلى حجمي الطبيعي، ذلك الأمر الذي لم أكن أتوقّعه: عاصفة من فتاتين جميلتين تجتاح الظهيرة والكورولا وتجتاحني. ولو كانت النتيجة من بنات توقعاتي! لاعتقدتُ فعلا أنني ألن ديلون!

المفاجآت العشر

في ذلك اليوم، أوقفتُ الكورولا بمحاذاة الرَّصيف، لم تكن تلك عادتي، لكن وجود شاحنة تُفْرِغ حمولتَها من الورق، أمام باب الكراج، جعلني أتخذ هذا القرار.

لم تكن الأخبار التي أحضرتها كثيرة، ولا مهمّة أيضًا -كثيرًا ما كان يحدث هذا-، بسرعة أنجزتُ تحضيرها وقدَّمتها للسيّد عبد اللطيف. قبل أن أغادر سمعتُ مَنْ يهمس لي: «إنهم يصرفون الرّواتب اليوم»! وهكذا انعطفت باتّجاه مكتب المحاسب لأقبضَ راتبي.

استلمت المغلَّف الورقيّ الأبيض الذي كُتِبَ عليه مقدار راتبي واسمي، وكما يحدث عادة، طلب منّي المحاسب أن أتأكد من الرَّقم، إلّا أنني لم أفعل ذلك، خَجلًا! -رغم كوني شكّاكًا بطبيعتي- وكم كان هذا يسعده.

وضعتُ الرَّاتب في جيبي، وقبل أن أصل إلى الكورولا، تذكَّرتُ أنني بحاجة لشراء بعض الأشياء التي أوصتني جميلة أن أشتريها. فتحتُ المغلَّف، أخرجتُ الرَّاتب لأقتطع جزءًا منه، وحين أردتُ أن أعيده ثانية، لسبب ما، أصبح الراتب أكبر حجمًا من أن يعود للمكان الذي كان فيه. فوضعته في جيبي ثم مزّقت المغلّف وألقيته في سلّة مهملات في الممرّ.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

إلى الكورولا وصلتُ، بعد أن دُرْتُ قليلًا حول «رولّات» الورق الضخمة التي أُنزِلَتْ بجانب الرَّصيف وفوقه. وبعد خمس عشرة خطوة على الأكثر، أخرجتُ

المفتاح من جيبي وفتحتُ بابَ السيارة، وبعد أن أدرتُ محرِّكها بقليل، وانتظرتُ صعود الزَّيت إلى كلِّ أجزائه، سمعتُ طَرْقًا على شبّاكها الأماميّ المقابل لي، التفتُّ، كانت هناك فتاة جميلة للغاية تنحني وتقولُ كلامًا ما، لم أسمعْهُ، ولأنّي كنت أعرفُ أن هناك مشكلة في الزُّجاج، مددتُ يدي على آخرها لأتمكَّن من فتْح الباب لها، وهنا كانت المفاجأة الأولى، إذ رأيتُها تدخل وتجلس إلى جانبي وتبتسم لي، وقبل أن أفهم ما يدور، امتدَّتْ يدها وفتحتْ البابَ الخلفيّ، وإذا بصديقة لها، لا تقلُّ جَمالًا عنّها، تدخل وتجلس في الكرسيّ الخلفيّ، دون أن تنسى إلقاء التحيَّة، مع ابتسامة لا يمكنني إلا أن أعترف بصفائها وبراءتها أيضًا، وهنا كانت المفاجأة الثانية.

- أين طريقك؟ سألتْني الأُولى، فأجبتها، فقالت: «إن لم يزعجْك وجودنا، فهذا طريقنا أيضًا»! وهنا كانت المفاجأة الثالثة!

أوشكتُ أن أرتكبَ الخطأ نفسه مرَّتين في أسبوع واحد، وأعني أن أُدير مفتاح السيارة، مع أن محرِّكها يعمل.

في اللحظة الأخيرة انتبهتُ لذلك.

بعد أن أخذتِ السَّيارة مسارها، حدثتِ المفاجأةُ الرّابعة! إذ فجأة وجدتُ فتاة الكرسيِّ التي بجانبي تضعُ يدها على فخذي، قرب المنطقة المحظورة، فارتجفتُ، وقبل أن أصحو من ذلك، أحسستُ بالفتاة التي في المقعد الخلْفي تُغيِّر موقعها، وتمدُّ يديها وتلمس رقبتي بأصابع حريريَّة، وهنا كانت المفاجأة الخامسة!

بعد قليل، بدأتْ إحداهنَّ بتوجيهِ أسئلة لي، كنتُ أجيب على نصفها، وأحيانا أجيب على ثلاثة أضعافها دون أن أنتبه!

قبل وصول الميدان، قالت لي صاحبةُ الأصابع الحريرية: «نحن الآن بين يديك (شُبَّيْكْ لُبَّيْكْ) وبإمكانك أن تفعل بنا ما تشاء»! وهنا كانت المفاجأة السّادسة.

تذكَّرت، خطْفًا، فندقَ بيروت وتلك الظهيرة المشتعلة بأربع بائعات هوى وعرض مُغْر، ولكني أحسستُ أن الفتاتين اللتين تجلسان في الكورولا أجمل وأروع، بما لا يقاس، من أولئك الفتيات الأربع مجتمعات!

- هل لديك مكان نمضي إليه ونستمتع قليلًا؟! إن لم يكن هناك مكان محدَّد، فيمكننا أن نمضي إلى فندق نعرفه، وهناك يمكن أن نستمتع دون مشاكل! قالت التي بجانبي. وهنا كانت المفاجأة السابعة.

لسبب ما، لم أعد مطمئنا حين سمعتُ كلمة فندق، لكنَّ ذات الأصابع الحريريَّة اقتربتْ من أذني لمسافة معقولةٍ وهمست: «لم أكن أعرف أننا محظوظتان إلى هذا الحَدّ»! ووجَّهتْ كلماتِها إلى زميلتها: «هل ترين؟ إنه

أجمل من أجمل الممثلين، وأرقَّ من كلِّ أصحاب سيارات المرسيدس والجاغور والـ بي أم دبليو»!

عند ذلك انتفضتُ، وأيقنتُ أنني ضحية فتاتين، تبدو معهما بائعات الهوى في ذلك الفندق، أصفى وأصدق.

- لا أريد أن أذهب إلى أيِّ مكان. قلتُ بتصميم غريب!

- وهل تعتقد أن باستطاعتك أن تلعبَ بنا إلى هذا الحدّ؟! تأخذنا بسيارتك، ثم تُلقي بنا على الرصيف كما لو أنَّ شيئًا لم يحدث. أنتَ دعوتنا للرُّكوب معك، ونحن لم نُقَصِّر، قلنا لك سنفعل ما تُريد، ونستمتع معًا! هل حدث لك أن استمتعتَ بلحظات مثل هذه التي نعدُكَ بها؟! ومع اثنتين مرّة واحدة؟!

- قلتُ لكما، لا أريد!

- لا تريد إذن؟!

وهنا حدثت المفاجأة الثامنة، إذ سمعتُ الفتاة التي خلْفي تفتح شباك الكورولا، وتصيح بصوت مشروخ: «أنقذونا، سيغتصبنا»!

في تلك اللحظة، تخيَّلت نفسي أتأرجح في نهاية حبل مشنقة.

انعقد لساني، ولم أعرف ماذا أقول.

بهدوء وصمت تخالهما الطيبةَ، قالت لي الفتاة التي إلى جانبي وقد أبعدتْ يدها عن منطقتي المحظورة: «لا تدخُل مع هذه المجنونة في معركة تحدٍّ، ستفضحكُ وتفضحنا! أعطها شيئًا من المال لتصمِت»!

هززتُ رأسي وقلت: «هذا ابتزاز»! وعند ذلك صرختْ تلك التي في الخلف بصوت أعلى: «أنقذونا، إنه يغتصبنا»!

حاولت أن أُوقف السيارة إلى جانب الشَّارع. لاحظت الفتاةُ التي بجانبي ذلك، فقالت: «لا تفعل هذا! على الأقل أنتَ في أمان داخل السَّيارة ما دامت تسير، أما إذا توقَّفتْ فإن الناس سيجتمعون عليك ويضربونك قبل أن يحملوك محطَّمًا -هذا إذا بقيت حيًّا- إلى أقرب مخفر للشّرطة»؟

- ماذا تريدين؟! سألتُ الفتاة التي بجانبي. فردَّت: «أنا؟! أنا لا أريد شيئًا! فقط أَسْكِتْ هذه المجنونة بشيء من المال كي لا تفضحنا»! عند ذلك امتدَّت يدي وأخرجتُ الرَّاتب كلَّه، ربما بسبب فزعي، وحينما رأته الفتاة التي بجانبي اختطفتْهُ ووضعتْهُ في حقيبتها!

كنت على وشك الصُّراخ وأنا أرى الرَّاتب يختفي أمام عينيّ. طلبتُ منها أن تعيده، وما إن فعلتُ ذلك حتى سمعتُ التي خلْفي تصرخ: «سيغتصبنا ويسرقُ

نقودنا»!! فقالت لي التي بجانبي: «ألم أقلْ لك، لا تفضحنا معها، إنها شريرة فعلًا»! وطلبت مني أن أتوقَّف فورًا بجانب الرَّصيف، ففعلتُ.

بسرعة، كما لو أنهما من رجال الحراسات الخاصَّة ترجَّلتا من الكورولا، وقبل أن تُغلق التي في الأمام الباب، انحنتْ وقالت لي: «تستحقُّ هذا الذي يحدثُ لك وأكثر! كان يمكن أن نكتفي بربع هذا الذي أخذناه، فتنبسط أنتَ وننبسط نحن، ولا من شاف ولا من دِري، ولكنك حمار»! وكانت تلك هي المفاجأة التاسعة!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

بقيتُ متوقِّفا في مكاني غير مُدرك لما حدث، وبعينين ميتتين راقبتهما وهما تشيران إلى سيارة فخمة من نوع (أودي)، توقَّفتْ لهما ودخلتا فيها، وحين وصلتا إلى جانبي، أشارتا إلي مودِّعَتَين بابتسامتين عريضتين!

لا أعرف كمْ مرَّ من الوقت وأنا أقف مذهولًا في الشارع، داخل الكورولا التي راحت تطحنُ الهواء بلا توقُّف؛ وفجأة حدث ما لم أكن أتوقّعه، إذ سمعتُ بوق سيارة شرطة خلْفي ، نظرت في المرآة، رأيتها تتوقَّف، ورأيت شرطيًّا ضخما يتقدَّم باتجاهي! وهنا كانت المفاجأة العاشرة!

قلت: لقد انتهيتَ يا بهجت!

لكنه لم يكن يريد أكثر من رخصتيّ القيادة والسيارة، وحين رآهما سليمتين، ولمح إشارة الصّحافة على الشّباك الأماميّ، طلبَ مني أن أتحرَّك بسرعة قبل أن يقطر السيّارة بمن فيها لأنها تقف في مكان يُعيق حركة السير، فتحرّكتُ.

الخديعة الكبرى

حمحم صاحبُ مكتب الإعلانات مثل حصان، ثم قال لي: ما دمتَ تكتب، فلماذا لا تدعني أرى بعض نصوصك؟! قالها كناقد أدبي رفيع المستوى، من أولئك الذين ستتردَّد أسماؤهم كثيرًا أمام عينيّ في الصحافة. وحين بدا ارتباكي واضِحًا قال لي: «لن أُرسلك إلى هناك قبل أن أطمئن إلى مستواك، ففي النهاية (المستشار مؤتمن!) ولن أُعرِّض نفسي لإحراج مع صحيفة لي معها علاقة عمل يوميّة منذ سنوات».

كان لا بدَّ لي من أن أهزَّ رأسي موافقًا وأبدأ من تلك اللحظة باستثارة خيالي ولغتي التي تألَّقت في مواضيع التّعبير، حيث لم أكن أعرفُ، على وجه الدِّقّة، ما الذي فعلتْه بها دروسُ المحاسبة الجافة!

- إن لم تُقنعْني - بصراحة- لن أستطيع الوقوف معك، فأن استلطفكَ شيء وأن أعمل على دخولكَ عالم الصحافة شيء آخر!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

شبه يائس خرجتُ من مكتبه. فكَّرتُ بالأغاني التي كتبتُها ذات يوم لصديقي المطرب الحدَّاد، الذي لا استطيع أن أدعوه باسمه لأسباب حسّاسة؛ فكَّرت بإعادة صياغة بعضها بالفصحى. لكن المفاجأة أنني اكتشفت أنها طارت من ذاكرتي أو تكاد، فباستثناء مقاطع صغيرة مبعثرة، مكسورة الوزن، لم يكن قد تبقّى في رأسي شيء.

حين تذكَّرت الأوزان الشعريَّة التي تعلَّمتها في المدرسة، أدركتُ أني وصلتُ إلى نصف الطريق، فالقوالبُ لديَّ! وليس عليَّ سوى أن أملأها!

طوال الليل حاولتُ دون جدوى، وحين انتبهتْ أمي لحالتي قالتْ لي: «ولو! ما الذي حدث لك؟! تجلس مهمومًا كما لو أنك ستؤدي امتحانات الثانوية العامة من جديد»!

ولأني لم أكن أُخفي عليها شيئًا، قلتُ لها كلَّ شيء (من طُقْطُق للسَّلام عليكم!) كما يقال، ففوجئتُ بها تقول: سأدعكَ وحدك، لن أُزعجك، ولكن إذا احتجتَ لمساعدتي، فما عليك إلّا أن تُخبرني، وسأكون إلى جانبك كما كنت دائمًا.

كنت بحاجة إليها في ذلك الليل المُعتم، ولكني، مثلها، لا بدّ، لم أكن أعرف ما الذي سأفعله.

بعد انتصاف الليل بساعة، لم أكن قد نجحتُ في كتابة شيء يُذْكَر، مع أن فناجين القهوة كانت تتوالى، فما ان أُنهي واحدًا حتى أجد آخر مكانه، قبل أن أنتبه، أما كتاب العروض، فلم يُسعِف بشيء، رغم اختياري بحرًا سهلًا لكتابة القصيدة... في النهاية كان لا بدَّ لي من أن أنهض لأصلَ الحمام، ولم أكن بعد قد اكتشفتُ أهمية المرآة التي تتجمَّع أمامها أفكاري، وأحسُّ معها أن صورتي تفكِّر معي وأننا اثنان يملكان طاقة مُضاعفة.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

خرجت من الحمّام، كما دخلته، وحين رأيت أمي تجلس في المطبخ نصف المعتم تذوي كشمعة منتظرة ما سيحدث معي، اقشعرَّ بدني.

سمعتْ خطواتي تلفتتْ وسألتْني: «بشِّرني، هل تسير الأمور بشكل جيد»؟ فلم أجد أمامي سوى أن أهزَّ رأسي كما لو أنني أقول نعم.

- الحمد لله. كانت يدي على قلبي طوال الوقت! تنهَّدتْ قائلةً.

طلبتُ منها برفق أن تذهب لتنام، وألّا تقلق لأن القصيدة انتهتْ، ولم يعد يلزمها سوى مراجعة بسيطة.

لكنها أصرَّت أن تبقى ساهرة حتى ترى بعينيها نهاية المخاض.

وعند ذلك قررتُ أن أجد الحلَّ، صُبحًا، مهما كان الثمن.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

من نومي نهضتُ فزِعًا، ولا أعرف إن كانت الفكرة التي خطرتْ ببالي حلما أم أنني كنت أفكِّر فيها طَوال الوقت.

جلستُ أحدِّق في الظلام برعب، وبقيتُ كذلك، حتى بدأتْ أشعة الشّمس الخديعة الكبرى

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

جلستُ أحدِّق في الظلام برعب، وبقيتُ كذلك، حتى بدأتْ أشعة الشّمس تتسلّسل عبر ستائر النافذة.

غادرتُ فراشي، وذهبتُ إلى الحمَّام ثانية، حدَّقت في المرآة، وأحسستُ أن صورتي لا توافقني على ما عزمتُ عليه، ولكي لا يتواصل النِّقاش بيني وبينها إلى ما لا نهاية، أطفأتُ الضوءَ وبلتُ، وحين خرجتُ لم التفتْ إلى المرآة ثانية.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

كنتُ قد فكَّرتُ بأمير الشعراء أحمد شوقي وزميليه حافظ إبراهيم وإبراهيم طوقان كثيرًا، ولكني وجدتُ أن المخاطر معهم أكبر! وفكَّرت بالشعراء: النابغة الذبياني وزهير بن أبي سلمى وعمرو بن كلثوم وعنترة العبْسيّ، فوجدتُ في الأمر حماقة أكبر؛ فقلت ليس لي سوى البحث عن شاعر حديث!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

سألتُ صاحب المكتبة عن دواوين شعر فنصحني بعدة أسماء شعرية وهو يتنقَّل من رفٍّ إلى رفٍّ ليُحضر لي طلبي. في النهاية استقرَّ قراري على شراء ثلاثة دواوين أحدها للأستاذ عليّ، وأظنُّكم ستدركون الآن كيف أصبحت حكايتي بين يديه؛ ولذلك قصَّة طريفة ستعرفونها حين يجيء وقتها!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

حملت الدواوين وسرتُ في الشَّارع، كنتُ فريسة رعب لم أعشه من قبل في حياتي - لم أكن أعرف أنَّ أيام الرُّعب الحقيقية تجلس هناك في انتظاري - كنت أحسُّ أن الشّعراء أصحاب الدواوين يتابعونني خطوة خطوة، وأنهم يعرفون كل تفاصيل الجريمة التي أفكِّر فيها؛ ولذا كان مجرد وصولي إلى البيت، واجتياز عتبته، بعد أن تأكدتُ من أن أحدًا منهم لا يتبعني، أفضل ما حدث لي.

كان عليَّ أن أبدأ مشوار البحث بين سطورها علِّي أصل إلى حلّ، وحين رأتني أمي قالت لي: سأحضر لك الشاي لتشرب، وبعدها سأدعك وحدك. وربما من الأفضل أن أغادر البيت لتأخذَ حريَّتك أكثر، ولكي لا أزعجك بصوت خطواتي بين الغرف وفي الممرّ!

أكَّدتُ لها أن وجودها لا يضايقني. فقالت لي إنها تعرف أن الصمت ضروري للكتابة، وذكَّرتني أنها كانت من عشّاق برنامج (همس الليل) ولم تزل.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

في طريقي لمكتب صاحب الإعلانات، كنت أحسُّ بأن شاعرًا واحدًا يلاحقني، وأظنكم عرفتم من هو: الأستاذ عليّ. إذ إن خياري في النهاية وقَعَ على قصيدة له، انتحلتُها من ألفها إلى يائها، بعد أن غيَّرتُ عنوانها فقط، فبدل أن

يكون (نهار جميل) أصبح (فضاء جميل) واستبدلتُ كلمة (نهار) بكلمة (فضاء) حيثما وردت في القصيدة دون أن يتغيّر الوزن أو ينكسِر!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

هزَّ صاحب مكتب الإعلانات رأسه وقال لي: «محاولة لا بأس بها»! وهنا أدركتُ أنني نجوتُ من تهمة السَّرقة، فتنفَّستُ بنصف رئتي. بعد قليل رفع رأسه وقال لي: «يلزمها بعضُ الفخامة في الكلمات»! وصمتَ قليلا ثم قال: «عليك أن تطوِّر لغتك، إذ يبدو أنها تكلَّست بسبب انشغالك بدروس المحاسبة! تلزمها حيويّة ما، أحسُّ بافتقاد القصيدة لها، لكني لا أستطيع أن أشرح الأمر لك»!

سار في المكتب جيئة وذهابًا أكثر من عشرين مرَّة، بعدها قال لي «أنت شاعر! وأظن أنني سأوصي بك خيرًا، ولكن عليك أن تعدني أن تكتب يوميًّا لكي تستردَّ لغتُك لياقتَها»! تساءلتُ بفزع: «يوميًّا»؟! فقال لي بحزم: «يوميًّا»! فعدتُ وسألته: «ولكن عن أيِّ شيء يمكن أن أكتب يوميًّا»؟! فقال لي» «عمّا تعيشه وتحسّ به. أنا أفعل ذلك كل مساء بعد انتهاء العمل، أُغلِقُ الباب وأجلس لتأمّل نفسي بهدوء، وأرى كل شيء أمامي كفيلم. أجلس وأراقبُ نفسي كما لو أنني خارج الصّورة واصفًا نفسي التي داخلها بصراحة ودون التفاف أو خداع، كما لو أنني أرسم شجرة أمامي أو بيتًا أو عصفورًا على سلك كهرباء. إذا وعدتَّني أن تفعل هذا فسأمضي في الأمر مسافة أبعد وأُلقي بكلِّ ثِقلي لكي تعمل في الصحيفة. ما رأيك»؟! هززتُ رأسي موافقًا، فقال لي: «أريد أن أسمعها منك»! فقلتُ له: «أَعِدك». ومنذ ذلك اليوم، راحت الأوراق تعلو يومًا بعد يوم، وحين لاحظتُ أن البيت قد لا يتَّسعها في النهاية، عملتُ على أن أكتب بخطٍّ أصغر، ولم أنكث بعهدي أبدًا، بل لعلِّي رأيتُ في ما أفعله تكفيرًا عن تلك الخديعة الكبرى التي قمتُ بها، حين أقنعتُه بأن تلك القصيدة لي!

الامتحان

«غدًا في السّابعة مساء أنتظركَ هنا في المكتب. ستكون الأمورُ قد اتَّضحَتْ، لكي نخطو الخطوة التالية». قال لي صاحب مكتب الإعلانات.

قبل عشر دقائق من موعدنا، كنت أتمشَّى تحت نافذة المكتب مُحدِّقًا في عقارب السّاعة، وعندما أشارت إلى السّادسة وتسع وخمسين دقيقة، تجاوزتُ عتبة المبنى القديم المكوَّن من ثلاثة أدْوار، وبدأتُ بصعود الدرج. في تمام السّابعة قرعتُ الجرس، فدعاني بصوت عال، دون أن يراني: «تفضَّل أستاذ بهجت»!

كان أول شخص يُطلِق عليَّ صفة أستاذ!

حين دخلتُ، وجدتّه يضبط عقارب ساعته وهو ينظر إلي مبتسمًا: «لم أر أحدًا من قبل يحترم مواعيده مثلك،حتى أنني ضبطتُ ساعتي، فعلًا، على لحظة قرعك للجرس. تفضّل»!

شكرته، وإن لم أكن على ثقة تمامًا بجديَّة كلامه.

«شاي أم قهوة»؟ سألني، فأدركت أن جلستنا ستطول قبل أن يقول لي ما لديه من أخبار؛ ولأنني كنت على أحرٍّ من الجمر سألت: «هل تسير الأمور بصورة جيدة مع الصحيفة»؟ فقال لي: «مستعجل؟! يا عمِّي العمر ينتهي والعمل لا ينتهي»! ولم أكن أحلم بشيء، بالطبع، أكثر من عمل لا ينتهي! طلبت شايًا مضطرًا، فقال لي: «حسنا فعلت، سنشرب القهوة فيما بعد»! ونهض ليعدَّ لي الشّاي بنفسه، لأن الموظّف الشّاب الذي يعمل لديه يكون في تلك اللحظات يتنقَّل من صحيفة إلى صحيفة حاملًا حصاد اليوم من الإعلانات.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

وكما توقَّعتُ، امتدتْ يده إلى أحد الجوارير وأخرج رزمة أوراق صفراء، سأعرف فيما بعد أنها تُستخدم من قبل المندوبين في الجريدة لكتابة أخبارهم، وهي في الحقيقة فضلات تالفة من الورق الذي تُطبع عليه الصحف، يقومون بقصِّها لتكون صالحة لأغراض أخرى، كالكتابة وتجفيف اليدين في الحمامات.

كانت القصيدة الأولى التي قرأها لي أصعب بكثير من القصائد التي سمعتُها منه في المرَّة الأولى، وكما لو أنه يقرأ أفكاري قال لي: «سأُغامر وأمضي معك إلى مسافة أبعد هذه المرَّة بعد أن اعتدتَ شِعري»! هززت رأسي موافقًا، وبدأتُ الاستماع. كان الماء قد وصلَ مرحلة الغليان، وكنتُ أسمع بوضوح صوتَ بقبقته القادم من المطبخ الصغير الملحق بالمكتب، ولكني لم أجرؤ على لفت انتباهه إلى ذلك، وسط انفعاله الواضح.

حين انتهت القصيدة قال لي: «لا بدَّ أن الماء جاهز»! وحين اختفى في المطبخ جاءني صوته: «تصوَّر! كيف لم ننتبه إلى أن الماء على وشك أن يتبخّر»؟! وسمعته يصبُّ الماء من جديد في الإبريق، وعندها خشيتُ أن يتركه على النار ويعود ليبدأ بقراءة قصيدة أخرى، ولكنه لحُسن الحظّ لم يفعل.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

بعد أن تناولنا القهوة في التاسعة والربع، قال لي: «لا بدَّ أنك متلهِّف لمعرفة قرار الجريدة بشأن عملك فيها»! وقبل أن أجيب قال لي: «غدا سيكونون في انتظارك»!

حين خرجتُ من عنده، كانت المدينة شبه خالية. أدركتُ أن حافلات النَّقل لن تنقلني في ذلك المساء لأنها تتوقَّف عن العمل في التاسعة تمامًا، وأن عليَّ البحثَ عن سيارة أجرة لأعود، في ساعةٍ يشتدُّ فيها الطَّلب على سيارات الأجرة، وأن عليَّ أن أقفَ في طابور طويل قبل أن أدسَّ جسدي داخل إحداها. لكنني للحقّ، لم أكن قلقًا لهذا السبب، بل كنتُ قلقًا من ذلك الامتحان الذي يُكْرَمُ فيه الإنسانُ أو يُهان، والذي ينتظرني في الصَّحيفة ضحى اليوم التالي.

الجريمة

كلّ محاولات الوصول إلى تحقيق صحفي كامل باءتْ بالفشل، وكادتْ تعصفُ بما حققته من منجزات، لا يمكن الاستهانة بها، لا لشيء، إلا لأنها منجزات استطعتُ من خلالها أن أُثبِّتَ قدميَّ في صحيفة على هذه الدرجة من الاحترام.

كان موضوعُ تسرُّبِ الطلاب بمثابة فاجعة، إذ صدفَ في ذلك السبت أن فاضت الإعلانات على الصحيفة بصورة غير متوقّعة، ما أدى أن يقوم المحررون آخر الليل باقتطاع نصف التّقرير تقريبًا، ولم تكن هذه هي الفضيحةُ، إذ نسوا في غمرة انشغالهم بالقصِّ واللّصق -في زمن لم يكن هنالك للكمبيوتر أيّ يد في الصحافة، باستثناء عمليات التنضيد- نسوا أن يحذفوا أسماء أولئك الذين اقتطعوا كلامهم من المقدِّمة، وبهذا كان يمكن أن تقرأ أسماءهم ولا تقرأ أقوالهم، بل إن المحررين في غمرة اندفاعهم الأهوج انتصارًا للإعلانات، وضعوا صورةَ مدير التّطوير التربويّ، الذي لم يعد له وجود في التقرير!

فضيحة! أدّت إلى أن أتحاشى المرور بمكاتب من قابلتهم لزمن طويل، ولم يكن ينقصني من مصائب أكثر من مصيبة نجاح مدير المخابرات الذي كان وزيرًا للتربية في نقْل الآنسة ليلى لكي تعمل في مكتبه الجديد.

للحقّ، فكَّرت كثيرًا في مصلحتها، كي أخفف من وقْع الخبر على نفسي، وقلت: «إنها ستكون هناك أقوى من أيِّ مديرة مكتب وزير، بل ستكون أقوى من أيِّ وزير في أيِّ وزارة أخرى»! لكنّي في داخلي كنتُ أرى أنها تنتمي لوزارة الزراعة أكثر من انتمائها لأيِّ مكان آخر: فقد كانت بطولها أقرب للسَّرو والحَوْر، وبتفتُّحِها أقرب إلى الورود، وبياضها أقرب إلى الياسمين، وبذراعيها أقرب إلى الزَّنبق في البحيرات، وبعينيها المشطوفتين بالضوء أقرب إلى السّماء التي تَعِدُ الأرض بمطر غزير، وبشفتيها أقرب إلى التّوت البريِّ والكرز الأحمر، وبرموشها أقرب إلى سنابل القمح، وبعنقها أقرب إلى القصب الذي تُصنع منه أفضلُ النّايات، وبهمسها أقرب إلى النسيم في

الحقول، وبشَعرها أقرب إلى ينابيع المياه التي تنحدر شلالات تُحيي الحياة في كل حيّ وميت، وبصدرها أقرب إلى الرَّوابي الخضراء في ربيع عفيّ وبـ ..

كان علي أن أتوقَّف هنا، لأنني أحسستُ أنني بدأت الاقتراب من المحظور، وليس من اللائق أن تقع هذه الأوراق في يدِ أحد ذات يوم، فيرى فيها حبًّا غير عُذْري كان يعصف بي، بعد أن اكتشفتْ «جميلة» ما كنتُ أحسبه سرًّا لن يصل إليه أحد!

لكن الأهم من ذلك، أنني اكتشفت قدرتي على الكتابة بعد أن رحلتُ متتبِّعًا جمال الآنسة ليلى، بل وأحسستُ، وليعذرْني الأستاذ عليّ أنني لم أكن بحاجة لقصيدته، لو كنتُ أعرف الآنسة ليلى في تلك الأيام؛ وبهذا وصلتُ إلى قناعة قد لا تُعجب الكثير من الشّعراء، وهي أن الشِّعر ينبع أولًا من الخارج ويصبُّ في داخل الشَّاعر الذي ما يلبث أن يكتبه وكأنه هو صاحبه، وفي هذا الأمر نوعٌ من سرقة الجَمال وادِّعائه للنَّفس، أي أننا كلّنا نسطو على ما ليس لنا، نسطو على بدائع خلق الله!

حين وصلتُ لهذه الفكرة، التي لو لم أدوِّنها لنسيتُها بالتأكيد، أحسستُ أن انتحالي لقصيدة (نهار جميل) ليس أكثر من استعارة شيء من النهار الجميل نفسه، لا من شاعرها. لكن هذا الرَّأي لن يصمد طويلًا بعد ذلك، حين اكتشف أن كلَّ الجرائم والأحداث المتناثرة حولي، والتي تحيط بي إحاطة السِّوار بالمعصم كما يقال، ليست كافية لأن أكتب خبرًا واحدًا أقفز به للصّفوف الأُولى في عالم الصحافة.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

رفضتُ تلك الدعوة التي وجِّهَتْ إليَّ لوداع الآنسة ليلى، لأن فكرة وداعها كانت الشيء الوحيد الذي لا يُمكن أن أقبل به؛ وهكذا تغيَّبتُ ذلك اليوم، وسأندم كثيرًا على ذلك، لأنني لن أستطيع رؤيتها سوى ثلاث مرات عن بُعد، وخطفًا.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

كانت «جميلة» قد أحسَّت بشيء غريب يندسُّ بيني وبينها في الفِراش، ويمنعنا من الوصول إلى ما كنا نصل إليه، وبدتْ المسافة شاسعة بيننا، بحيث بتُّ أعتقد أن نحلتي لم يعد لها وجود.

لكن العاصفة التي كنتُ أنتظرها أن تهبّ، لم تهب، إذا بدا لي أن جميلة تتعامل مع الموضوع وكأنه شكل من أشكال الحياة الزّوجية، وتقلّباتها، التي حينا تكون ربيعًا وحينًا صيفًا وحينًا خريفًا وحينًا شتاءً.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

تحوَّلت وزارة التربية، في غضون أيام قليلة إلى سجن وعذاب أبديّين، بعد مُغادرة الآنسة ليلى لمقرِّ عملها الجديد، ولذا، كان عليّ أن أفعل المستحيل للانتقال من وزارة التربية إلى وزارة الزراعة، منحازًا للأشجار التي تُذكِّرني بالآنسة ليلى بدل الأطفال الصغار الذين لا يذكرونني إلّا بالمزيد من المسؤوليات، لكن السيد عبد اللطيف قال لي بوضوح: «أنا لم أمدحك من قبل، ولكنّي أعترفُ أنك أفضل مندوب لنا في وزارة التربية منذ زمن طويل». وحين سمعتُ هذا المديح الذي لم أتوقّعه، أوشكتُ أن أنسى الآنسة ليلى تمامًا، وأضع نقطة في نهاية حكاية تَعَلُّقي بها، لولا أن قلبي لم يكن تمامًا في يدي، كما أن الأمور تعقدت بطريقة لم أكن أتخيلها.

كانت «جميلة» كعادتها، أوّل الفائزين، لكن فوزها الذي وصل إلى أوْجِه، لم يكن هناك من شيء يمكن أن يعصف به سوى ما أسفرت عنه رحلة الصين من نتائج ظلَّت طيَّ صدْري!

اكتشاف متأخِّر

رحلة الصِّين العظيمة، كانت الشيء الوحيد الذي يُمكن أن يساعدني في محو خطاياي التي ارتكبتها بحقِّ «جميلة»، حيث كنت سأغتنمها فرصةً لأُحضر لها من الحرير ما يجعلها أرقّ وأنعم وأكثر تأثيرًا من الآنسة ليلى وكل آنسة تحمل هذا الاسم مع احترامي الشديد لهنّ!

لكن المسافة التي فصلتْ آخر لقاء لي مع الآنسة ليلى، عن تلك المكالمة التي كان مدير نقابة الصحفيين طرفها الآخر، كانت طويلة، ولذا كان عليَّ أن أعاني. وللحقّ، لم أستطع محو صورة الآنسة ليلى من مخيلتي تمامًا، ولا تهاديها في الممرِّ (كمُهرة بيضاء من غمام!) كما قال أحد الشّعراء في وصف حبيبته ذات يوم، في ذلك الزمن الذي غدوت فيه مُغرمًا كبيرًا بالقصائد العاطفية ومُنقِّبا بارعًا عنها في بطون الكتب.

لكن صيحةَ الفرح التي أطلقتُها في مبنى الجريدة، والهاتف ملتصق بأذني، أفسدتْ كلَّ شيء، كما تعرفون. وكان عليَّ أن أنتبه إلى أن الرِّحلة طارت منّي، لأنني في ذلك المساء لم أر أيَّ أسهم ناريّة تنطلق، كما جرت العادة، كلما خطوتُ خطوةً كبيرة في مشوار حياتي.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

في ذلك اليوم المشؤوم الذي استُدعيتُ فيه إلى ذلك المبنى، قالت لي «جميلة» وقد رأتْني أرتدي ملابسي لأخرجَ مبكرًا على غير عادتي: «إلى أين»؟! فقلتُ لها: «لديَّ عمل مهم، وسأترك السَّيارة هنا، وإذا حدَثَ وأن تأخَّرتُ فلا تقلقي، وإيّاك أن تُخبري أمي؛ لا أريدها أن تنشغل بشيء أكثر من ذلك الذي يُشغِلها الآن»!

فسألتني: «وما الذي يُشْغِل بال أمِّك»؟

أجبتها: «لا شيء. ولكنَّكِ تعرفينها، دائمًا هي مشغولة بشيء ما»!

فسألتني: «وهل أتوقَّعُ أن تتأخّر لما بعد المساء»؟!

- ربما!

- أو لصباح الغد؟!

- ربما!

- أو لأسبوع؟!

- ربما!

- أو لشهر؟!

- ربما!

- أو لسنة؟!

- ربما!

- أو لا تعود أبدًا؟!

- ربما!

عند ذلك بدأتْ فصلَ بكاء طويل، وقالت: «ستذهب لتتزوَّجها إذن»!

فسألتها دهِشاً: «من تلك التي سأتزوَّجها»؟!!

فقالت: «الآنسة ليلى»!

سقطَ الاسم كصاعقة على رأسي، فسألتُها ثانية: «مَنْ»؟!

فقالت: «الآنسة ليلى التي لا تكفّ عن ترديد اسمها طَوال الليل منذ سنوات»!

فسألتُها مُستغربا: «أنا»؟!

فسألتني بقسوة: «وهل هنالك من ينام في سريري غيرك»؟!

كان عليَّ أن أصمت فقط، لأن كلّ الكلام الذي يُمكن أن أقوله سيوقعني في مصائب أكبر.

استدارت، حتى وقفتْ أمامي وسألتني: «ستتركنا؟! ستترك ابنتك وابنك وهذا الذي في بطني، وتذهب إليها، لتتزوجها»؟! وماذا ستترك لنا الكورولا الخضراء، ما الذي يمكن أن نفعله بكورولا خضراء لا تستحقُّ الماء الذي تَغسلها به»!!

كان علي أن أبتلع الإهانة التي وجِّهتْ للسيارة، لأنني أمام امرأة مجروحة. فتضاعف صمتي.

«هل أخبرها بالحقيقة أم لا»؟ سألتُ نفسي، وفي النهاية أدركتُ أن حقيقة ذهابي إلى مبنى المخابرات، ستكون بالنسبة لها، أقسى من ظنّها بأنني ذاهب للزَّواج بغيرها، وهذا ما سيتبيّن لي في ما بعد!

هززتُ رأسي، ولكني لم أعلم إن كنتُ أقصد بهذا نعم أم لا، وتوجَّهتُ إلى الباب، وقبل أن أصِلَه سمعتُها تقول هامسةً: «الله يهنِّيك معاها»!

وفي تلك اللحظة أدركتُ، أن أحدًا لم يحبني مثل «جميلة»، فخرجتُ دون أن التفتَ ورائي، وحين وصلتُ إلى الكورولا وجدتُ يدي تُرَبِّتُ على صندوقها الخلفي، كما يُربِّتُ طفل على رأس كلْبه الصَّغير الجميل. كنت أعرف أن «جميلة» تقف هناك خلف شبّاك المطبخ وتُلقي عليَّ نظرة الوداع الأخيرة، وفي داخلي كنتُ لا أتمنى شيئاً أكثر من أن أعود إليها.

الصاعقة

في الثامنة تمامًا، كان عليَّ أن أكون هناك.

ولم يكن أيّ شيء يحتِّم عليّ أن أكون في هنالك في موعدي أكثر من الخوف.

كنت في قلب الخوف إذن. كنت أعرف أن أسهل ما يمكن أن يحدث هو صدور قرار بفصلي من العمل، ولم يكن هنالك ما هو أسهل عليهم من إشهار

هذه السكين في وجهي، وغرْسِها في جسدي!

خطر لي أن أختفي، أن أذوب كفصِّ ملح، أن أدخل في حضن «جميلة» إلى ما لا نهاية، وربما أكون قد فعلتُ في الليلة السّابقة. لا أستطيع أن أتذكر. لكن النتيجة كانت مفزعة، إذ يبدو أنني اعتقدتُ أنني هناك في حضن الآنسة ليلى، وإلّا لما كانت «جميلة» حانقة إلى ذلك الحدّ الذي لم أرها عليه من قبل.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

حين رأيت مبنى المخابرات عبر شبّاك سيارة الأجرة التي أستقلُّها، تمنيتُ أن أكون في مكان آخر من هذا العالم، وحين أيقنتُ أن ذلك مستحيل، تمنَّيت أن أكون في الكرسيّ الخلفيّ من السيارة، لأكون على مسافة متر واحد على الأقل، أبعد من ذلك المبنى!

كنت أعرف أنني سأصل قبل الموعد، ولذا كان عليَّ أن أترجَّل قبل مائة متر من بوابة المبنى، وأن أعود أدْراجي للوراء، فلم يكن الوقوف أمام ذلك المبنى أو الدَّوران حوله يشبه بأيِّ حال من الأحوال الوقوفَ بباب وزارة التربية والتعليم أو الدَّوران حول سورها.

لسبب ما، كنتُ قد فكرتُ في الآنسة ليلى، وقلتُ لعلّها تُسعفني في محنة كهذه، وهكذا قمتُ برعونة لا مثيل لها بالاتصال بمقر عملها الجديد، وساعدني موقعي كصحفي يعمل في صحيفة محترمة بالحديث معها.

شرحتُ الأمر لها، ورجوتها أن تُساعدني، فقد عرفتْني سنوات طويلة، ولم أرتكب أيَّ خطأ بحقِّ وزارة التربية والتعليم، وكنتُ مثال الصحفي الأمين على أخبار الوزارة وما يدور في أروقتها.

ببساطة صارمةٍ لم أكن أتوقّعها من زنبقة، قالت لي: «أستاذ بهجت، احمد الله أنني لن أُحقِّق معك، فاهم»؟!

حين وضعتُ السمّاعة، وجدتُ أن جسدي كلّه يرتجف، وحين حاولتُ النُّهوض، اكتشفتُ أن قدميّ في مكان آخر، فجلستُ أفكِّر فيما حدث، في هذا التغيُّر الرَّهيب الذي أصابها! في النهاية، غفرتُ لها كلّ هذا. قلت: «لا بدَّ أنها فعلت ما فعلته مضطرَّة، لأن كل هواتف الدّائرة، لا بدَّ أن تكون، مُراقَبة، ولهذا، لا تستطيع أن تأخذ وتُعطي، بل وتحمي، شخصًا مُتَّهما، لم تثبُتْ، بعدُ، براءته من تُهمة هو نفسه لا يعرفها»!

بوصولي إلى هذه النتيجة، عاد قلبي لبياضه بشأنها. أمّا ما أحزنني فهو يقيني الذي حطَّ عليَّ كصخرة، فجأة، بأنني لن أراها بعد اليوم.

لكنني رأيتها!

كنتُ أهمُّ بدخول المبنى حين لمحتُها قادمة من الجهة الأخرى. لا بدَّ أن بَابًا آخر كان هناك، يستخدمه موظفو الدائرة. تراجعتُ خطوةً، في تلك اللّحظة رغم إرادتي، فدفعني مواطن آخر خلْفي مؤنِّبا، كما لو أنّني أثناء قيادتي للكورولا ضغطتُّ الفرامل بصورة فجائية: «ألا تستطيع أن ترى الذين وراءك من البشر»؟! اعتذرت له، وواصلت طريقي. وفاجأني أنني عملتُ كلّ ما لديَّ كي لا تراني الآنسة ليلى وأُحرجها بكون أحد معارفها متورطًا في مشاكل كبيرة مع الحكومة.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

كان الانتظار تعذيبًا حقيقًا، لا تعرف منه هل يعذِّبونك به لأنك خَطِرٌ أم يعذِّبونك به لأنك لا شيء، أم يفعلون الأمر للسَّببين معًا!

حين وصل صاحب الشاربين الكثَّين أخيرًا، وقد كنت على وشك السّقوط على الأرض بسبب الحرارة والرطوبة وثِقَل روائح أنفاس الذين اكتظَّتْ بهم القاعة عن آخرها. وللحظة أحسستُ أنني نجوت وأنني طليق، وأن أيَّ شيء يمكن أن يحدثَ بعد ذلك، أقلّ بكثير من ذلك الذي حَدَث وأنا مزروع كشتلة تَبْغ في ذلك الحيِّز الضَّيِّق!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

لو كنتُ مهمومًا بالبحث عن دليل أُثبت من خلاله صلة السيد عبد اللطيف بهذه الدائرة، لعدتُ فَرِحًا ذلك اليوم، بعد أن رأيته، ولكنني لم أكن أبحث، ولم تُسوِّلْ لي نفسي أن أبحث عن ذلك أبدًا، إذ ما معنى أن يدخلَ شخصٌ عارٍ مثلي ليُنقِّبَ في عش الدبابير عن قطعة حلوى؟!

قال لي بثقة وقد ضمَّنا المصعد: «ما الذي تفعله هنا»؟! فأجبتُ: «طلبوني»! وجاء السؤال الغريب، كما لو أنّ التحقيق معي قد بدأ: «وما الذي فعلته؟ ألم أُوصِك أن تكون عاقلاً»؟! فأجبتُ، كما تعرفون!: «لم أفعل شيئًا؛ وهذا ما يُطيِّر عقلي»! فعلّق: «إذا كنتَ نظيفًا فلا شيء تخشاه هنا»! وعندما سألتُه بوجل: «وأنت، ماذا تفعل هنا»؟ ابتسم وردَّ دون أن يُلملم ابتسامته: «جئت لتناول فنجان قهوة لا غير»!

فقلت في عقلي: وتريد أن تخدعني أيضًا؟!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

غادرتُ المصعد قَبْله، في حين واصل طريقه إلى الطابق السّابع، حيث رأيت الرقم (7) مضاء، فقلتُ: «لا بدَّ أن الآنسة ليلى تعمل في ذلك الطابق، ولا بد أنه ذاهب لمكتب رئيسها»! أغاظني هذا الإحساس كثيرًا، إذ لا يُعقل أن يكون

بيني وبينها مجرد طابقين لا يزيد ارتفاعهما على ثمانية أمتار ولا أتمكّن من مشاهدتها.

رحتُ أقارن، وقد نسيتُ سبب وجودي للحظات، الفرق بين المسافة بين شفتيها وأُذني هناك، والمسافة بينها وبين غرفة التحقيق وبيني هنا! وهيئ لي أن الأمتار الثمانية هذه، ليست أقْصَر ، بأيِّ حال من الأحوال، من المسافة ما بين بيتي والصِّين، وليتني لم أفكر في الصّين بهذه الطّريقة!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

للحقّ، حتى تلكَ اللحظة، كنتُ أتوقَّع أيَّ شيء، إلَّا حرماني من رحلة الصِّين. كنت أتوقَّع فرْكَةَ أُذن تذكِّرني أنهم موجودون. كما لو أنني نسيت أمرًا كهذا! أو عدة أسئلة عن زميل ما، أو حتى الطَّرد من العمل، بعد أن يقولوا لي غاضبين: كيف عملتَ في الصّحيفة دون موافقتنا؟!

لكن أيًّا من هذه التوقّعات لم يحدث! فقد انتهى الأمرُ بتلك الكارثة الكبرى، حينما قصّوا جناحيّ بطريقة حازِمة لم أعد بعدها قادرًا على التّحليق حتى في الحلم!

ولأعترف، أنني كنت سأتناسى تمامًا رحلة الصين، بل كنت مستعدًّا أن أقول أيَّ شيء بحقِّ دولة الصِّين، وأن أنعتَها بأسوأ النُّعوت، كأن أقول: «إنها دولة لا تملكُ المستقبل، وليس لها مكان في هذا العالم، وإنها أسوأ من أيّ دولة سيئة! وإن حريرها الذي يُضربُ به المثل ليس أنعم من الخيش الذي لدينا»! فقط لأنجو؛ لكنهم لم يتيحوا لي قول شيء من هذا.

جرح في رأس مَعِدة

ليست تلك محاولة للمساس بأحد، ولكن مَنْ رأيته أمامي في غرفة التحقيق، كنتُ قد رأيته من قبل! كان، في تلك اللحظة، أشبه بشخص قفز من شاشة أحد الأفلام واستقرَّ أمامي مُتجاهِلًا أنني دخلتُ غرفته.

في ما بعد تساءلت: «هل كان المحقق يُقلِّد دورًا رآه على الشاشة، أم كان يؤدي دوره الذي لا تراه الشاشة فيه إلّا على هذا النحو»؟!

لكنني كنتُ خائفًا بالتأكيد، ولعل أكثر ما يُخيفُ ويوجِع أيضًا، تلك السَّاعات التي يُمضيها المرء في الانتظار، هو ومئات سواه، إذ لا قيمةَ له ولا لعُمْره، ولا لما كان يمكن أن يُحققه في السّاعات الثّلاث البغيضة تلك.

بالنسبة لي، كان باستطاعتي أن أُنجز دورةً كاملة، فأقتنص أخبار بعض الوزارات والدوائر، وأتبادل الحديث مع موظف علاقات هنا وسكرتيرة هناك، وقد يُساعدني الحظّ في التقاط خبر مهمّ، أتطلَّع إليه من زمن طويل، أو

فكرة تحقيق صحفيّ أخرجُ منه من دورة التّقارير الصغيرة التي أنهكتني؛ التّقارير التي ما تلبث أن تُذبح آخرَ الليل على مذبح الإعلانات كما قلت.

قبل أن تخطر ببالي مسألة الصفحة الأولى خطرتْ ببالي أُمنية أن أحتلَّ صفحة بكاملها، بكتابتي لتحقيق صحفي لا يستطيع أحد الشّكَّ في أهميته. وقد حاولتُ، ولم تكن النتائج سيئة!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

أعودُ للمحقق! كنت أستطيع رؤيته بسبب وقوفي وجلوسه، بصورة كاملة، ولم يمنعْني الخوف من أن أرى صلعته الصغيرة الآخذة في الانتشار، ولو عَلِم أنني أراها بكلِّ ذلك الوضوح، لما استمرَّ في لَعِبِ دَوْر المشغول في أمور يريد أن يقول لي إنها أهمُّ منّي. ولو كنت مكانه، وأعاني من تصحُّر في الرأس لما أحنيتُ رأسي لأحد!

«ربما كان يرى في عمله أهمية تفوق أهمية مظهره»! هكذا فكَّرتُ، لكنّي لم أستطع الجزم في أمرٍ إنسانيٍّ كهذا.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

بعد مرور أكثر من عشر دقائق، بتُّ على يقين من أنّه سيتركني أنتظر إلى نهاية الدوام واقفًا أمامه كما لو أنني لم أكن هناك.

وليتَ فكرة سوداء كهذه لم تخطر ببالي، إذ، وهذا ما لم أقلْه للأستاذ عليّ، واصل المحقِّق العَمل حتى الثانية عشرة، أي لمدة ساعة كاملة منذ لحظة دخولي، ثم اعتدلَ ماسحًا أرجاء الغرفة بعينين ميتتين، بحيث كنتُ أحسُّ فعلًا بلمسة نظرته الباردة الخاطفة لجسدي؛ وبعد لحظات تحرَّكت يده إلى كبسة جرس كهربائي، فسمعتُ الجرس في الممرّ، وما هي إلا لحظات حتى دخل الرّجل ذو الشَّاربين الكثَّين، وقال شبه صارخ: «أمركَ سيدي»!

فقال له المحقّق ببرود: «فنجان قهوة يا فالح»!

«حاضر سيدي». وخرج.

بعد خمس دقائق عاد الرَّجل حامِلًا فنجان القهوة وكأس ماء، وحينما رأيتُ الماء أدركتُ كم هو جافٌّ فمي، ولعلّ المحقّق أدرك ذلك، بحُكم خبرته، إذ راح يشرب الماء باستمتاع، وبسبب الصَّمت المُطْبِق على المكان، الصمت الكثيف في المكتب، كنتُ أسمع الماء يجري في بلعومه ويصبُّ في معدته كشلّال صغير.

قلت: «لا بدّ أن القهوة مهمَّة للمحققين، كما هي مهمة للكتَّاب حين يضيفون لها التدخين»! رغم أن الأستاذ عليّ قال لي، بعد ذلك بزمن طويل، إنه لا

يدخِّن. وهذه مسألة غريبة جعلتْني على وشك إعادة النَّظر في أهمية كتاباته! كما أنه لا يشربُ القهوة لا حين يكتُب ولا حين يقرأ! وهذا أمرٌ غريب فعلًا!

بعد أن اكتفى من الماء، امتدَّتْ يده إلى فنجان القهوة، تشمَّمه في البداية باستغراق، ولم يكن عليه أن يُقرِّبه من أنفه إلى ذلك الحدِّ، فرائحة القهوة كانت تملأ الغرفة بعبَقها القويّ.

عاد ومسح الغرفة بنظرةٍ واسعةٍ، أحسستُ بها تلمسُ جسدي وتخزُّني ما بين أعلى العُنق والصرَّة، مُحدِثَةً جُرحًا قطعيًّا في رأس المعِدة تمامًا.

أي إنسان كان يمكن أن يقف في ذلك الموقف، كان سيظنُّ أن التّحقيق معه سيبدأ بعد لحظات، ما دام قد أحسَّ بعمق ذلك الجُرح في رأس معدته، لكن ذلك لم يحدُث؛ وللحظة، فكَّرت أنني غير مرئي.

عاد لأوراقه، يعمل بنشاط غريب، كما لو أنه سيّارة تزوَّدت بالبنزين، بعد توقُّفها بسبب نفاده.

فتحتُ فمي عندها وقلتُ: «أنا بهجت حبيب»!

رفعَ رأسه وكأنّه سمِع ناموسةً تئزُّ قربَ أُذنه، تلفَّتَ حوله، وعاد إلى ما في يده.

هل كان يعرف أنه يُمسكني من يدي التي تُوجعني، بسلوكه هذا؟ هل رفع أحدهم تقريرًا حول طريقتي في تقديم نفسي مرَّة بعد أخرى، لأن الناس تنسى وتنسى؟!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

قبل أن تُعلن ساعة الحائط، التي وُضِعتْ بأناقة على الجانب الأيسر لمكتبه، الثانية ظهرًا، سمعتُ كرسيَّه ذا العجلات يُصدِر صوتًا، ورأيته يعتدلُ ويشْبكُ أصابعَه خلْف صلْعته الصغيرة، التي أحسستها في لحظات متفرِّقة، كلما شرد ذهني، أنها شاسعة كصحراء، وأنني أتخبَّط فيها دون جدوى باحثًا عن قطعة ظلٍّ أو جرعة ماء.

بعد قليل عاد وألقى نظرة، أحسستُها، هذه المرَّة، تمرُّ ملامِسةً كلَّ شيء، سوايَ.

امتدَّت يده للجرسِ ثانية، فحضرَ الرَّجل ذو الشّاربين الكثَّين صائحًا: «حاضر سيدي»! وعند ذلك قال له المحقق، تلك الجملة التي لن أنساها، وهو يرتدي سُترة بزَّته ويغادر: «فالِح. نَظِّف المكتَب»!!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

لا بدّ أن اسم الآنسة ليلى لم يعد يتكرَّر على لساني في السَّرير بعد أن رأيت ما رأيت، وبعد أن أدركتُ أن الطابقين اللذين فصلاني عنها، أكثر ارتفاعًا من بُرج «إيفل»!

وليت الأمور انتهت عند هذا الحدّ!!

التعامل مع العدوّ!!

قد يتساءل البعض: «وما الذي يجمعكَ بالأستاذ عليّ غير سطوك على قصيدته»؟ وسأقول: «إنني كنت أتطلَّع لليوم الذي سأتعرف إليه فيه .. وأعترف»!

في البداية حاولتُ تقصِّي أخباره ومتابعة الملاحق الثقافيّة لكي أرى صورته، وقد حدثَ ذلك بعد شهر قاس، كنت أظنُّ خلاله، أن عدم تثبيتي في الصحيفة بعد ثلاثة أشهر إن حدث، سيكون بسبب جريمة السَّطو تلك، وحين رأيته وتحدَّثت معه عن قرب، تبيَّن لي أنني بالغتُ كثيرًا!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

كانت مشاهدةُ أحد موظّفي صحيفتنا في مبنى أيِّ صحيفة مُنافِسَة، لا يعني سوى شيء واحد (التَّعامل مع العدو!) وقد كان للزميل الذي رافقني في جولتي الأولى الفضْل في لفْت انتباهي إلى هذه المسألة الحسّاسة.

وهكذا، بدأت أتحيّن فرصةً تجمعني بالأستاذ عليّ خارج الصّحيفة التي يعمل فيها، ورغم أنها كانت صحيفة لا يصلُ مستواها إلى نصف مستوى صحيفتنا! وليعذرْني على هذا الكلام، إلا أنّ دخولها كان يحمل معاني رهيبة، كأن تَضبط امرأةٌ جميلةٌ وغنيَّةٌ ومثقَّفة زوجَها يتحرَّش بجارةٍ لا تمتُّ للجمال بصلة، وأكبر منها بعشرِ سنوات على الأقل!!

جاءت الفرصة بهدوء، حين لمحتُ الأستاذ عليّ ذات يوم يمرُّ من أمام مكتبنا في طريقه إلى مكتب المحرر الثّقافي، وعند ذلك انتفضَ قلبي وبدأ العرق يتفصّد من كلِّ خليَّة حيَّة أو شبه حيَّة في جسدي.

كما لو أنني شُللت، جلستُ أحدِّق في الفراغ غير قادر على التّفكير بخطوتي القادمة. لكن أمرًا كهذا، كان لا يمكن أن يستمرَّ إلى الأبد، فاستجمعتُ ما بقي من شجاعة فيَّ، وتوجَّهتُ إلى مكتب المحرّر الثّقافي بعد ربع ساعة؛ وقبل أن أصِل، سمعتُ حديثهما الذي لم ألتقط منه سوى كلمات قليلة.

هتفَ المحرر الثقافي حين رآني بالباب، وقد كان، للحقّ، مختلفًا عن بقيَّة مَن يعملون في الصحيفة: «أستاذ بهجت، تفضَّل». وحين تفضَّلتُ، عرَّفني إلى الأستاذ عليّ، فقلتُ له بأنني أعرفه وإنني من معجبيه! فَسُرَّ الاثنان، وقد كنتُ حقًا قد أصبحتُ من معجبيه، ربما لأكَفِّر عن خطيئة السَّطو عليه لا أكثر!

سألني الأستاذ عليّ عن الكُتب التي قرأتها له، فذكرتُ له أسماء أربعة دواوين وثلاث روايات، كنت اشتريتها فعلا، وأخبرته أنني الآن أقرأ رواية عنوانها (عَوْ)، فقال لي إنه لم يقرأها بعد، فتجرّأت وأخبرته أنها رواية مفزعة! لأن البطل يوشك فيها أن يقتل ابنه، خيالًا، ليتحرر من سطوة ذلك المبنى أثناء التحقيق معه، وقلتُ له بلباقة: «إنني أنتظر روايته الجديدة التي قرأتُ فصْلا منها على صفحات الملحق الثّقافي قبل أسبوع؛ فأكَّد لي أنها ستصدر قريبًا، وأنه ينتظر رأيي فيها!

شكرته كثيرًا وقد بدأ ارتباكي يُفارقني شيئًا فشيئًا، لكنّه لا بدَّ لاحظ، كما لاحظ زميلي المُحرر الثّقافي أنني مسحتُ وجهي وعنقي أكثرَ من عشر مرات خلال دقيقتين.

امتدَّتْ يد المحرِّر إلى الهاتف وتناولتْه وهو يسألني: «قهوة أم شاي أم زعتر»؟

فشكرته، وأنا أقولُ له: «لا أريد أن أقطع حديثكما»! واستأذنتُ منهما وخرجتُ.

ودَّعني الأستاذ عليّ بأن وقف وصافحني بمودَّة، قائلًا لي «فرصة سعيدة، أتمنّى أن أراك قريبًا»! وقد أحسستُ بأنّه يقصدها فعلًا.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

قبل مغادرة الجريدة، كنتُ قد قررتُ عدم إضاعة فرصة لقائه والحديث معه على انفراد، وهكذا أنجزتُ أخباري بسرعة، وخرجتُ أنتظره أمام الباب الخارجي.

لم يطل مكوثه في الداخل، فبعد أقلّ من عشر دقائق سمعتُ صوتَ خطوات خلْفي، التفتُّ، فرأيته يتقدَّم نحوي، فاصطنعتُ المفاجأة! وقبل أن أنطقَ بأي كلمة قال لي: «أستاذ بهجت! أهلا وسهلا مرّة أخرى»! وسألني: «لا بد أنك أنهيتَ عملك»؟ فقلت له: «وأنا في طريقِي إلى البيت الآن»! سألني عن

مكان سكني، فأخبرته، وعندها قال لي: «أنت في طريقي إذن، إن لم يكن لديك مانع أن ترافقني، فيسرّني ذلك»! بفرح قلت له، وقد أدركتُ أن الفرصة قد حانت لإراحة ضميري: «بل يُسعدني هذا»!

حين توجَّهنا إلى البوابة، وقفتُ أمام الرَّصيف كعادتي أنتظر الحافلة. «لماذا توقَّفتَ هنا»؟! سألني، فسألته بدوْري: «ألَن نستقلَّ الحافلة»؟! قال: « سيارتي متوقِّفة هناك». وأشار إلى سيارة هوندا صغيرة فضيَّة اللون تقف بمحاذاة الرَّصيف.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

دون أيِّ مقدِّمات، قلتُ له بعد خمس دقائق صمت من انطلاق السيارة: «أريد أن أعترف لك بشيء يُعذِّبني». التفتَ إليَّ باهتمام وقال: «وأنا مصغ إليك»!

حدَّثته عن كل ما حصلَ معي بالتّفصيل، وصولًا إلى قصيدته التي لولاها، لما استطعت إقناع مدير مكتب الإعلانات بالتَّوسط لي للعمل في الصحيفة.

وعندها ضحكَ من قلبه وقال: «ها إحدى قصائدي تثبتُ أنها نافعة فعلًا لغيري»! وواصل ضحكه، فقلتُ له: «لا أظنُّ أنّ شيئًا كهذا قد حدثَ معك من قبل»!

- لا عليك، المهم أنّ القصائد أثبتتْ مفعولها في مجال لا يتخيَّله النّقاد، وبخاصة في حالة كحالتك؟!

- لستَ غاضبًا منّي إذن؟!

- أبدًا، وليتكَ تستطيع استخدام قصيدة أخرى لتحقيق نجاح آخر! وعندها اعترفت له بأنني قد أكون حرمتُ آخرين من الإفادة من ذلك الديوان الذي يضم القصيدة! فسألني: «كيف»؟! فقلت له: «إنني خشيتُ أن يقعَ في يد مدير مكتب الإعلانات ذات يوم مُصادفة، ولذا ذهبتُ صباح اليوم التالي، تحت وطأة ذلك الخوف، واشتريتُ كلَّ النسخ الموجودة في مكتبات العاصمة، ولفترة بقيتُ أمرُّ وأسأل عن هذا الديوان بعينه، ولا أستريح إلّا إذا سمعتُ صاحب المكتبة يقول لي: «لقد نفد»!

عاد الأستاذ عليّ إلى إطلاق ضحكاته من جديد، وهيئ لي أنه لم يعد قادرًا على لجم انطلاقها. حين التقطَ أنفاسه سألني: «إذن أنتَ السبب في نفاد الدّيوان من الأسواق؟! أنتَ السَّبب»!!

مسح دموعَ فرحه، وابتسم من جديد وهو يقول لي: «ولكن عليك أن تكون حذرًا في استخدام قصائدي لأغراض أخرى فكما يُقال (مش كلْ مرَّة بتسْلَم الجرَّة)»!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

لعلكم انتبهتم إلى أن هذا اللقاء بالأستاذ عليّ لن يكون الأخير، الأستاذ عليّ الذي سيتكرر اسمه سِرًّا فيما بعد، حين بدأ الحديث يدور عن عزم السيد عبد اللطيف الزواج من فتاة وزارة الإسكان!!

حَيرة الرجل الخفيّ!

استدعائي إلى ذلك المبنى كان أمرًا لم أستطع فهْمه: «ما الذي يريدونه منّي، ما داموا لم يتحدَّثوا معي في أيِّ شيء؟ ما الذي يريدونه منّي وقد تعاملوا معي على أنني غير موجود لا أمامهم، ولا في هذا العالم»؟!

حاولتُ أثناء خروجي معرفة شيء من الرجل ذي الشّاربين الكثّين، فتصرَّف معي كما لو أنه لا يسمعني، كما لو أنه لا يراني؛ فقط، سار أمامي إلى أن وصلنا المصعد، وفيه، حمدتُ الله كثيرًا عندما رأيتُ صورتي في المرآة، كانت الدَّليل الوحيد الذي يُثبتُ وجودي، فأحسستُ أن المرآة لم تُخلَق إلّا لمثل هذه اللحظات، وأن كلَّ استخدام لها خارج أمْر كهذا، هو استخدام ثانويّ لا قيمة له.

فُتِحَ البابُ، فسبقني رجل الشاربين الكثين، ووجدتُ نفسي داخل غرفة الانتظار التي كانت شبه خالية، قلتُ: «هل سيتركونني هنا حتى يوم غد»؟! وكم أفزعني هذا. لكنَّ الرّجل انعطف نحو الباب الخارجي، وواصل مسيره حتى وطأتْ قدماه الرَّصيف؛ رفع سبابته وأشار إلى نقطة لا يراها أحد سواه، وكأنه يقول لي: إلى جهنم!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

كان يجب أن تمرَّ نصف ساعة على الأقلّ، لأُعيد ترتيب ما حدث من جديد! ونصف ساعة أخرى قبل أن أجرؤ على رفع يدي لأشير لسيارة طالبًا منها التوقُّف!

لاحظتُ أن السيارات الخمس التي أشرتُ إليها لم تتوقّف، ظلَّت تسير على الرّغم من وجود مقاعد خالية فيها! حتى سيارة التّاكسي التي أشرتُ إليها وكانت فارغة تمامًا، لم تتوقَّف أيضًا، وقد ظلَّ الأمر على حاله، إلى أن وقفتْ امرأةٌ بجانبي، كنتُ رأيتها تخرج من البوابة التي خرجتُ منها وتتّجه نحوي، وما كادتْ تصلني وتشير بيدها، حتى توقَّفت سيارةٌ وأقلَّتْنا.

في الطريق مددتُ يدي إلى جيبي باحثًا عن النقود وعندما أخرجتُها، أحسستُ بأن السَّائق غير مهتم بأخذ الأجرة منّي، فقد تناولها برقَّة وتهذيب من المرأة التي إلى جانبي، ما أدى إلى أن أنخزه في كتفه ليأخذ النقود. التفتَ حيثُ نخزتُهُ، ورأى القطعة النقديّة الورقيَّة التي في يدي، فأشاح بوجهه بعيدًا! وقد كان ذلك يعني دائمًا، أنه مستاء من الرَّاكب الذي لا يُقدِّم له قِطَعًا معدنيَّة.

ما أدهشني، أنه لم يعد ليطالبني بالمال مرَّة أخرى، وهذا جعلني أكثر يقينًا بأنني غير مرئي. أعرف أن القطعة النقديّة كانت كبيرةً فعلا، ولكنّي لا أعرف لماذا دفعتُها باتِّجاهه في تلك الظهيرة اللّاهبة، وفي جيبي نقود معدنيَّة تكفي.

حين وصلنا المحطة الأخيرة، في وسط المدينة، ترجَّلتِ المرأةُ وترجَّلتُ خلْفها، وقد أتاح لي وجودي واقفًا أن أُخرِجَ بعض قطع النقود المعدنيّة وأمدُّ يدي بها إلى السّائق. ما فاجأني في تلك اللحظة، أنه لم يمدَّ يده ليأخذها، كان ينظر عَبْري إلى شيء ما بعيد بغضب. وضعتُ ما في يدي من نقود فوق الكرسيّ الأماميّ بجانبه، بعد أن حشرتُ رُبْع جسدي على الأقل في نافذة عربته. سحبتُ رأسي وكتفي ويدي بهدوء، ووقفتُ أنتظرُ أن يقول شيئًا ما. لم يقل. أدار رأسه نحو الأمام وحرَّك السَّيارة لتأخذ مكانها خلفَ السيّارة التي تحرّكتْ أمامه في طابور السّيارات الطويل.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

سائق سيّارة الأجرة الأخرى التي ركبتُها، تناول النقود ممن في الخلْف بلا اكتراث، ولا أظن أنه كان متأكِّدا مما إذا كنّا اثنين أو ثلاثة في المقعد الخلْفي.

وتأكَّد لي الأمر أكثر حين وصلتُ البيت، فما إن عبرتُ العتبة، حتى رأيتُ «جميلة» تذهب بنظرها بعيدًا! وظلَّت تتصرَّف على ذلك النّحو، ذاهبة عائدة، من أمامي، كما لو أنني لستُ هناك. وحين جلستْ في مكانها المعتاد أمام التلفزيون، إلى جانبي، راحت تُقلِّب القنوات الفضائية كما لو أنها وحدها في تلك الغرفة!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

ظهور (فريد)، لم يُغيِّر شيئًا، إذ رأيته يركض نحو أمِّه ويخبئ وجهه في صدرها فَزِعًا، كما لو أنه قد لمح شبحًا لا يريد التَّحديق فيه؛ وظلَّ الأمر على هذا النّحو إلى أن ظهرتْ ابنتي التي نقَّلتْ نظراتها بفزع أيضًا بين وجه أمِّها والكرسيّ الذي أجلس فيه، وفجأة، طفرتْ دمعتها وسالتْ ببطء على خدِّها، وقبل أن تسقط الدمعة على الأرض ارتمتْ في حضني تنشج بألم ما كنت أتخيّل أن صغيرة رائعة مثلها يمكن أن تحتمله، وعند ذلك فقط أحسست أنني عدتُ مرئيًّا من جديد.

تفاصيل اليوم الرابع

تحوّلي إلى رجل خفيّ ، لا يراه سوى كائن واحد: ابنته، وشخص آخر كما سيتبين لكم، ما لبث أن انتقل إلى الصَّحيفة، فما إن سألني السيد عبد اللطيف بصوت عال عمّا حدثَ معي في مبنى المخابرات، حتى رأيتُ الوجوه

تستدير فجأة نحوي وترمقني بنظرة خُيِّل إليَّ أنها ستكون الأخيرة، وهذا ما كان. ولعلَّ إجابتي ضاعفتْ من أمر اختفائي فيما بعد، حين أجبت: «لا شيء»!

استدارت الرؤوس إلى حيث كانت قبل ثوان، وانهمكَ الصّحفيون بما في يديهم من أخبار، وهبَّ صمتٌ غريبٌ لم يكن يقطعه سوى صرير رؤوس الأقلام فوق الصفحات الصَّفراء؛ صمتٌ لن أسمع ما يشبهه سوى في تلك الليلة العاصفة في مكتب مدير السجن!

رحتُ أفكِّر في ما قد تعنيه إجابتي التي أطلقتُها بصوت عال، كما لو أنّ سؤالًا كذاك، من غير اللائق أن أُجيب عليه بنبرة أخفض.

خرجتُ وعدتُ، وخرجتُ وعدتُ، وخرجتُ وعدتُ.

ثلاثة أيام متواصِلة، لم يكلِّمني أحد، باستثناء السيد عبد اللطيف الذي كان يلتقطُ الأوراق مني دون أن يحدِّق في وجهي، وبهذا كان يُخفف من ضياعي الشَّديد في كلِّ مكانٍ أكون فيه، ولأني أستخدم الكورولا الخضراء في ذهابي وإيابي، لم أعُد متأكِّدا مما إذا كان سائقو سيارات الأجرة يرونني أم لا. أما زميلتي ذات المؤخِّرة العظيمة، فلم أر مؤخرتها وأُمعن التّحديق فيها أكثر من تلك الأيام، لأنّها كلّما رأتْني استدارت إلى الجهة الأخرى، وفي النهاية، وضعتْ كرسيَّها أمام الطاولة، لا خلْفها، كي لا تراني أبدًا!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

في اليوم الرابع سمعتُ جرس الهاتف يرنُّ فوق مكتب السيد عبد اللطيف، وقبل أن يرفعه، أدركتُ أنّني المعنيُّ بتلك المكالمة دون كلِّ أولئك الموجودين في الجريدة.

رفع السيد عبد اللطيف يده، وأنصتَ للمُتحدِّث على الطَّرف الآخر، ثم أشار بالسمّاعة لي أن أُجيب على المكالمة.

وكما توقَّعتُ، كان ذلك الصَّوت الذي لا أنساه ينتظرني على الطَّرف الآخر: «غدًا في الثامنة، ولا تنس أن تحضر جواز سفرك معك»! وأقفل السمّاعة قبل أن أُجيب، وكم سرَّني أنّني وجدتُ في النهاية شخصًا، ما، يراني، ولو عَبْر الهاتف ويتكلّم معي.

لكن ما إن غادرت الجريدة حتى انتابني هلع شديد: «ما الذي يريدون فعله بجواز سفري»؟!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

كل ما حدث في المرَّة السَّابقة حدث في المرَّة التالية، حتى أنني رأيتُ الآنسةِ ليلى تصعدُ الدَّرجات مُرتدية الملابس نفسها، فالتفتُّ إلى نفسي

محاولَا أن أعرف، إذا ما كنتُ ألبس الملابس نفسها التي كنت أرتديها قبل أيام، وكم أفزعني أنها هي.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

بعد ثلاث ساعات؛ في الحادية عشرة تمامًا، ظهر الرَّجل ذو الشاربين الكثين، فأدركتُ أنّ عليَّ أن أقفَ، خشية ألّا يستطيع مشاهدتي وقد بتُّ شبه متأكّد من أنني شخص خفيّ. قبل أن أصِلَه استدار عائدًا، ما يعني أن علي أنْ أتبعه، فتبعته.

حين وصلنا المصعد، وجدت نفسي، ويا للهول، وجها لوجه مع السيد عبد اللطيف، وهذا ما أفزعني أكثر. سألني: «ما الذي تفعله هنا»؟! فأجبتُ: «طلبوني»! وجاء السؤال الغريب، كما لو أنّ التّحقيق معي قد بدأ: «وما الذي فعلته؟ ألم أُوصِك أن تكون عاقلاً»؟! فأجبت: «لم أفعل شيئًا؛ وهذا ما يطيِّر عقلي»! فعلّق عبد اللطيف: «إذا كنت نظيفًا فلا شيء تخشاه هنا»! وعندها سألته بوجل، رغم أنني أعرف الإجابة: «وأنت، ماذا تفعل هنا»؟ فابتسم وردّ دون أن يُلملم ابتسامته: «جئت لتناول فنجان قهوة لا غير»!

خرجت من المصعد اتلفّت خلْفي كما لو أن هنالك شبحًا يلاحقني.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

كان المحقِّق يضع قدميه فوق الطاولة، ويعقد أصابعه خلف رأسه حين دخلتُ، لكنّه بدا وكأنه لا يراني. وقفتُ أمام نعليه الموجَّهين إلى وجهي وعينيه الموجَّهتين إلى مكان آخر.

بعد صمت طويل قال لي: «أنتَ هنا؟! لم أنتبه! هل أحضرت جواز سفرك»؟ أشرت برأسي أنْ نعم، فقال لي: «ضعه هنا» استدرتُ ووضعته على الطاولة ليتمكن من التقاطه بيده، وعدتُ إلى حيث كنت، فامتدت يده وتناولته، تصفّحه، ثم قال لي: «أنت لم تستخدمه أبدًا»! وأضاف: «ولن تستخدمه» ووضعه في دُرْج مكتبه.

عاد ليحدق بي من جديد، وحذاؤه أيضًا، ثم سألني ذلك السؤال الغريب: «هل وجدتم اللصّ الذي سرقَ ملابس أسرتكَ عن حبل الغسيل قبل ثلاثة أشهر»؟!

كنتُ قد نسيتُ الأمر تمامًا، بعد عذاب طويل، لأن اللصَّ لم يكتف بملابسي بل أخذ أيضًا بعض الملابس الحميمة العائدة لجميلة.

أجبت:»لا، لم نجده سيدي»!

- هذا لأنك لا تثق بنا، لو كنتَ تثق بنا لأخبرتَ الشُّرطة، لكنّك لا تثق بنا!!

- وكيف عرفتُم بالأمر؟ سألته بغباء شديد.

فعاد لصمته من جديد وهو يرمقني بنظرة فهمتُ منها أنه يخبرني أن لا شيء يَخفى عليه. وبعد أن أدرك أنني فهمتُ رسالته، سألني:» أما زلتم تنشرون غسيلكم على الحبل نفسه»؟! فلم أجد كلمة سوى: «نعم»! وقد أدركتُ أنه،لا بدَّ، يعرف كلَّ شيء عن الحبل!

عندها صرخ في وجهي: «هذا يعني أنك مثل كثيرين غيرك لا تتعلَّم من التّجربة»!

كان عليَّ أن أصمتَ أكثر، وألّا أقول أيَّ شيء بعد ذلك.

تحرَّكت يده باتجاه كبسة جرس ما، فسمعتُ الجرس يرنّ، ورأيتُ الرجل الذي أوصلني يُطلُّ من جديد، وسمعته يأمره: «نظِّف المكتب»! نظرتُ، علّي أرى فنجان قهوة أو كوب شاي أو ماء على مكتبه، لم أر؛ وعندما لم أتحرك، لكزني الرَّجل الذي راح يخور غضبًا خلْفي، فوجدتُ نفسي أتبعه إلى أن أوصلني إلى تلك القاعة.

كنت أعتقد أنه سيوصلني إلى الباب، لكنه أمسكني من كتفي وقد رآني أتجه إلى الخارج، وأشار إلى أحد الكراسي الفارغة، ففهمتُ أنَّ عليَّ أن أنتظر.

رحت أفكِّر في مضمون رسالته التي يريدُ أن يوصلها إليّ، وبعد لحظات أدركتُ أن الأمر أوضح من أن يحتاج لأيِّ تفكير.

في الثانية وخمس دقائق سمعتُ اسمي في سمّاعة غير مرئية يتردّد، وأمرًا واضحًا يصدر، بأن عليَّ المراجعة في صبيحة اليوم التالي.

رأيت كثيرين يخرجون متوجِّهين إلى البوابة، فنهضتُ وسرتُ معهم.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

في الطريق، أحسستُ أن الواجب يقضي بأن أمرَّ بالجريدة، وكم فوجئوا حين أبصروني أمامهم ثانية، كما لو أنني رجلٌ محكوم عليه بالإعدام ينهض ثانية بعد تنفيذ الحكم! أو رجل ميت أهالوا عليه التّراب بأيديهم، وما إن عادوا إلى البيت، حتى وجدوه في انتظارهم هناك!

- هل حدث معك شيء؟! سألني السيد عبد اللطيف. فأجبت: «لا». واكتفى بإجابتي، كما اكتفى الزّملاء الذين عادوا لما بين أيديهم من أخبار، في حين سحبتْ زميلتي ذات المؤخرة العظيمة كرسيّها من خلف الطاولة إلى أمامها، فصدر عن احتكاكه ببلاط القاعة صريرٌ لا يُحتمل.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

ما تبقّى من هذه القضية قليل، وخطير أيضًا!! إذا ما استثنينا ما كتبه الأستاذ عليّ في القسم المتعلِّق به عن مسألة المِلف.

ضربة ثانية تحت الحزام!

لاحظتُ، كما لاحظ غيري، أن السيد عبد اللطيف بدأ يتغيّر، وأن ملامح رقَّة ما، قد بدأتْ تظهر عليه، وبدا أكثر انشراحا وهو يُحدِّث زميلتنا ذات المؤخرة العظيمة في أمور لم يكن يتحدَّث فيها من قبل؛ في الوقت الذي أحسسنا فيه أنها تُدرك بغريزتها الأنثوية شيئًا لا نُدركه، وقد باتت على يقين بأنّها على وشك أن تفقده إلى الأبد.

في تلك الأيام بالذات، تحرَّكتْ بسرعة، وضربتْ ضربتَها الكبيرة لي، تحت الحزام مباشرة، حين دخلت مكتب السيد رئيس التّحرير باكية، للمرة الثانية! مُدَّعية أنني عدتُ للتحرُّش بها من جديد!

لكنني، وكالمرَّة الأولى، خرجتُ من المعركة بلا إصابات تُذْكَر؛ ولم أتمكَّن من فهم سبب إلصاقها تهمة بهذا الحجم بي، إلا بعد زواج السيد عبد اللطيف من فتاة وزارة الإسكان بِستة أشهر، إذ أقبلَتْ نحوي واعترفتْ لي بلا مقدمات، بحيث بدا الأمر مُربكًا لي فعلًا، لأنّني لم أفهم مما قالته شيئًا في البداية: «حين دخلتُ مكتب رئيس التحرير في ذلك اليوم، كنت أريدُ أن أقولَ له إن عبد اللطيف هو الذي يتحرَّش بي، ولكن، وفي الثانية الأخيرة قفزَ اسمكَ على لساني فنطقتُهُ! وحين سمعتُه بأذنيَّ، لم أتراجع وأوصلتُ الأمر إلى آخره»!!

أحسستُ بأنّني غفرتُ لها، وقد خفتُ عليها فجأة، إذ بدا لي أنها لم تقل ما قالته، إلا لأنّها تشعر في داخلها بأنها ستموت! ولكنني سألتها: «ولكن لماذا»؟! فاعترفتْ لي، وهذا ما أقلقني عليها أكثر: « كنت مقهورة لأنّني أضعتُ عبد اللطيف، إذ لم أكن أتصوَّر أنه سيقفز من عامل كافيتيريا إلى رئيس قسم بين ليلة وضحاها، وحين رأيته يزوم أمامي، كطاووس، فرِحًا بتلك الفتاة التي ألقى بها الشَّاعر! جننتُ. على الأقلّ أنا هنا من سنوات أمامه، ولم يُلْقِ بي أحدٌ ليكون مضطرًّا للانحناء لالتقاطي عن الأرض! أليس كذلك»؟!

أدركتُ أن جُرحَها أعمق من قدرة كلماتي على إغلاقه! ولكنّي قلت لها بصوت منخفض: «لا تندمي على ما حصل، أنتَ تستحقين من هو أفضل منه»!

فسألتني باستغراب:»صحيح»؟! فأجبت: « وألف صحيح»! فسألتني: «ولماذا لم تلتفتْ إليَّ أنتَ إذن، لماذا لم تحبّني»؟! فقلت لها: «هل نسيت بأنّني متزوِّج»؟! فقالت لي: «لا، لم تكن! هل نسيت»؟! فشرحت لها: «حين وصلتُ الجريدة كنت أحبُّ زوجتي التي لم تكن بعد قد أصبحت زوجتي»! فردّت: «ولوْ، فقد كانت فتاة الإسكان مُستعدَّة لدخول بيت ذلك الشاعر ولو على

على ضُرة! وأنا لستُ أفضل منها، وقد كان يمكن أن أدخل حياتك مع وجود حبيبة، بل كان من السهل عليَّ حينها أن أجعلك تنساها»! فلم أجد عبارة أختتم بها هذا الحديث الصّعب سوى أن أقول لها: «ستجدين من هو أفضل منّا مجتمعَين»! فسألتني: «صحيح»؟! فقلت لها: «وألف صحيح»! وعند ذلك دخلنا دورة هذا الكلام التي كان عليها أن تختتمها كلَّ مرّة بسؤالها: «صحيح»؟! وكان عليَّ أن أجيبها «وألف صحيح»! حتى اهترأ لساني.

لكن يأسها، للأسف، أثبتَ أنّه الأدقّ، إذ فاتها ما هو أكثر من القطار، بعد أن حدث لها، بعد ذلك، ما حدث، بعد أن ثبت أن فكرة موتها التي خطرتْ لي، لم تأت من فراغ!

سرّ وطنيّ

كان القدر، كما أحسستُ، يتربّص بزميلتي ذات ... ...؛ وفي تلك الأيام السّوداء، يمكنني القول: «إنها جرَّبتني»! أعني: «جرَّبتني في المحنة، ووجدتْني إلى جانبها كما لم تجد أيَّ زميل آخر»! فحين حدثَ وأن اصطدمتْ سيارتها بحافلة للنقل العام، وخرجتْ عن مسارها لترتطم بعمود إنارة على طرف الشّارع، تمزَّق جسدُها تمامًا، وأصابتها كسور كان عليها أن تنتظر خمسة أشهر كاملة لتراها تشفى، وهكذا وجدتْ نفسها طريحة الفِراش كما يقال.

في البداية زُرتها مع الزُّملاء، وفي اليوم التالي أتت أُمّي معي؛ ويمكنني القول إن كلّ واحدة منهما استلطفتِ الأخرى، بل أحبّتها، وقد سرَّني أن أمّي تعاملت معها كزميلة لها! حين راحت تسألها عن أفضل طريقة لجمْع الأخبار، والإفادة منها إلى أقصى حدٍّ، وكيف تُفرِّق بين الخبر الجيد والخبر العادي؟! بل تبسَّطتْ أمّي معها أكثر مما يجب حين أوضحتْ لها: «أسألك كلَّ هذه الأسئلة، لأن بهجت يتعامل مع المهنة كسرٍّ وطنيّ، ولا يبوح لي بشيء رغم أنني حاولتُ معه بما فيه الكفاية»!

ضحكتْ زميلتي، لكن أَلَما ما جرَّحها في مكان ما من جسمها، فلملمتْ ضحكتَها.

حين خرجنا، قلت لأمي: «ولكنَّك لم تسأليني أبدًا عن الأخبار وطريقة الوصول إليها»! فالتفتت إليّ مؤنّبة وقالت:» ألم تفهم؟! كنتُ أريد أن أجعل البنت تضحك، ألا يكفيها ما فيها»؟! ثم رفعَتْ لها الدّعوات من كلِّ قلبها كما لو أنها ابنتها، وحين سرنا في الشارع، قالت لي: «زميلتك طيبة فعلًا، هل تفكر بالزواج منها»؟! فأجبتُ باستنكار: «لا بالتّأكيد، هل نسيتِ أنني متزوج»؟! فهمست لنفسها: «كيف يمكنني أن أنسى أمرًا كهذا»؟!

رحتُ أُقلِّبُ كلامَها على الجانبين، لكنّي لم أفهم منه شيئًا.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

في اليوم التالي، حملتُ صندوق حلْوى من أفخر الأنواع، وذهبتُ وجميلة لزيارتها مصطَحبَيْن صغيرتنا، وحين رأتها زميلتي ذات ... «لعن الله العادات السيئة»! طارتْ فرحًا بها. أحبَّتها كثيرًا، وقالت: «إنها أجمل فتاة تراها عيناها»! فشكرتُها، فأضافت: «يا تَرى طالعة لمين؟! لأمها أم لأبيها»؟! وراحت تتصفَّح وجوهنا، وعند ذلك أدركتْ أيّ خطأ ذلك الذي أوقعتْ نفسها فيه، لكنها استطاعت الإفلات في اللحظة الأخيرة: «فيها جمال عينيّ أمِّها وسُمْرتها الرَّقيقة، وفيها أنف أبيها وجبهته» وهنا انشرحتْ جميلةُ ورأيتُ الهواء بأمِّ عيني يعود إلى رئتيّ زميلتي.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

أكثر من عشر مرات زرناها في المستشفى، ولذا، ليس من الضّروري هنا أن أقول: «إن أحدًا لم يفعل ذلك سوانا». وحين أتينا ذات مرَّة وحدنا، دون صغيرتنا، حزنتْ زميلتي كثيرًا، وقالت لنا: «إن لم تأت الصغيرة في المرّة القادمة معكم فسأغضب كثيرا»! وحين أتينا بها في المرَّة القادمة، لم تتقدَّم صغيرتنا لمصافحتها كالعادة، فقالت لها زميلتي: «لا تُريدين أن تُعطيني قُبْلة لأنكِ أصبحتِ أجمل مما كنتِ عليه قبل أسبوعين»؟!! عند ذلك ابتسمت صغيرتنا وأعطتْها خدّها لتقبِّله! وكم أحببتُ تعليق زميلتي اللطيف الذَّكي ذاك.

مع تكرار زياراتنا، لاحظتْ زميلتي أن بطن «جميلة» يكبر مع كل زيارة جديدة أكثر فأكثر، وهكذا سمعتُها تقول لجميلة: «اقتربي لأعانقك»! ثم قالت لها: «لا، سأنهض لأعانقك»! وهكذا رأيتها تُغالب آلامها وتنهض لتحتضنَ زوجتي وهي تُردّد: ألف مبروك، ألف مبروك، ولد أم بنت»؟!

مظلّة الحماية!

مصدرَ قلق لي، كان قرار أمي الوصول إلى سرِّ «رشيدة» الدَّفين، ، وقد جاء في تلك الفترة التي أعاني بسببها أهوالَ الخوف على ذُريَّتي؛ ولا أبالغ هنا إذا قلت، إن ذلك المِلفّ الذي فتحه ذلك المحقق لـ «عبد»! كان السبب الرئيس في تدمير رُبْع قلبي على الأقلّ، إن لم أقل كلَّه!

كنت أتساءل، ما الذي يمكن أن يقدموه هنا لمولود جديد، أكثر من فتْح ملفٍّ له؟! لا شيء، كنتُ أجيب، وأزيد لا شيء، مجرد مِلفٍّ آخر سيبقيه متَّهمًا إلى أن يستردَّ الله روحه!

فكَّرتُ في نفسي كثيرًا، وكم أحزنني أن أفكِّر فيها بكلِّ تلك السَّوداويّة؛ فبشهادة الجميع، كنت ولدًا خلوقًا؛ حتى أنَّ أمّي حين رأتني أُحقق نجاحًا لا تستطيع أيّ أمٍّ إلّا أن تفاخرَ به، ومنذ سنتي المدرسيَّة الأولى، لم تعد تأمرني أو تطلب منّي أيّ شيء آخر؛ فقد كنت ألهو وأخرج وأدخل، كما لو أنني صاحب البيت الوحيد. بل للحظات أحسستُ أنّها لم تعد تراني، ولكنّ ظنّي لم يكن في مكانه، لأنها إذا لم ترني بعينيّها، أمامها، كانت تراني بقلبها حين أكون بعيدًا عن البيت.

في المرحلة الإعداديّة والثانويّة، كان الأمر كذلك أيضًا، نجاحات إثر نجاحات، ما رفع عن روح أمي قَلَقًا كبيرًا كانت تعاني منه أمَّهات الحارة ويعاني منه آباؤها! وحين ظهرتْ نتائج الامتحانات، تبيّن أنّني حصلتُ على أعلى معدَّل يحصل عليه شابٌّ في الحارة، بل في الحيِّ كلِّه، وما جاوره من أحياء. حتى ظنَّ بعض النّاس أن تحقيق نجاح كهذا لا يتحقّق إلا إذا كان الولد ابن أرملة.

ويمكن أن تتخيّلوا مقدار الزَّهو الذي كان يملأ قلبَ أمّي، والتي تحوَّلتْ إلى بطلة قوميَّة بين ليلة وضحاها، واختفى لقبها (رويتر) وباتَ منزلنا، على مدار أكثر من أسبوع، محجًّا للمهنئين والمهنئات. وكانت المفاجأة الأكبر قدوم أستاذ اللغة العربية لتهنئتي، وحين خرج قال لي: كل ما تحتاج إليه منذ الآن قليلا من الحظ الجيد.

لكنني لم أكن قد توصّلتُ، أيامها، إلى تلك النتيجة القاسية التي توصّلت إليها فيما بعد، والتي تقول « في بلاد كهذه لا يكفي أن تكون مجتهدًا ومحظوظًا كي تحقق أبسط أحلامك».

لكن الأمر لم يدم طويلا، فحين تمكَّن ذلك التلميذ في صفّي من دخول الجامعة، رغم وجود فارق بيننا مقداره عشر علامات لصالحي، وكان الناس يعرفونه من معرفتهم لأبيه الذي يسكن الحارة المجاورة، بدأوا ينظرون إلى ابن الأرملة نظرتهم لأيِّ شابٍّ فاشل، وتناسوا أن ذلك الشّاب دخل الجامعة بطريقة رسميَّة ملتوية، لأن لأبيه وأمثاله من الامتيازات، ما ليس لأبي الذي كانت عظامه قد تحوَّلت إلى تُراب.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

هكذا وجدتُ نفسي في معهد المحاسبة ذاك مُتتبِّعًا خُطى قَدري، كما يتتبَّع الرّجل المضبوع خطى الضَّبع في البراري الموحشة!

لماذا إذن يكون عليَّ أن أُنجِب ولدًا آخرَ أو بنتًا أخرى، ونحن بلا مال وبلا سند وبلا وزن عائلي أو عشائري، وقد كان يكفيني أن أنظر لما يحدث مع بعض الزملاء، ومَن أعرفهم بأسمائهم، لأتَّعظ من هذا كلِّه؟! فإذا خرج أحدهم من الصَّحيفة، وداهمني الخوف على مصيره، رغم علاقته غير الوديَّة معي، كنتُ أتقطَّع حزنًا حين أسمع أخبارًا عن وجوده في البيت بلا عمل، وأبدأ التفكير بمصيره ومصير أولاده؛ بل لا أتوانى عن الذهاب لزيارته، مُنفِقًا كلَّ ما في جيبي من نقود، كم كنّا بحاجة إليها لبلوغ نهاية الشهر، كي أشتري له هدية نافعة، وبعد أسابيع أسمع أنه انتقل إلى دائرة أهمّ، فإذا به فجأة مسؤولًا كبيرًا في صحيفة أخرى، أو وكالة الأنباء الرَّسمية، أو مسؤول علاقات عامة في جامعة رسمية كبرى أو عضو مجلس إدارة في التلفزيون أو الإذاعة أو مستشارًا في رئاسة الوزراء، أو، حتى، في مواقع لا أستطيع تسميتها.

كنتُ حانقًا مثل الكثيرين، وصامتًا مثلهم أيضًا، مكتفيًا بالخوف من كلِّ دائرة رسميَّة تصلني منها رسالة أو هاتف أو فاتورة يحملها إليَّ موظّف من الدرجة العاشرة. أو مثلما قال ذلك الرجل، في ذلك الفيلم الجميل الذي شاهدته ذات يوم وهو يخاطب صديقه الوحيد:

(«حياتي ليست مسلَية. رجل ضائع، لم أقدِّم أيّ أشياء عظيمة في حياتي التي أصبحتْ في نهايتها.. وجهي عاديّ، وجه مواطن طيب بعينين يمكن أن تقولا شكرًا، وفم يرسم بين فترة وأخرى ابتسامة، ابتسامة دون معنى، حين أكون حزينا تأتي ممزوجة بالدموع، وأنا لا أعرف لماذا أقول الآن كلَّ هذا...».) ([1])

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

لم تقتنع أمي بهذه الأسباب التي أوردتُها وأنا أُبرِّر لها عدم جرأتي على إنجاب مولود جديد. ظلّت تتحدَّث معي بثقة قائلة «ما دمتُ موجودةً، فلن يستطيع أحدٌ أن يلمسَ شَعْرة من شَعرك أو شَعر أبنائك»!! وقد لاحظتُ دائمًا أنها تستثني «جميلة» من حمايتها! ولم أكن أُعلِّق. وكنت أفهم ذلك، منذ قالت لي حين رأتها أول مرة: «لا مؤاخذة، ساق واحدة، أحيانًا، من تلك السِّيقان التي أعتني بها أجملُ من جميلتك هذه آلاف المرّات»! وأضافت: «أنت تعرف أنّني تركتُك تختار حياتك منذ البداية، ولا يمكنني أن أتدخَّل في مسائل قلبك، أنا التي لم تتدخّل في مسائل عقلك»!

تطمينات أمي، أو حديثها الواثق عن مظلَّة الحماية التي ستوفِّرها لي ولأبنائي، جعلتني أومن بأنني تحت حماية قوّة عظمى، لا يستطيع أحد تناسيها إذا ما همَّ بارتكاب أيِّ عمل ضدّي. ولم أدرك أن أمّي تتعامل مع هذه المسألة في نطاق أخطار الحارة والحيِّ المحتملة لا أكثر، بعد أن جعلتني أحسّ أنّ مظلَّة حمايتها تشمل المدينة كلَّها، البلد كلَّه وبلدان الجوار، بل والكون كلّه.

كان لا بد إذن من اختبار لكل هذا، وقد وفَّره لي ذلك المحقّق وهو يسألني وأنا أجيب:

- امرأتك حامل كما عَلِمت؟!

- نعم سيدي.

- ولد أم بنت؟

- الطبيبة قالت إنه ولد.

- وماذا ستسميه؟

- حليم. سيدي.

- حليم؟ تقصد عبد الحليم؟ تريد أن تجمع في عائلتك أسماء المطربَيْن اللذَيْن كانا متناحرَين على الدوام، فريد الأطرش وعبد الحليم حافظ إذن؟!

- نعم سيدي، ولكننا سندلِّعه ونناديه «حليم».

- هكذا إذن، ونحن سندلِّعه ونناديه «عبد»!!

كيف لي أن أنسى يد المحقّق التي امتدّت إلى دُرج في طاولته، وأخرجت مِلفًّا أزرق، كتبَ عليه بضع كلمات، قال بعدها: خلاص. لقد فتحنا لِـ «عبد» مِلفًّا.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

بصراحة، لم أكن أتصوَّر أنني من أولئك الآباء الذين يُمكن أن يُورِّثوا أبناءهم حِمْلًا ثقيلًا كهذا، ولهذا وجدتُ نفسي في تلك المتاهة التي تجعلني أُشفِق على أيِّ فأرٍ إذا ما انتهى مُتخبِّطًا في دهاليزها! ولم يكن ينقصني إلّا أن تعرف «جميلة» بأمر استدعائي. فبعد مقاطعة صارمة، لم تكلِّمني فيها أبدًا، حاولتُ أن أوضِّح لها أن خروجي في غير مواعيديَ التي تعرفُها، لم يكن له علاقة بالآنسة ليلى، كما تظنّ، بل بسبب التّحقيق معي في تلك الدائرة؛ وفي الوقت الذي توقَّعتُ فيه أن تغفر لي، أعلنتْ سُخطها مُضاعَفًا عليَّ، وقد رأتْني أرزَحُ، والعائلة، منذ ذلك التاريخ، تحت أعباء جديدة لا طاقة لأحد على حمْلها.

قالت لي: «كانت الورطة مع ضرَّة أهون بكثير من الورطة التي أوقعْتَ نفسك وأوقعتنا فيها مع الدولة»!

فقلت في نفسي: «ما الذي كان يمكن أن تقوله لو عرفت بأمر ملفِّ عبد»؟!

لكن سرًّا كبيرًا كهذا، لم يكن باستطاعتي احتماله وحدي، ولذا، كان لا بدَّ لي من أن أجد نفسي أستغيث بأمِّي؛ أمِّي التي نفضَتْ يدها، هذه المرّة، مني، كما لو أنّني لستُ ابن بطنها ولا ربيب حليبها.

فجأة، تمزَّقت مظلّة حمايتها وتطايرت وأنا أراها ترتجف، كما لو أن روحها تغادرها: «أنا امرأة تموت، فلا تورّطني مع الحكومة»!

في ذلك اليوم عرفتُ حجمها الطبيعيّ الذي لم يكن أكبر من حجمي أبدًا، وأدركتُ أن أمّي كانت تخدعني طوال حياتي، وأن عليَّ أن أواجه مصيري وحدي، ولذلك، لم أفكِّر بتوريط أحد آخر سوايَ في هذه المشكلة العويصة. وكان أول طريق الحلِّ هو أن أتوقّف تمامًا عن الإنجاب أيًّا كانت النتيجة!

لكن خيوط هذا القرار لم تكن كلّها في يدي، فإذا بالمشكلة التي تنتظرني هناك، على مشارف المستقبل، وفي دهاليز تلك الدّائرة، تفوق بحجمها وقسوتها قضيّة ذلك الملف بأشواط وأشواط!!

لمسة كولومبو

كنتُ أعرفُها تمامًا، إنها أمي، ولكن، يبدو أنّها لم تكن تعرفُ نفسَها.

لا أقول ذلك على سبيل المسِّ بها وبقدرتها في مجال إدارة أمور حياتي وحياتها؛ أقوله لأنني كنتُ على يقين من أنّها لن تموت مقابل الوصول إلى ذلك الخبر. كان يُمكن أن تدعَ «رشيدة» تموت، أمّا هي نفسها، فلم تكن مستعدَّة لذلك.

الأستاذ غازي . م !! الذي قرأَ المخطوط الذي كتبه الأستاذ عليّ، وهما صديقان، توقَّف أمام هذا الأمر طويلًا، وقال له: لا يُعقل أن تُضحِّي امرأة، أو أيُّ إنسان بنفسه مقابل أمر صغير كهذا! ثم أضاف تلك الملاحظة البليغة «لا تنس يا عليّ أن «رويتر» امرأة شابة تقريبًا، في معايير هذه الأيام! فحين ماتتْ لم تكن قد تجاوزت الخمسين من عمرها بعد، وإذا كانت، كما وصفتها لي، ووصفها الأخ بهجت لكَ! امرأة تحبُّ الحياة، فمن الصَّعب أن تُقنعني بأنها كانت مستعدَّة للموت بتلك السِّهولة»!

لا أريد أن ألعب دورَ المفتّش (كولومبو) في مسلسله الشّهير ذاك الذي كنت أتابعه في شبابي، وأقول أشياء كبيرة بهذا الشأن، لئلا أُقلق راحة روحها، ولكنّي أرى أن ملاحظة الأستاذ غازي في مكانها، فأمّي امرأة تحبُّ الحياة، وذات قوة جبَّارة تُمكِّنها من الحصول والوصول إلى ما تريد، باستثناء الأمور المتعلِّقة بالحكومة بالطبع! فهذه كما تبيَّن، أكبر من طاقتها وطاقات مثيلاتها. ولا أريدُ أن أقول إن أمي قُتِلَتْ، ولكن، يبدو أنّني قُلْتُها، رغم أنّني لا أريد أن أقول ذلك، ولا أريد أن ألقي تهمة كبيرة مثل هذه على أيّ شخص، جارًا كان أم جارة! فقد كانت شهادة الطبيب الذي فحصَها، وهي حيَّة، كافية، حين طلب منّا أن ننقلها إلى المستشفى، رغم شكِّي المُزمن في الأطبّاء، لكنّي أيضًا لا أريد أن أنسى ما قالتْه لي أميَ في ذلك اليوم مؤنِّبةً، بصوت قويّ، كم كان يشبه صوتها القديم!:

- وهل مرضتُ كلّ هذا المرض حتّى أذهبَ إلى المستشفى؟!

- وهل مرضتِ بخاطرك؟!

- طبعًا بخاطري. قالت وقد انطلق صوتها كما كان دائمًا.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

لا أعرف إن كان الأستاذ عليّ قد استطاع أن يوضِّح أمرًا غامضًا كهذا، أو يلمِزَ بشأنه أم لا؟! ربما يكون في هذا الأمر مثلي تمامًا، إذ ليس من المعقول أن نوجِّه تهمة كبيرة لإحداهن أو أحدهم!! لمجرد الشكِّ المبني على الهواء. لكن هذا السّؤال سيظلّ مُعلّقًا في داخلي، وإذا ما توصلتُ لإجابة له، فإن الأستاذ عليّ سيكون، بالتّأكيد، أول من يعرفها. ولكي أقول الحقَّ، كلَّ الحق، فإنني لا أستطيع أن أستبعد أيّ فرضيَّة، حتى وإن كانت صغيرة جدًا، كأن تكون هذه

الفرضيَّة نابعة من إحساسها فجأة، بأنّها لا تملك قوَّة تستطيع بها حماية وحيدها في هذا الواقع المتوحِّش الذي يطحنه أمام عينيها. وإذا ما كان خاطِرٌ كهذا قد هزَّ روحَها وبعثر يقينها، فإنها ستكون قد وصلت إلى أقصى وأقسى درجات الضّعف!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

ما سيظلُّ يحيرني، أن «رشيدة» التي كانت في الفترة الأخيرة صاحبة أمّي «الرُّوح بالرُّوح» لم تأت إلى بيت العزاء، ولم تُحدِّثني منذ ذلك اليوم، وحين ذهبتُ لتفقّدها وجميلة ذات يوم، خِشْيةَ أن يكون أصابها مكروه، لم تفتح لنا الباب، ولا شكَّ عندي أنها كانت يومها في الداخل، لأن العين السِّحرية المثبَّتة في الباب كان مُشِعَّة، وحين اقتربتْ منها خطاها التي لا تكاد تُسمع، أعتَمتْ، وظلَّتْ مُعتمة إلى أن ملأت أصوات خطواتنا فضاء الدّرج مُبتعدةً؛ بعد ذلك تسللتُ على رؤوس أصابعي، مثل المفتش كولومبو تمامًا، فتبين لي أن العين السحرية عادت مُشِعَّة من جديد.

هل عليَّ أن أفهم شيئًا ما من هذا؟! ربما.

هل عليَّ ألّا أفهم أيَّ شيء من هذا أيضًا؟! ربما.

هذا البلد..

صورة مقربة

سأحاول تقليد الأستاذ عليّ في هذا الفصل الصغير وليعذرني:

كثيرًا ما فكَّرت أن هذا البلد يُشبهني! رغم عدم اعترافه بهذا! رغم عدم استعداده لأن يلتفتَ إليَّ، أو يسألني ما الذي يؤلمك؟! وهو يطأ جسدي ويلقيني بعيدًا!

كثيرا ما فكَّرتُ أن هذا البلد يشبهني، فهو طويل بلا قامة، نظيف مثل جيب جديد، جميل بلا مُعجبين حقيقيين، وشابٌّ بلا مستقبل.

وكثيرا ما فكرتُ أن هذا البلد لا يشبهني! فقد ولدتُ مفطومًا، ولكنه لم يزل رضيعًا، واعتمدت على نفسي ولكنه لم يزل يعتمد عليّ وعلى أمثالي من خلق الله.

خواطر

خواطر، إنها خواطر، ليست أكثر من خواطر:

لم أكره شيئًا في حياتي مثلما كرهت البرْد، ولم أكره حرارة أكثر من تلك التي يكون هو سببها!

أتذكّر الكثيرَ من الليالي القاسية لهذا السبب، لكن ليلةَ الصقيع تلك كانت هي الأقسى، تقلّبتُ كما تتقلّب قطرة ماء في مقلاة ممتلئة بزيت يغلي، تبعثرتُ، وكلما لامس جزء مني الزيت ثانية تبعثرتُ ثانية قطراتٍ أصغر، ولعلّي حين نهضتُ من السَّرير، لم أنهض فعلًا، لعلَّ السَّرير الذي تحوَّل إلى مقلاة، هو الذي قذفني أمام باب الغرفة، فوقفتُ هناك متصلِّبا كرجل ثلج فعلًا.

كنت أحبُّ أن تمدَّ «جميلة» لي يدَ المساعدة، ولكنّي تعلَّمتُ أن أعيش هكذا، ابن أرملة، لا يعتمد على أحد. لكنّها مدَّت لي يد المساعدة وقَبِلْتُها، أما الشّيء الذي لم أكن لأقبَله أبدًا فهو أن تُشفق عليَّ، كأن تمتلئ عيناها بالدّموع كما حدث تلك الليلة، ولم يكن كلّ ظلام العالم قادرًا على إخفاء التماع دمعة واحدة في عينيها.

تعلَّمتُ دائما أن أخاف، أخاف أن أورِّط أمِّي في شيء، أيَّ شيء، كأن أَجرَّها إلى مخفر أو إلى مدير مدرسة أو إلى... لأن أول إنسان كانوا سيطلبونه هو وليّ أمري. كنتُ أحس أن ذلك سيُحيل أمي إلى مصدر للسُّخرية والكلام الثقيل الذي لا يجوز أن يوجَّه لامرأة، أيّ امرأة، في مخفر أو في غرفة مدير مدرسة حوَّل مدرسته إلى مخفر!

كنت أعرف أنني بلا أخوال يقفون إلى جانبي أو أعمام، أو أقارب.

صحيح أنني حين عملتُ في الصحيفة، أدركتُ أنني لستُ اليتيم الوحيد، لكن ذلك لم يغيِّر فكرتي. كلُّ من قابلتهم أيتام، أتحرَّك بين أيتام، وأصعد الحافلة وأجلس بجانب أيتام، وأذهب للسينما ولا أرى حولي إلّا الأيتام، وأصفِّق للبطل على الشاشة لأنه يتيم! كلُّ هؤلاء كانوا أيتامًا، عكس أولئك الذين كنتُ أقابلهم في الوزارات التي حملتُ أخبار كبار موظفيها وصورهم، والرُّتب التي لم أستطع في أيِّ يوم من الأيام معرفة الاسم الذي يُطلق بدقَّة على كلَّ واحدة منها، ومدير السجن والمحقّق والسيد عبد اللطيف، والسيد غنام ومن تحته ومن فوقه، والطّالب الذي أخذ مقعدي، والبليد الذي أخذ حقِّي في وظيفة كنت أستحقُّها، والصّحفي الذي لم يكلِّمني منذ أن سلبني رحلة الصين، وتعاملَ معي، حيثما رآني، كما لو أنني نذلٌ سلبَهُ رحلته إلى الصين!

لكني لم أكن أحبّ أن يشفق عليَّ أحد، حتى «جميلة»، «جميلة» التي لا شكَّ أنني سبَّبتُ لها جروحًا عميقة وأنا أُردِّد اسم الآنسة ليلى كلَّ ليلة في سريرها، دون أن تبوح بشيء من هذا، لزمن طويل، ولولا سوء الفهم الذي وقعتْ فيه حين ظنَّتْ أنني ذاهب إلى الآنسة ليلى بلا رجعة، لولا سوء الفهم ذاك، ما أظنّها كانت ستنفجر في وجهي مثلما انفجرتْ في ذلك الصباح.

كنت مستعدًّا لأن أراها غاضبة، ساخطة، أو في أيِّ حالة شبيهة، لكني لم أكن مستعدًّا أن أراها مُشفقَة عليّ.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

كان هذا الحسُّ قد داهمها حين فعلتُ فعلَتي ذلك اليوم في مكتب السيد عبد اللطيف، فحين رأيتُ قطراتِ دمها تسيلُ، أوشكتُ أن أقع مغشيًّا عليَّ، وفي تلك اللحظة تجاوزتْ آلامها، وتقدَّمتْ تحاول مساعدتي، تاركةً دمها حيث هو على طرف الأريكة يحدِّق بي، وقطرات منه تسقط من تحت فُستانها على البلاط مُصدِرَةً صوتًا رهيبًا؛ ولم يكن ارتداد القطْرة أقلّ رعبًا، حيث بدت لي كلُّ قطرة كما لو أنها قنبلة ذَرْيَّة صغيرة. وحين اكتشفتُ العلاقة الغريبة بين الذُّرِّية والذَّرِّيَّة فيما بعد، قلتُ أي أمر عجيب هذا، فالأولى بها نتكاثرُ والثانية بها نُمْحى! ولا فرق بينهما سوى تلك الضَّمَّة فوق حرف الذّال التي تلزمُنا، لا شك، كي نضمَّ أولادنا عند سقوط القنبلة الذَّريّة، أما الكسْرة تحت حرف الرّاء فلا شيء يُشبهها مثل الانكسار الذي يُبتلى به الأفراد والأمم الذين تسقط على رؤوسهم قنابل من هذا النوع!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

توقَّفتْ «جميلة» على مقربة من خطِّ الإشفاق قبل أن تُبالغ، وفي اللحظة المناسبة، بل ونامت، كما لو أنّني لستُ مريضًا، وعندما نهضتْ أشعلتِ السَّخان كما لو أنّني لستُ مريضًا، ووضعتْ ملابسي الدَّاخلية التي أحتاجها على طرف السّرير، كما لو أنّني لستُ مريضًا.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

لا أدري لماذا خطرت لي كلُّ تلك الخواطر عن المرض واليُتْم، ولكنّها خطرت لي، وهي بذلك ليست أكثر من خواطر!!

الرجاء تمزيق الرسالة بعد قراءتها!!

تغيَّر إحساسي بوجودي في مبنى الجريدة، بسبب وجود شخص طيِّب واحد يرمقني من بعيد، ولا يستطيع الإفصاح عن مشاعره: الآنسة «ماجدة»! التي ناءت بِحمْل لقب لا تعرفه وأعني: (ذات المؤخرة العظيمة!) فقد بدأت تُبدي تعاطفًا معي؛ ولعلَّها الوحيدة التي أصبحت تبتسم لي من كلّ قلبها، بعد أن أثبتُّ لها أنني صديقها الوحيد.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

ذات يوم دخلتُ القاعة، ولم يكن هناك سوانا، أنا وهي، وحين خرجتُ وعدتُ، لم تكن موجودةً، التفتُّ إلى الجريدة التي كنتُ أقرأها فوجدتُ ورقة مطويَّة بعناية فوقها. على الفور، راح قلبي ينبض بقوَّة مخيفة، إذ كنتُ أحتمل وقوع أيِّ شيء، إلا مسألة وقوعِها في حبِّي، بعد ما أبديته وعائلتي من مشاعر فيَّاضة نحوها خلال مِحنتها. فتحتُ الورقة، وفوجئتُ بما فيها: (لا عليك، كن

قويًّا. ستنتصر في النهاية!) وطلبتْ مني أن أمزِّق الورقة: (الرّجاء تمزيق الرسالة بعد قراءتها!!)

قلتُ: «ليس هنالك من يتعاطف معي سواها»! وكم أدركتُ يومها أنها يتيمة مثلي.

مزَّقتُ الرسالة، وزيادة في الحرص، وضعتُ فُتاتها في جيبي، مخافَة أن تفضحني سلَّة المهملات، إذا ما لاحظ أحدٌ مِزَقَها.

حين عادت «ماجدة»! تصرَّفتْ كما لو أنها لا تعرف شيئًا عن الأمر، ما جعلني أعتقد أنها ليستْ هي التي كتبتْها؛ وكم فاجأني أنني عمِلْتُ مع زميلة كلّ هذا الزمن، ولم أعرف خطَّها حتى الآن.

حين ابتسمتْ لي بعد نصف ساعة، أدركتُ أنها هي من كتبتْها بالتّأكيد، فابتسمتُ لها من كلِّ قلبي. وللحظة، خفق قلبي مُسبِّبًا لي ارتباكًا شديدًا، إذ لم أكن على يقين من أن خفقته تلك كانت خفقة حبٍّ، أم خفقة امتنان؟!

لكنني، أنا الذي احتملتُ كلَّ رُعب قدوم ذلك المولود الجديد، وأعني «عبد الحليم»، هُزمتُ في معركة لم أحسب حسابًا لها أبدًا.

فراشة من نار!

هل أكون تعجَّلتُ؟

- ربما!!

هل أكون تهوَّرتُ؟

- ربما!!

وما الذي يمكن أن يعنيه الزواج لشخص مثلي أتيح له أن يكون على بعد ذراعين من الآنسة ليلى؟!

ليالٍ طويلة أرَّقني هذا الأمر، وبلغ ذروته بعد تلك الهمسة الملتهبة التي زرعَتْها في أُذني، وبقيت تدوِّي فيها، تحطُّ وتطيرُ كفراشة من نار، وتلد همساتٍ جديداتٍ لم تعد أُذني الثانية بعيدة عن تأثيرها.

قد يظن البعض أن كلَّ شيء كان يجب أن يتوقَّف بعد انتقالها للعمل في المكان الأكثر خطورة، المكان الذي لا تستطيع أن تمسَّه لا بيدك ولا بلسانك ولا بقلبك! لكن قلبي انتقل معها، ولعلّي لا أبالغ إذا قلت إن في استدعائي إلى هناك مرَّة بعد أخرى كان فيه بعض المِتعة الخفية. بل سأعترف بشيء لم أعترف به من قبل: لقد تمنَّيت، دون وعي ربّما، أن يضعوني في واحدة من زنازين ذلك المبنى، أيّامًا، لِأظلَّ قريبًا من المكتب الذي هي فيه!

وإذا كانت اللذة ألما جميلَا كما قرأتُ ذات يوم، فإن في استدعائي لذلك المبنى لم يكن يخلو من هبّة الألم الجميلة تلك، هبَّة كنت أحسُّ بها تمرُّ كتيار كهربائي في جسدي، تهزُّه، فالتفتُ حولي خشية أن يكون أحدٌ ما قد تنبَّه لما يحدثُ فيَّ، وكم تمنيتُ أن تحسَّ هي، بذلك التيار في الطّوابق العليا هناك.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

في لحظة ما، كان عليَّ أن أتوقَّف، ولن أقول تمامًا، لأن أمورًا متعلِّقة بالمشاعر، كهذه، لا يستطيع أحدٌ أن يضع لها حدًّا، أو يبني جدارًا في وجهها؛ فكلّ جدار، مهما ارتفع أمامها، سيبقى أقلّ انخفاضًا مما يتصوَّره الإنسان.

أنا حامل!!

طلبتُ من «جميلة» أن تأخذ كلّ احتياطاتها «لأنني لن أتحمَّل مِلْفا آخر»! وحين سألتني باستغراب: «ماذا»؟!، قلتُ: «أقصِد ولدًا آخر»!

لم أكن أريد أن أزعجها في شيء، أو أن أجرَّها لكي تقول لي ما قالته أمي حين استشرتُها في مسألة عبد الحليم.

قالت جميلة: «إللي من الله يا محلاه»! فقلت لها: «لا إله إلّا الله، لقد رَزقنا الله ببنت وولدين، وآمل أن يُساعدنا كي نتمكَّن من تربيتهم»!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

بعد أقل من ثلاثة أشهر قالت لي: «أنا حامل»!

جننتُ، ولم أعرف ما الذي يمكن أن أفعله أمام مشكلة كبيرة كهذه. قلتُ لها: «عليك أن تُنزليه»! فقالت: « كلّ شيء إلّا هذا»! فأجبتُ: « إما أنا أو هو في هذا البيت»! وخرجتُ غاضبًا، وما إن وصلتُ إلى الشّارع حتى رأيتُ المدينة كلَّها قد تحوَّلت إلى مِلفٍّ أزرق ضخم.

سرت تحت مطرٍ شديد، وتحمَّلتُ برْدًا، وبَلَلًا تسرَّب حتى عظامي، وفي آخر الليل عدتُ منهكًا. نمتُ، وحين صحوتُ، لم أكلِّمْها، وكلما نظرتُ إلى وجه واحد من الولدين رأيته على شكل مِلف أزرق، باستثناء صغيرتنا، التي لم يخبرني المحقق إذا ما كانوا قد فتحوا لها مِلفًّا ، أما إذا كانوا قد فعلوا ذلك، فلم أتخيَّل لونه إلا أن يكون زَهرِيًّا!!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

لا أعرف إن كنتُ قاطعتُ «جميلة» مدَّة تساوي تلك الفترة التي قاطعتني فيها بسبب الآنسة ليلى، أم لا، لكنَّ الأمر طال، ولم يكن ينقصه سوى شيء

واحد، أن يرنَّ جهاز الهاتف فوق طاولة السيد عبد اللطيف وأن يقول لي وهو يهز رأسه: «مكالمة من هناك مرَّة أُخرى»!

وهذا ما كان!!!

سقط قلبي ولم يخطر ببالي سوى شيء واحد : أنهم علِموا بحَمْل «جميلة»! فصرختُ في داخلي: «يا للهول»!

عشر مفاجآت أخرى ومفاجأة مكررة!

صباحًا، في الثامنة كنتُ هناك، وما إن دخلتُ حتى لمحتُ الآنسة ليلى تدخل من الطَّرف الآخر وتصعد الدَّرجات رشيقة كما رأيتها تصعدها في المرّتين السابقتين مرتدية الملابس نفسها، مثلي تمامًا! فخفق قلبي بعنف مرعب لسبب لا أعرفه..

.. وأخيرًا، كان لا بدَّ لي من أن أصل هناك، إلى تلك القاعة التي يغمُرها الأسى؛ القاعة التي لا يستطيع فيها أحد النَّظر في عيني الآخر، حيث يتصرّف الجميع كمتَّهمين.

بعد أقلِّ من خمس دقائق ظهرَ الرَّجل ذو الشاربين الكثّين! ولأنني لم أكن أتوقَّع ظهوره قبل الحادية عشرة، فقد انشغلتُ بتأمُّل حذائي.

صاح مردِّدًا اسمي، وحين نهضتُ فَزِعًا، فوجئتُ به يبتسم. نظرتُ إلى مَن حولي بخجل وقد أفزعني أنني غدوتُ موضع ترحيب في المكان الذي لا يُرحَّب فيه بأحد. ولولا أنه واصل ابتسامته، ابتسامته الواسعة التي كشفتْ عن أسنان كبيرة كأسنان حصان، كما يقال، لاعتقدتُ أنه يبتسم لغيري.

أمسكني من يدي كصديق، وقال كلمات لم أسمعها أبدًا.

كان دمي قد تحوَّل إلى تيّار كهربائيّ عالي التّردُّد!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

ما أفزعني أكثر وأكثر، أننا حين وصلنا المصعد، وجدت نفسي وجهًا لوجه مع السيد عبد اللطيف!! وقد حدث ما كنت أتوقعه وأخشاه، إذ سألني: «ما الذي تفعله هنا»؟! فأجبتُ مرتبكًا كما لو أنني لا أعرف الإجابة: «طلبوني»! وجاء السؤال الذي لم يعد غريبا عليّ، كما لو أنّ التّحقيق معي قد بدأ: «وما الذي فعلته؟ ألم أُوصِك أن تكون عاقلاً»؟! فأجبت كما في المرات السابقة: «لم أفعل شيئًا؛ وهذا ما يطيِّر عقلي»! وعندها قال: «إذا كنت نظيفًا فلا شيء تخشاه هنا»! وعندها سألته بوجل، كما لو أنني لا أعرف الإجابة أيضًا: «وأنت، ماذا تفعل هنا»؟ فردّ دون أن يُلملم ابتسامته: «جئت لتناول فنجان قهوة لا غير»!!

خرجت من المصعد أتلفَّت خلفي، بحيث تعثرتُ وأوشكت على السقوط، لولا أن رجل الشاربين الكثين أمسك بي في اللحظة المناسبة، دون أن يكف عن الابتسام. فانشغلتُ، فورًا، بالبحث عن سبب لابتسامته الواسعة تلك،وكم أدهشني أن ابتسامته تجمَّدت، فلم يعد هنالكَ من شيء في وجهه سواها!

قلت: «لعلَّهم فَرِحون لأنني أعطيتُهم فرصةَ عمل جديدة حين جعلتُ امرأتي تحمل! لعلّهم لا يفرحون بشيء مثلما يفرحون بملف أزرق جديد يُفتح»!! لكنني استبعدتُ هذا داخل المصعد، حين تذكَّرت أن المحقِّق لم يكن سعيدًا في المرَّة الماضية وهو يسألني عن فريد وعبد الحليم، وأنه تصرَّف كما لو أنّهما عِبآن جديدان سيُلقيان على كاهله مدى الحياة، حياته العمليَّة، هو الذي كان في ثلاثينات عمره.

قلتُ: «لا أحد يعرف سرَّ الأمر أكثر من ذي الشّاربين الكثَّين. لا بدَّ أنه، وبسبب الخِبرة، يعرفُ أنَّ من يتِمُّ تأخيره في القاعة مغضوب عليه أكثر، ومن يُستدعى بعد خمس دقائق إنسان مَرْضِيٌّ عنه!

وكم أفزعني أيضًا أن أكون قد فعلتُ شيئًا يُمكن أن يُرضيهم إلى هذا الحدّ.

«هل فعلتُ»؟!! رحتُ أسأل نفسي.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

لم يكن عليَّ أن أنتظر كما في المرّات السّابقة، فبمجرد أن وصلتُ باب المكتب الذي بتُّ أعرفه، امتدَّت يد الرَّجل ذي الشّاربين الكثّين وأشرعتِ البابَ، بعد نقْرةٍ واحدةٍ خفيفةٍ على خشبه البُنِّيّ.

حينما رأيت محقِّقَيْن في تلك الغرفة، أدركتُ أن جُرمي مُضاعَف، قبل أن أعرف ما هو!

رآني المحقّق الذي لم أكن أعرفه، نهض عن كرسيّه الموجود أمام الطاولة، ورحَّبَ بي كما لو أنني صديق يلقاه بعد غياب طويل! دعاني للجلوس على الكرسيّ المقابل، وجلس.

أما المحقق الذي بات يعرفني وأعرفه، صاحب الصَّلعة الصغيرة، فقد بدا مستاء من ذلك التَّرحيب!

أخافني هذا كثيرًا!

طلبَ المحقق الجديد من الرّجل ذي الشّاربين الكثّين أن يُحضر لنا ثلاثة فناجين من القهوة، ثم سألني: «كيف تحبّ قهوتك»؟! فأجبتُ بلا وعي: «وسط».

قال للرجل ذي الشاربين الكثين: «فالح! قهوة الأستاذ بهجت وسط، لا تنس»!

استرقتُ نظرة للمحقق القديم، وجدته أكثر استياء.

أخافني هذا أكثر!

تأمَّلني المحقق الجديد مبتسمًا، وأنا ألعن نفسي: «كيف أتجرأ وأطلب قهوة هنا، كيف»؟! وبقيتُ أوبِّخ نفسي إلى أن حضرت القهوة.

قال لي: «باختصار أستاذ بهجت، نحن نعتذر لك عما سببناه لك في المرَّة الماضية! وسنعوِّض رحلة الصين برحلة أفضل منها، سنتركك تختارها، وسواء طلبتَ السَّفر إلى دُبي أو إلى نيويورك، فنحن تحت تصرّفك، وكدلالة حسن نية، ها هو جواز سفرك»! ووضعه على الطاولة الصغيرة التي بيننا.

شكرته، وقلت له: «الذي فاتَ ماتَ»! فسألني: « أنتَ تُسامحنا إذن»؟! فبقيتُ صامتًا، فقال لي: «هذا أمر جيّد لكي نستطيع التّفكير معًا في المستقبل»!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

حدَّثني عن حُسن أخلاقي، كما لو أنني لا أعرف هذا! كأب وزوج وصحفي ومواطن، وقال: «نحن بحاجة لأمثالك ممن يحملون مبادئ النَّظافة والصِّدق والشّرف والإخلاص»! وفي حركة لا يمكن إلّا أن تكون مفاجئة قال لي: «إن كلَّ من سألناهم عنك امتدحوك! ويبدو أن سمعتك الطيِّبة قد وصلتْ إلى قلب الدّائرة هنا، فمديرة مكتب السيد معالي المدير، الآنسة ليلى، قالت فيكَ كلامًا طيّبًا، بل وطلبتْ أن تُقابلك لأنّها منذ زمن لم تَرَكَ»!

خفق قلبي، وشكرته على كلامه وكلامها بأحرف مُكسَّرَة. فقد كنتُ أتوقَّعُ كل شيء إلّا هذا. فازداد ارتباكي. قلتُ محاولًا التَّخفيف من رقَّة مديحه: «لستُ نبيا»! فقال لي بابتسامة أوسع: «ولسنا كذلك أيضًا»! وأضاف: «لقد راقبناك طويلًا، وأظنُّ أن الأوان قد آن لكي نعمل معًا»! وهنا كانت المفاجأة الأولى! بحيث لم أمنع نفسي من إدارة رأسي لأرى ردَّة فِعل المحقق القديم على كلام زميله!

كان مُخيفًا..

قلتُ له: إنني لا أستطيع، وإنني لا أعرف أحدًا ولا أخالطُ أحدًا ولا أعرف سوى طريق البيت، ومِن أسماء أولاد الحارة لا أعرف سوى أسماء ابنيّ وابنتي! ومن أسماء نساء الحارة لا أعرف سوى اسم زوجتي! ومن أسماء رجال الحارة لا أعرف سوى اسمي!

سمعتُ كرسيّ المحقق القديم يتحرَّك، وسمعتُه ينهض ويدور حول الطاولة. التفتُّ، رأيته يجرُّ الكرسيّ ويضعه خلفي تمامًا ويجلس عليه. وهنا كانت

المفاجأة الثانية!

- ومدير مكتب الإعلانات! كيف أحواله؟! جاءني الصوت من ورائي.

- أيّ مدير مكتب إعلانات؟ سألتُ وأنا أحاول أن أستدير، فدفع المحقق الذي خلفي وجهي بخشونة إلى الأمام.

- ذاك الذي مهَّد لك الطريق للعمل في الجريدة. ما زلتَ تراه، أليس كذلك؟

- بين حين وحين!

- وبماذا تتحدَّثان؟!

- لا نتحدّث في شيء، إنه يقرأ لي قصائده لا غير!

- ولماذا تكذب وتقول إنك لا تعرفه؟! حاولتُ أن أدير رأسي ثانية فتلقَّيتُ صفعة قوية، وهنا كانت المفاجأة الثالثة! إذ لم أكن أتوقَّع أن يصل الأمر إلى هذا الحد!

أما المحقق الذي بات يعرفني وأعرفه، صاحب الصَّلعة الصغيرة، فقد بدا مستاء من ذلك التَّرحيب!

أخافني هذا كثيرًا!

طلبَ المحقق الجديد من الرّجل ذي الشّاربين الكثّين أن يُحضر لنا ثلاثة فناجين من القهوة، ثم سألني: «كيف تحبّ قهوتك»؟! فأجبتُ بلا وعي: «وسط».

قال للرجل ذي الشاربين الكثين: «فالح! قهوة الأستاذ بهجت وسط، لا تنس»!

استرقتُ نظرة للمحقق القديم، وجدته أكثر استياء.

أخافني هذا أكثر!

تأمَّلني المحقق الجديد مبتسمًا، وأنا ألعن نفسي: «كيف أتجرأ وأطلب قهوة هنا، كيف»؟! وبقيتُ أوبِّخ نفسي إلى أن حضرت القهوة.

قال لي: «باختصار أستاذ بهجت، نحن نعتذر لك عما سببناه لك في المرَّة الماضية! وسنعوِّض رحلة الصين برحلة أفضل منها، سنتركك تختارها، وسواء طلبتَ السَّفر إلى دُبي أو إلى نيويورك، فنحن تحت تصرّفك، وكدلالة حسن نية، ها هو جواز سفرك»! ووضعه على الطاولة الصغيرة التي بيننا.

شكرته، وقلت له: «الذي فاتَ مات»! فسألني: « أنتَ تُسامحنا إذن»؟! فبقيتُ صامتًا، فقال لي: «هذا أمر جيّد لكي نستطيع التّفكير معًا في المستقبل»!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

حدَّثني عن حُسن أخلاقي، كما لو أنني لا أعرف هذا! كأب وزوج وصحفي ومواطن، وقال: «نحن بحاجة لأمثالك ممن يحملون مبادئ النَّظافة والصِّدق والشّرف والإخلاص»! وفي حركة لا يمكن إلّا أن تكون مفاجئة قال لي: «إن كلَّ من سألناهم عنك امتدحوك! ويبدو أن سمعتك الطيِّبة قد وصلتْ إلى قلب الدّائرة هنا، فمديرة مكتب السيد معالي المدير، الآنسة ليلى، قالت فيكَ كلامًا طيّبًا، بل وطلبتْ أن تُقابلك لأنّها منذ زمن لم تَرَكَ»!

خفق قلبي، وشكرته على كلامه وكلامها بأحرف مُكسَّرَة. فقد كنتُ أتوقَّعُ كل شيء إلّا هذا. فازداد ارتباكي. قلتُ محاولًا التَّخفيف من رقَّة مديحه: «لستُ نبيا»! فقال لي بابتسامة أوسع: «ولسنا كذلك أيضًا»! وأضاف: «لقد راقبناك طويلًا، وأظنُّ أن الأوان قد آن لكي نعمل معًا»! وهنا كانت المفاجأة الأولى! بحيث لم أمنع نفسي من إدارة رأسي لأرى ردَّة فِعل المحقق القديم على كلام زميله!

كان مُخيفًا..

قلتُ له: إنني لا أستطيع، وإنني لا أعرف أحدًا ولا أخالطُ أحدًا ولا أعرف سوى طريق البيت، ومِن أسماء أولاد الحارة لا أعرف سوى أسماء ابنيّ وابنتي! ومن أسماء نساء الحارة لا أعرف سوى اسم زوجتي! ومن أسماء رجال الحارة لا أعرف سوى اسمي!

سمعتُ كرسيّ المحقق القديم يتحرَّك، وسمعتُه ينهض ويدور حول الطاولة. التفتُّ، رأيته يجرُّ الكرسيّ ويضعه خلفي تمامًا ويجلس عليه. وهنا كانت المفاجأة الثانية!

- ومدير مكتب الإعلانات! كيف أحواله؟! جاءني الصوت من ورائي.

- أيّ مدير مكتب إعلانات؟ سألتُ وأنا أحاول أن أستدير، فدفع المحقق الذي خلفي وجهي بخشونة إلى الأمام.

- ذاك الذي مهَّد لك الطريق للعمل في الجريدة. ما زلتَ تراه، أليس كذلك؟

- بين حين وحين!

- وبماذا تتحدَّثان؟!

- لا نتحدّث في شيء، إنه يقرأ لي قصائده لا غير!

- ولماذا تكذب وتقول إنك لا تعرفه؟! حاولتُ أن أدير رأسي ثانية فتلقَّيتُ صفعة قوية، وهنا كانت المفاجأة الثالثة! إذ لم أكن أتوقّع أن يصل الأمر إلى

هذا الحد!

- قصائده؟ هل ما زال يكتبُ الشِّعر؟! سألني المحقق الجديد بلطف!

- أظن ذلك. لأنه يقرأ لي دائما قصائد لم أكن سمعتُها من قبل؟! قلتُ بانفعال وخوف.

- إذن أنت تعرف أُناسا غير زوجتك وأولادك! كيف تقول لي إذن إنك لا تعرف سواهم؟! صرخ المحقِّق الذي خلْفي بقوة أرعبتني.

كان عليَّ أن أصمتَ، وقد وجدتُ نفسي غير قادر على الإجابة.

- صاحب مكتب الإعلانات! هذا رجل أزعَجَنا دائمًا؟ صرخ الذي خلْفي. وهنا كانت المفاجأة الرابعة!

- كيف تعرفتَ إليه؟ سألني الذي أمامي بهدوء.

- مصادفة، دخلتُ مكتبه أسأل عن عمل، فرقَّ لحالي، ووعدني أن يساعدني؟

- هكذا، دون سابق معرفة، هل تريد أن تخدعني بهذا الكلام؟! قال لي الذي أمامي مُعاتبًا.

- هكذا والله، فلم أكن أعرفه من قبل أبدًا.

- أتريد أن تقول لي إن هذا المُعارض أحنُّ منّا على النّاس بمساعدته لهم بهذه البساطة في إيجاد فرص عمل؟! سألني الذي خلفي بقسوة.

- أبدًا.

- من الجيّد أنك تدرك هذا! قال لي ذلك الذي أمامي. وأضاف: هذا يجعلنا نقطع معًا أكثر من نصف الطّريق بجملة واحدة!

- بل الطّرُق كلّها! قلت له.

- نحن لا نريد منك الآن سوى شيء واحد، أن تأتينا بأخباره. قال الذي أمامي مبتسمًا! وأضاف: «أهذا صعب عليك»؟!

- لكنني لا أعرف أخباره، لا أعرف غير قصائده!

فانفعل المحقق الجديد وقال: «أريد أن أُحذِّرك، لا تضع نفسكَ وتضعني في مشكلات مع هذا الذي وراءك، لأنه صعبٌ فعلًا! كل ما عليك أن تفعله هو أن تُوافق، وسنُعلِّمك كيف تستطيع انتزاع معلومات أهمّ بكثير من تلك القصائد! سنعلِّمك كلَّ ما لا تعرفه»!

.. ومن خلفي كانت عاصفة من غضب مكتوم على وشك الانفجار، تلفحني بنارها.

سألني المحقق الجديد عن أخبار العمل، وقال لي: «يجب أن تتحسَّن ظروف عملك! لا يمكن أن تبقى مكانك إلى الأبد! وحدَّثني عن الغلاء وتكاليف المدارس وغلاء أسعار المحروقات»! وقال لي: «ثم لا بدّ أنك تفكِّر في مولود جديد، وهذا يحتاج إلى نفقات جديدة كما تعلم»! فانتفضتُ برعب قائلا: «لا»!

- أنت تفكِّر بمولود جديد إذن؟ لا أحد ينفي بهذه الشدَّة إلّا إذا كان كاذبًا! هل هنالك مولودٌ جديد؟! صرخ مَن خلْفي.

- لا، أبدًا!

- إذا كان هناك مولود جديد، فأنا أقول لك منذ الآن ألف مبروك! قال المحقق الجديد. وأضاف: «ولكن إيّاك أن تكذب على ذلك الذي خلفك، فالأمر الأسَّهل بالنسبة إليه أن يُلقي بك في زنزانة، ويُرسل سيارة إلى بيتك لإحضار زوجتك إلى هنا للتأكُّد مما إذا كنتَ تقول الحقيقة أم تكذب»!!

لم أجد أمامي سوى أن أتمسّك بكلامي، ما داما غير متأكِّدين من ذلك! بعد أن تذكّرتُ أن «جميلة» لم تُراجع، بعدُ، أيَّ طبيب أو طبيبة بشأن حمْلها.

- أرجو ألا تكذب علينا في أمر بسيط كهذا! قال المحقق الجديد، وأضاف: «إنني، نفسي، لا أحبُّ الأُسر الصغيرة، بل أمقتها»!

وعند ذلك أيقنت أنهما لا يعرفان، فكدتُ أقع مغشيًّا عليَّ لشدَّة المفاجأة التي لم تكن غير المفاجأة الخامسة!

- لم تجبني، ما رأيك بالعمل معنا؟ سألني المحقق الجديد.

أعدتُ ما قلته بشأن أسماء أولاد الجيران خائفًا من أن أتلقّى صفعة جديدة لا أعرف من أيِّ جهة ستهبُّ، وقلتُ له: «إنني والحمد لله راض بوظيفتي وأحبّها، ولا أظن أن باستطاعتي تغييرها»!

- قصائده؟ هل ما زال يكتبُ الشِّعر؟! سألني المحقق الجديد بلطف!

- أظن ذلك. لأنه يقرأ لي دائما قصائد لم أكن سمعتُها من قبل؟! قلتُ بانفعال وخوف.

- إذن أنت تعرف أُناسا غير زوجتك وأولادك! كيف تقول لي إذن إنك لا تعرف سواهم؟! صرخ المحقّق الذي خلْفي بقوة أرعبتني.

كان عليَّ أن أصمتَ، وقد وجدتُ نفسي غير قادر على الإجابة.

- صاحب مكتب الإعلانات! هذا رجل أزعَجَنا دائمًا؟ صرخ الذي خلّفي. وهنا كانت المفاجأة الرابعة!

- كيف تعرفتَ إليه؟ سألني الذي أمامي بهدوء.

- مصادفة، دخلتُ مكتبه أسأل عن عمل، فرقَّ لحالي، ووعدني أن يساعدني؟

- هكذا، دون سابق معرفة، هل تريد أن تخدعني بهذا الكلام؟! قال لي الذي أمامي مُعاتبًا.

- هكذا والله، فلم أكن أعرفه من قبل أبدًا.

- أتريد أن تقول لي إن هذا المُعارض أحنُّ منّا على النّاس بمساعدته لهم بهذه البساطة في إيجاد فرص عمل؟! سألني الذي خلفي بقسوة.

- أبدًا.

- من الجيّد أنك تدرك هذا! قال لي ذلك الذي أمامي. وأضاف: هذا يجعلنا نقطع معًا أكثر من نصف الطّريق بجملة واحدة!

- بل الطّرُق كلّها! قلت له.

- نحن لا نريد منك الآن سوى شيء واحد، أن تأتينا بأخباره. قال الذي أمامي مبتسمًا! وأضاف: «أهذا صعب عليك»؟!

- لكنني لا أعرف أخباره، لا أعرف غير قصائده!

فانفعل المحقق الجديد وقال: «أريد أن أُحذِّرك، لا تضع نفسكَ وتضعني في مشكلات مع هذا الذي وراءك، لأنه صعبٌ فعلًا! كل ما عليك أن تفعله هو أن تُوافق، وسنُعلِّمك كيف تستطيع انتزاع معلومات أهمّ بكثير من تلك القصائد! سنعلِّمك كلَّ ما لا تعرفه»!

.. ومن خلفي كانت عاصفة من غضب مكتوم على وشك الانفجار، تلفحني بنارها.

سألني المحقق الجديد عن أخبار العمل، وقال لي: «يجب أن تتحسَّن ظروف عملك! لا يمكن أن تبقى مكانك إلى الأبد! وحدَّثني عن الغلاء وتكاليف المدارس وغلاء أسعار المحروقات»! وقال لي: «ثم لا بدّ أنك تفكِّر في مولود جديد، وهذا يحتاج إلى نفقات جديدة كما تعلم»! فانتفضتُ برعب قائلا: «لا»!

- أنت تفكِّر بمولود جديد إذن؟ لا أحد ينفي بهذه الشدَّة إلّا إذا كان كاذبًا! هل هنالك مولودٌ جديد؟! صرخ مَن خلْفي.

- لا، أبدًا!

- إذا كان هناك مولود جديد، فأنا أقول لك منذ الآن ألف مبروك! قال المحقق الجديد. وأضاف: «ولكن إيّاك أن تكذب على ذلك الذي خلفك، فالأمر الأسَّهل بالنسبة إليه أن يُلقي بك في زنزانة، ويُرسل سيارة إلى بيتك لإحضار زوجتك إلى هنا للتأكُّد مما إذا كنتَ تقول الحقيقة أم تكذب»!!

لم أجد أمامي سوى أن أتمسّك بكلامي، ما داما غير متأكِّدين من ذلك! بعد أن تذكّرتُ أن «جميلة» لم تُراجع، بعدُ، أيَّ طبيب أو طبيبة بشأن حمْلها.

- أرجو ألا تكذب علينا في أمر بسيط كهذا! قال المحقق الجديد، وأضاف: «إنني، نفسي، لا أحبُّ الأُسر الصغيرة، بل أمقتها»!

وعند ذلك أيقنت أنهما لا يعرفان، فكدتُ أقع مغشيًّا عليَّ لشدَّة المفاجأة التي لم تكن غير المفاجأة الخامسة!

- لم تجبني، ما رأيك بالعمل معنا؟ سألني المحقق الجديد.

أعدتُ ما قلته بشأن أسماء أولاد الجيران خائفًا من أن أتلقّى صفعة جديدة لا أعرف من أيِّ جهة ستهبُّ، وقلتُ له: «إنني والحمد لله راض بوظيفتي وأحبّها، ولا أظن أن باستطاعتي تغييرها»!

- قصائده؟ هل ما زال يكتبُ الشِّعر؟! سألني المحقق الجديد بلطف!

- أظن ذلك. لأنه يقرأ لي دائما قصائد لم أكن سمعتُها من قبل؟! قلتُ بانفعال وخوف.

- إذن أنت تعرف أُناسا غير زوجتك وأولادك! كيف تقول لي إذن إنك لا تعرف سواهم؟! صرخ المحقّق الذي خلْفي بقوة أرعبتني.

كان عليَّ أن أصمتَ، وقد وجدتُ نفسي غير قادر على الإجابة.

- صاحب مكتب الإعلانات! هذا رجل أزعَجَنا دائمًا؟ صرخ الذي خلْفي. وهنا كانت المفاجأة الرابعة!

- كيف تعرفتَ إليه؟ سألني الذي أمامي بهدوء.

- مصادفة، دخلتُ مكتبه أسأل عن عمل، فرقَّ لحالي، ووعدني أن يساعدني؟

- هكذا، دون سابق معرفة، هل تريد أن تخدعني بهذا الكلام؟! قال لي الذي أمامي مُعاتبًا.

- هكذا والله، فلم أكن أعرفه من قبل أبدًا.

- أتريد أن تقول لي إن هذا المُعارض أحنُّ منّا على النّاس بمساعدته لهم بهذه البساطة في إيجاد فرص عمل؟! سألني الذي خلفي بقسوة.

- أبدًا.

- من الجيّد أنك تدرك هذا! قال لي ذلك الذي أمامي. وأضاف: هذا يجعلنا نقطع معًا أكثر من نصف الطّريق بجملة واحدة!

- بل الطّرُق كلّها! قلت له.

- نحن لا نريد منك الآن سوى شيء واحد، أن تأتينا بأخباره. قال الذي أمامي مبتسمًا! وأضاف: «أهذا صعب عليك»؟!

- لكنني لا أعرف أخباره، لا أعرف غير قصائده!

فانفعل المحقق الجديد وقال: «أريد أن أُحذِّرك، لا تضع نفسكَ وتضعني في مشكلات مع هذا الذي وراءك، لأنه صعبٌ فعلًا! كل ما عليك أن تفعله هو أن تُوافق، وسنُعلِّمك كيف تستطيع انتزاع معلومات أهمّ بكثير من تلك القصائد! سنعلِّمك كلَّ ما لا تعرفه»!

.. ومن خلفي كانت عاصفة من غضب مكتوم على وشك الانفجار، تلفحني بنارها.

سألني المحقق الجديد عن أخبار العمل، وقال لي: «يجب أن تتحسَّن ظروف عملك! لا يمكن أن تبقى مكانك إلى الأبد! وحدَّثني عن الغلاء وتكاليف المدارس وغلاء أسعار المحروقات»! وقال لي: «ثم لا بدّ أنك تفكِّر في مولود جديد، وهذا يحتاج إلى نفقات جديدة كما تعلم»! فانتفضتُ برعب قائلا: «لا»!

- أنت تفكِّر بمولود جديد إذن؟ لا أحد ينفي بهذه الشدَّة إلّا إذا كان كاذبًا! هل هنالك مولودٌ جديد؟! صرخ مَن خلْفي.

- لا، أبدًا!

- إذا كان هناك مولود جديد، فأنا أقول لك منذ الآن ألف مبروك! قال المحقق الجديد. وأضاف: «ولكن إيّاك أن تكذب على ذلك الذي خلفك، فالأمر الأسَّهل بالنسبة إليه أن يُلقي بك في زنزانة، ويُرسل سيارة إلى بيتك لإحضار زوجتك إلى هنا للتأكُّد مما إذا كنتَ تقول الحقيقة أم تكذب»!!

لم أجد أمامي سوى أن أتمسّك بكلامي، ما داما غير متأكِّدين من ذلك! بعد أن تذكّرتُ أن «جميلة» لم تُراجع، بعدُ، أيَّ طبيب أو طبيبة بشأن حمْلها.

- أرجو ألا تكذب علينا في أمر بسيط كهذا! قال المحقق الجديد، وأضاف: «إنني، نفسي، لا أحبُّ الأُسر الصغيرة، بل أمقتها»!

وعند ذلك أيقنت أنهما لا يعرفان، فكدتُ أقع مغشيًّا عليَّ لشدَّة المفاجأة التي لم تكن غير المفاجأة الخامسة!

- لم تجبني، ما رأيك بالعمل معنا؟ سألني المحقق الجديد.

أعدتُ ما قلته بشأن أسماء أولاد الجيران خائفًا من أن أتلقّى صفعة جديدة لا أعرف من أيِّ جهة ستهبُّ، وقلتُ له: «إنني والحمد لله راض بوظيفتي وأحبّها، ولا أظن أن باستطاعتي تغييرها»!

سمعتُ الكرسيّ الذي خلفي يسقط على الأرض بعنف ورأيتُ المحقق القديم يقفز وإذا به أمامي. تلقيتُ ضربة مباشرة على رأسي، فتجمَّعتُ كقنفذ، وسمعته يصرخ قائلا: «يا حمار، ومن قالَ لك إنك ستُغيّر وظيفتك، هل كنتَ تتوقّع منّي أن أدعوك للجلوس مكاني»؟! وهنا كانت المفاجأة السّادسة!

نهض المحقق الجديد وأبعده عنّي وهو يؤنبني: «قلت لك لا تفضحنا معه، ارْضِهِ بشيء ما، اقْبَلْ، لا أريد أن يغضب منك إلى ذلك الحد الذي يكون فيه مضطرًّا لأن يُلقيك في زنزانة، ستتعفَّن فيها قبل أن تخرج، وعندها لن أنفعك بشيء»؟! وهنا كانت المفاجأة السّابعة!

- في كلّ مرّة أكتشف أنه أصبح أكثر غباء مما كان عليه في المرَّة السابقة»! قال المحقق القديم بحنق.

- ماذا تريد مني؟ قلت للمحقق الجديد وأنا أرتجف.

- أنا؟! أنا لا أريد منك شيئًا، هو الذي يريد! وهنا كانت المفاجأة الثامنة!

- ولكنني لن أنفعكم بشيء، ولا بدّ أنكم تعرفونني أكثر مما أعرف نفسي!

ساد هدوء قلت: إن العاصفةَ بعده بالتأكيد»! نظرتُ للذي أمامي فوجدته يتبادل النَّظرات مع ذلك الذي خلْفي، وبعد لحظة سمعتُ المحقّق القديم ينهض، خبأتُ رأسي، لكنّه مضى لمكانه خلف الطاولة.

بعد قليل رأيته يضغط كبسة الجرس.

حضر الرّجل ذو الشّاربين الكثّين؛ نظرتُ إلى جواز سفري الموجود على بعد ذراع مني، لمح المحقق الذي أمامي نظرتي، فقال لي: «تريده»؟ فقلت له بخوف :»لا«! وهنا كانت المفاجأة التاسعة.

- «نظِّف المكتب»! قال المحقق القديم للرجل ذي الشاربين الكثّين، فأمسكني من يدي وسحبني للخارج كما لو أنه يريد الإلقاء بي من فوق سطح المبنى.

سرنا بصمت وهو يدفعني أمامه ككرة، فقلت في نفسي: « إنه ذاهب بي لإحدى الزنازين»! وكم أرعبني هذا!

بعد قليل تلقيت ضربة منه على كتفي الأيمن، فعرفتُ أن عليَّ الانعطاف يسارًا، فأدركت أننا ذاهبان إلى القاعة، ومنها إلى الباب الخارجي، رفع إصبعه وأشار إلى نقطة لا يراها سواه، كما لو أنه يقول: «إلى جهنم»! وهنا كانت المفاجأة العاشرة!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

قلتُ لنفسي: «سيعرف ذات يوم كلَّ شيء! سيعرف أنّني كذبتُ عليه بشأن الولد.. سيعرف كذبتي الكبرى عن عدم رغبتنا في إنجاب المزيد»!

وكم فزِعتُ وأنا أرى الكارثة بعينيّ، تنتظرني هناك، بعد شهور قليلة.

- عليَّ أن أتصرَّف بسرعة. قلتُ لنفسي.

الحقيقة!

ما أراحني قليلًا أنّهم لم يطلبوني للمراجعة بعد ذلك، ما جعل كثيرًا من الزّملاء أكثر حذرًا معي، باستثناء عبد اللطيف الذي كان يعرف كلَّ شيء، إذ وبمجرّد عودتي أصبح يُحمّلني أعباء أكثر بكثير من طاقتي: إعادة نسخ أخباري وأخبار غيري وأخبار المحافظات، وإرسالي لإعداد تقارير، يؤنبني لأنني تأخرّت في تقديمها؛ وحين أضعها بين يديه يُكوِّرها ويُلقي بها في صفيحة المهملات، ويقول لي: «ما هذا الذي تحضره؟ إنه أصلح للصَّفيحة منه إلى الصَّحيفة»! وما لبثت جملته تلك أن تحوّلت إلى مَثل أو شعار للقِسم.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

بعد أن أدرك أنني صمدتُ إلى النهاية، قال لي السيد عبد اللطيف ذات يوم: «أريدك. لا تخرج قبل أن أراك»!

أنّبني ذلك اليوم على ما ارتكبته من فظائع برفضي العمل (هناك)، وسألني: «من المجنون الذي يفوِّت فرصة كهذه»؟ قلت له: «إنني لا أعرف شيئًا أنفعهم فيه، وإنني سأكون عبئًا عليهم»! وسألته: «هل تعتقد أنني صالح لمهمة كهذه، أنت الذي تعرفني وتعرف أخباري»؟! فقال: «الحقُّ يقال، أنتَ لا تستطيع أن تفعلَ شيئًا جيدًا واحدًا، وقد فقدتُ الأمل فيك تمامًا مُذ (فعلتَها) ذلك اليوم في المكتب، مع «تائكَ» المربوطة!! أعرف أنها الآن زوجتك، ولا يجوز لي الحديث في الأمر؛ ولكن أنظر إليَّ، لم أتعجَّل، ولذا حظيتُ بفرصة زواج رائعة، أليس كذلك»؟! فهززت له رأسي: «قِسمة ونصيب»! فأشار برأسه إليَّ أن أنصرف، فانصرفت.

السؤال الغريب؟!

رئيسًا للتّحرير، أصبح السيد عبد اللطيف!

استدعاني ذات ظهيرة وطلب مني أن أتولّى أمور مكتب الإعلانات الخاص به، من أولها إلى آخرها، فقبلتُ بذلك دون مناقشة. سألته: «وعملي هنا»؟ قال: «ستتركه»!

وكنتُ سأتركه فعلًا ما دام يقول لي ذلك، ولكنه قال لي: «الأفضل، ربما، أن أخفِّف أعباء عملك هنا، بحيث يكون باستطاعتك أن تجمع العملين»! وبعد تفكير قال لي: «سيكون الأمر مؤقّتًا. فأنا أعرف أنك لن تستطيع القيام بما يتطلَّبه العمل هناك»! ثم سألني ذلك السؤال الغريب وهو يبتسم -لا بد أنه كان يريد أن يمازحني قليلا وقد رأى اصفرار وجهي -: «هل لك صاحِبة»؟! أشرت برأسي نافيًا الأمر. فقال لي: «تحتاج صاحِبة. هذا أمرٌ ضروري لك، كي تستطيع التّعويض عن مصيبتك الكبرى التي أوقعتَ نفسكَ فيها. أنت تعرف ما أعني»؟! هززتُ رأسي موافقًا. فعاد وأكَّد لي: «لا بدَّ من وجود صاحِبة لك»! فقلت له: «حاضر»! وبعد صمت راح يفكر بصوت عال: «لا أدري إن كان عليَّ أن آخذك معي في رحلتي القادمة إلى لندن، أم لا؟ لا أدري إن كنتَ تستطيع القيام بأيّ مهمة أوكلها إليك هناك؟! هل ستنجح في التعلُّم بسرعة؟ لا أدري. سأفكِّر في الأمر، سأفكّر»!

مرَّت الصِّين خطفًا أمام عينيّ، بجبالها وهضابها وغاباتها وأنهارها ووجوه سكانها الذين تجاوز عددهم المليار، وجهًا وجهًا، لكني لم أعرف بماذا أجيب؛ وتبيَّن لي أنه لا يريد مني ذلك! وحين خرجتُ من مكتبه مارًّا بمكتب سكرتيرته، حيّرني أنها أثارت انتباهي، كما لم تثره من قبل، رغم أنها كانت طيبة دائما معي، وفي مرّة سمعتها تُمازح زميلتي (ذات...) أعني «ماجدة» حين كنت أدخل مكتب رئيس التحرير، قائلة لها: «لا أعرف متى يمكننا أن نتزوج ما دام الشباب الحلوين مثل بهجت قد تزوّجوا من زمان»!

ألقيتُ عليها التحية وخرجتُ، فوجدت زميلتي «ماجدة» تبتسم لي. قلت إنها أحقُّ من أيِّ واحدة أخرى في أن تكون صاحبتي! لكنِّي عدتُ وتذكَّرتُ أنها صديقة عائلتي الآن، كما فكَّرت رغما عنّي في مؤخرتها التي ظلَّت أكبر مما يجب، حتى بعد انخفاض وزنها إثر الحادث.

قلت لنفسي، لن أجلب لنفسي سوى المشاكل إذا ما تعلَّقت بواحدة هنا، ثم إنهنَّ جميعًا يعرفنني ويعرفنَ أسماء أولادي أيضًا وبعضهنّ يعرفن اسم زوجتي، كما أن ماجدة نفسها تناديني منذ توطدتْ علاقتنا: (أبو فريد!)

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

عليَّ التفكير بفتاة مختلفة.

عليَّ ألّا أُغضِبَ السيد عبد اللطيف.

بدأتُ أستعرض في ذهني موظّفات العلاقات العامة في الوزارات والدوائر الرَّسمية وجاراتهن في المكاتب اللّصيقة. وتوصلت إلى أن عليَّ ألّا أكرّر الغلطة الكبرى التي وقعتُ فيها مع الآنسة ليلى! وحسنا فعلتُ، لأنني لم أكن قادرًا، بالتأكيد، على احتمال ضربة موجِعة أخرى كتلك.

أحيانا يكون اليأس حَلّا مُريحًا، وقد كان، وكم أفرحني ذلك.

حافّة الهاوية!

أوشكَ ذلك التحقيق الذي كتبته عن أربعة أطفال حُوِّلوا إلى المحكمة بسبب سرقتهم لعدد من ألواح الشوكولاتة، من مقصف مدرستهم الخاصّة، أن يتحوَّل بدوره إلى كارثة، لكنّه حقق شيئين ما كنت أظنُّ أن أحدهما سيتحقّق، إذ تم نشره بصورة محترمة، بمنحه ثلثَ صفحة، أو يزيد قليلا. كما وجدتُ اسمي، ولأول مرَّة، منشورًا بخط واضح لا يمكن إلّا أن يُقرَأ بسهولة.

كان التحقيق يستحقُّ صفحة كاملة! لكنَّهم ظلّوا يحذفون منه، إلى أن أصبح على تلك الحالة، مع أنني عمِلتُ الكثير كي أكتبه وأتتبّع فيه خيوط القصّة خيطًا خيطًا، إلى آخرها.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

كان الأمر أشبه بكابوس يستدعي الضّحك والدّموع معًا، حيث قامت المحكمة باستدعاء أولئك الأطفال بعد بلوغهم الثانية عشرة من أعمارهم وحكمتْ ببراءتهم، بعد ستِّ سنوات من ارتكابهم للسَّرقة، حيث لا يجوز، كما فهمتُ، أن يمثلوا أمام المحكمة وهم دون هذه السن! وبهذا القرار الشُّجاع الذي استند إلى مادتين من قانون العقوبات، كما فهمتُ أيضًا، طُويَت تلك الصَّفحة.

إحدى الأمّهات قالت لي: «كنت كلّما لمحتُ شرطيًّا في الحارة، يهوي قلبي، وأخاله يقصد إلقاء القبض على ولدي، ولهذا عشت قلِقَةً طوال هذه السنوات، ولم يكن الولد أقلّ خوفًا؛ وقد أثَّر ذلك الأمر عليه كثيرًا بسبب إثارة تلك القضية بين حين وحين، مما ترك آثارًا قاسية في نفسه وأفسدَ علاقاته الاجتماعية مع زملائه في المدرسة، أما أقسى فترة فكانت فترة توقيفهم، وهكذا تحوّلتْ حياتهم وحياتنا إلى جحيم»!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

لا أظنّ، إلّا أن القاضي الذي حكم ببراءتهم كان مسرورًا بما كتبتُ، وفخورًا به أيضًا، عكس ذلك القاضي الذي قبل القضيَّة قديمًا؛ لكن مدير العلاقات العامة البشوش كشَّر عن أنيابه بصورة مُفزعة، وصرخ في وجهي لأوّل مرة: «ألم تفكِّر في أن أمرًا كهذا سيُحرجنا لأن القضيّة بالتأكيد وصلتْ أوَّلَ ما وصلت إلى مخفر ما»؟ فقلت له: «إنني لم أفكِّر في هذا»! فطلب مني بحِزم أن

أفكِّر في الأمر. وبعد صمت شديد، قال لي الجملة التي لم أكن أستطيع نطقها أبدًا: «تصوَّر لو أن هذه المشكلة حدَثتْ مع أحد أبنائنا»؟! هززتُ رأسي بأسى، ولكني اكتشفتُ بعد لحظة، أن ابنه كان سيخرجُ من ذلك المخفر بعد خمس دقائق، فلم يكن يلزمه ليعود للتّحليق في سماء براءته إلا هاتف من مديرية العلاقات في مديرية الأمن. وتخيّلت عبد الحليم أو فريد في ذلك الموقف، فكدتُ أبكي، ولكنّي تذكرتُ أنهم في مدرسة رسميّة، لا تشبه تلك المدرسة الخاصة، التي تكون الشوكولاتة على الجدول اليوميّ لمتعةِ طلابها!

حين وصل مدير العلاقات العامة لذلك الاستنتاج، مُتناسيًا أيَّ قوَّة تلك التي يتمتَّع بها، عادت له بشاشته، ولكنه وجدها فرصة ليحذِّرني: «في مرّة تالية، عليك أن تنتبه، فليس في كلّ مرَّة تَسْلَم الجرَّة»! فهززتُ رأسي موافِقًا.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الغضب الأكبر، كان غضب إدارة تلك المدرسة التي لم يَرِد اسمها، حتى، في ذلك التّحقيق، إذ احتجَّتْ، واتّصل مديرها بالسّيد عبد اللطَيف، ثم عاد صاحب المدرسة الذي كان وزيرًا فاتَّصل به في المساء محتجًّا، بل ومُهدِّدا بالقضاء!

في اليوم التالي قال لي السيد عبد اللطيف: «عليك أن تنتبه يا بهجت، ومش كل مرَّة تَسْلم الجرَّة، ولولا أن تحويلك للمحكمة يعني تحويل الجريدة أيضًا لكان دفاعي عنك أضعف! ثم إنك، ويا لها من مصيبة، الوحيد الذي يعمل في مكتب الدعاية والإعلان العائد لي، وهذا يعني أن العمل فيه سيتوقف»!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

لكن الأمر لم يتوقّف عند هذا الحدّ، إذ، وبعد يومين من نشره، قامتْ إحدى صُحف المعارضة بنشر موضوع في صدر صفحتها الأولى عنوانه:

أطفال الشوكولاتة إلى المحاكم

وسارقو الملايين ينعمون بها دون محاكمات!

ذلك العنوان، وما تحته من تفاصيل، بما في ذلك إيراد اسمي كصحفي غيور على المصلحة العامة، كاد يدمِّر كل شيء في حياتي، ما مضى، وما سيأتي.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

استدعاني السيد عبد اللطيف، وما إن بدأ بتوبيخي قائلا الكلام الذي قاله من قبل، حتى رنَّ جرس الهاتف الأحمر بجانبه، وكنت أسمع عن هذا الهاتف الشيء الكثير. دافع السيّد عبد اللطيف عن تحقيقي، كما لا أستطيع أنا أن أفعل، وقال: «إن هذا التّحقيق دليل على نزاهة القضاء لدينا، أمّا جريدة المعارضة تلك، فهي أشبه بزوبعة في بئر وليس في فِنجان. ولا أظنُّ أنها توزِّع

عَشْرَ نسخ من كلِّ عدد من أعدادها»! وصمتَ قليلًا، ثم أضاف: «لا ليست هناك ضرورة لهذا يا باشا!! بالنِّسبة لبهجت أنا الذي سأتصرَّف معه»! وصمت قليلا ثم قال: «وأشدّ من أيِّ عقاب يُمكن أن تتّخذوه أنتم مباشرة بحقه؛ ولا تنس يا باشا، أنا تلميذكم في هذا»! وأغلق الخط.

التفتَ السيد عبد اللطيف إليّ وقال: «لا تُرني وجهك لفترة طويلة، أريد أن أنسى ملامحك تمامًا، ولن أسامحكَ أبدًا قبل أن تمحو هذه المشكلة الكبيرة التي أوقعتنا وأوقعتَ نفسك فيها، ولن يكون ذلك إلا بإنجازك شيئًا مهمًّا يمكن للجريدة أن تفخر به، هذا إن استطعتَ»!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

محطَّمًا خرجتُ من مكتبه، ولكن شيئًا في داخلي كان قد انتعش، ما دمتُ استطعتُ نقش اسمي هنا على الصفحة الرابعة، فسأنقشه على الصَّفحة الأولى. كنت بحاجة لقليل من الشَّجاعة والأمل، ولم تكن هناك امرأة قادرة على أن تمنحني إيّاه أكثر من «ماجدة»! التي همستْ لي في لحظة خَلَتْ فيها القاعة إلّا منّا: «لا عليك، الذي لا يُميتك يقوِّيك، ولا تنس أن الخبر الذي يُثير عاصفة، هو وحده الخبر المُهم، وقد حققتَ هذا بنفسك، دون مِنَّة من أحد، فامضِ إلى الأمام»!

تأملتها باستغراق، وقلت في نفسي: «لن تكون هناك واحدة أفضل منها صاحِبة لي»!!

وبقيتُ أتأملها إلى أن سمعتها تقول لي بصوت عال: «بهجت، ماذا حصل لك»؟!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

ليت الآنسة «ماجدة»، قد أدركتْ في ذلك اليوم أنك هنا لا تستطيع أن تعرف الفرْق بين ما يُمكن أن يُحييك وما يُمكن أن يُميتك؛ ليتها كانت تعرف أن الذي يُحييك قد يكون هو نفسه الذي يُميتك غالبًا.

صحوة الوحش!

كل ما يمكن فِعْله في سبيل أن تُسقط «جميلة» جنينها فعلتُه، بدءًا بالطبيبة التي لم أسمح لها بالذهاب إليها، وانتهاء بإلقاء أعباء كثيرة عليها في البيت، كأن أُبالغ في تغيير ملابسي في اليوم مرتين أو ثلاث مرات بحجَّة أنها وسخة، أو أن أقوم بتلويثها أحيانًا عن قصد بغبار على حافة نافذة أو دربزين دَرَج، أو حتى استخدام أحد أطرافها كممسحة!

لكن ذلك لم ينفع. كانت تُفكِّر، لا بدَّ، بأن ولدًا آخر سيبعدني أكثر وأكثر عن الآنسة ليلى، وليتها تعرف أنه لم يعد بمستطاعي الوصول لتلك الآنسة إلّا إذا كنتُ دولة عظمى.

حمَّلتُها أشياء ثقيلة، من تلك التي نشتريها من السّوق وسِرْت خلْفَها ودعوتها بعصبية أن تصعد الدَّرج أمامي بسرعة أكبر، لأنها تُعيق حركتي. طالبتها بطعام غير هذا الذي نضطرُّ لتناوله ثلاثة أيام متتالية، وألزمتُها أن تطبخ يوميًّا، على ما في ذلك من تبذير لا تستطيع ميزانيتنا الصّمود أمامه.

لكنها فعلتْ كلَّ شيء بصمت، وكنت أعرف السبب: الآنسة ليلى، الآنسة ليلى، حلمي الذي ارتدّ عليَّ كابوسا.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

ذات ليلة، وكنت أسوق عائدًا للبيت، وكانت الدّنيا مطرًا، ادَّعيت أن الكورولا تعطَّلتْ، بعد أن أعطيتها بنزينا بصورة عشوائية متكررة، انطفأ محرِّكها بغصَّة بنزين لم يحتملْها.

سألتني جميلة «خير»؟! فأجبتها «خير إن شاء الله»! وتصرَّفتُ كما لو أنني أحاول من جديد؛ وفي النّهاية، حين أدركتُ بأنّ الوحش الذي في داخلي قد استيقظ تمامًا، طلبتُ منها أن تترجَّل وتدفع السيارة. عندها صاحت بي كمجنونة، وقد نَسِيَتْ الآنسة ليلى: «هل نسيتَ أنني حامل»؟!

- لا لم أنس.

- إذن انزل وادفعها بنفسك!

- ولكن، إذا دفعتها بنفسي ستموتون جميعًا، فأنتِ لا تستطيعين قيادتها.

- الموت أرحم مما أنا فيه ألفَ مرة! قالت صارخة.

كان عليَّ أن أواصل ادِّعائي بإتقان، كي لا تعرف ما الذي أُفكِّر فيه، ولذلك حاولتُ مرَّة وأخرى، وكي يصلَ الأمر إلى مداه ترجَّلتُ من السيّارة وأشرتُ لسيّارات أخرى، مُسرعةً، طالبًا منها التوقُّف، لكن أيَّ واحدة منها لم تتوقَّف.

دخلتُ السيّارة مُبتلًا من رأسي إلى أخمص قدمي، وقد أحسستُ بأن الوحش الذي فيَّ قد أصبح أقلّ عدوانية، كما كانت هي نفسها قد هدأت قليلا، بل وبالغتْ في هدوئها إلى ذلك الحد الذي لم أتوقَّعه: «إذا أردتَني أن أنزل وأدفع السَّيارة فسأنزل»!

- لا مبرر لذلك، سأحاول مرة أخرى!

وبمجرد أن وضعتُ يدي على المفتاح وأدرْتُه، حدث الذي أعرفه: اشتغلتِ السيّارة.

- لا بدَّ أن الله في السماء يُراقبنا، وقد فعلَّ كلَّ شيء كي لا يُمَسَّ ما في بطني بسوء! قالت ذلك، ثم صمتت إلى زمن طويل. في الوقت الذي رحتُ فيه أُفكر في طريقة أكثر نجاحًا للخروج من مأزق الكذب على ذلك المحقق الغاضب!

جواب واحد لثمانية أسئلة!

«سألِدْ. لا بدَّ أنه المخاض».

حين قالت لي جميلة ذلك داهمني فزع لم أعرف مثيلًا له، إذ أحسستُ أن ما في بطنها، ولدًا كان أم بنتًا، سيهبطُ من رحم أمِّه إلى ذلك الملف الأزرق مباشرة، وأنه سيبكي فيه، ويتناول الحليب فيه، ويحبو فيه، ويقول أول كلماته فيه، ويمشي فيه، ويتعلَّم فيه، ولن يصل الجامعة، مثلي، فيه، بل لعلَّه يمضي لمعهد المحاسبة نفسه فيه، وسيتزوج ويُنجب ويحلم، مثلي، بالصِّين، دون جدوى، فيه، وسيموت في النهاية فيه، ويربطني بقيود لا فكاكَ منها، معه، فيه.

لا يستطيع أحد أن يتصوَّر تلك الأفكار السَّوداء التي خطرتْ لي وأنا أراها تصرخ مستغيثة، وقد تحوَّلتُ أمامها إلى تمثال.

لا أعرف إن كنتُ أتلكأ في مدِّ يد المساعدة إليها عن قصد أم عن غير قصد!

لا أعرف إن كنتُ أتهاون في إسنادها ونحن نسيرُ إلى الباب، تشيِّعنا أعين أطفالنا، ثم ونحن نهبط الدَّرج، أم لا؟!

لا أعرف إن كنتُ أخشى أن تكون الكورولا معطَّلة في تلك اللحظات، أم كنتُ أتمنى أن تكون كذلك؟!

لا أعرف إن كنتُ أتمهَّل في الرُّجوع للوراء، أم أنني لا أريد التَّحرُّك من مكاني؟!

لا أعرف إن كنتُ أحذر الوقوع في مطبٍّ، أم كنت أتعمَّد ذلك كلما رأيت واحدًا من تلك المطبّات التي تملأ الشوارع؟!

لا أعرف إن كنت أقودُ بسرعة سلحفاة زيادة في الحرص، أم أنني لا أريد أن أصِل المستشفى أبدًا؟!

لا أعرف إن كنتُ أمام غرفة العمليات، أم في قاعة ذلك المبنى، قَلِقًا أتخبَّط، في انتظار رجل بشاربين كثَّين لأُساق فريسةً سهلة لمحقِّقين متمرِّسين في انتزاع الأمل من قلبي؟!

لا أعرف إن كنتُ أتمنى سماعَ صرخة الطفل، أم أسمع نحيبها المجروح بخسارته؟!

كنت قد تحوَّلتُ إلى وحش مرَّة أخرى، وحين أدركتُ أنني لن أستطيع فِعْلَ شيء، لأن الأمر برمَّته خارج قدرتي، تمنَّيتُ أن يكون حَمْلها كاذبًا، أو أن يكون جنينها خفيًّا، بحيث ينزل من رحمها فلا يراه طبيب ولا تسمع صيحاته ممرضة، ولا يعرف بوجوده محقِّقون!!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

لم يكن ما حدَث في ذلك اليوم شيئًا يُمكنني الحديثُ في تفاصيله أكثر، فما كان كان، وقد تركته ورائي، لكني سأبقى خائفًا من أن يعرف ذلك المحقِّق بما حصل أو تعرف «جميلة».

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

في المستشفى، حدّقت في الحاجز الزُّجاجي للممرِّ المضاء بالنيونات، فرأيتُ صورة (رشيدة) منعكسة فيه، مكان وجهي، فتراجعت فَزِعًا!

بذرة االشّر

تفاصيل ما حدث ليلة مولد وليدنا الذي لم يستطع الوصول لاسمه، أعادتْ ترتيبَ الأشياء من جديد، ولعلّ ما عذّبني فيما بعد، أن «جميلة» قد أعطتْ كلَّ ما لديها من طيبة في تلك الليلة، وأنّني أعطيتُ أقسى ما لديّ.

كانت تبكي لبكائي، وتربّت عليَّ محاولَةً ما استطاعت، تناسي أحزانَها ومواساتي، ولم أكن أبكي للسبب الذي كانت تعتقدُ أنني أبكي من أجله.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

بعد أيام سوداء حاولتُ أن أعود إنسانًا، أو أن أحاول على الأقلّ، لكنَّ فزعي الآخر، كان أكبر من إحساسي بأي ذنْبٍ، وأعني: احتمال وصول خبر للمحقق يُفيد بأنني قد خدعته. وكنت أعرف أن حدوث هذا، سيجعل دورة التّحقيق تُطبِق عليَّ من جديد.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

حتى بعد سنوات طويلة، لم أكن على يقين من أنّني عدتُ إلى ما كنت عليه في السابق: الزوج المُحبّ والأب الطيّب. ولسبب ما، خفيٍّ، كنتُ أشكُّ في قدرتي على العودة إلى أن أكون ذلك الشخص الذي كنته.

بذرة شرٍّ ما، زُرِعَت هناك عميقًا في روحي، وفي لحظات كثيرة أحسستُ أن باستطاعتي القيام بأعمال شريرة فعلًا، أعمال لو رأيتها في فيلم لوقفتُ

ضدَّها، ولو قرأتها في صحيفة لتمنيتُ ألّا أكون موضوعها.

المستقبل وحده هو الذي سيحكم في هذا، ولن أعرف أبدًا ما الذي يخبئه لي من امتحانات.

الآخرون!!

تغيرات كثيرة كبرى حدثت، ليس في البلد وحده، بل في العالم كلِّه، لكن ذلك لم يقنعني أنني أصبحتُ خارج الشّبهات. كان الخوف هو الذي يتحكَّم بي، وبكلِّ الأيتام الذين مثلي، من له أصل وفصل ومن ليس له، وكأننا تُركنا لنُخيفَ أنفسنا بأنفسنا ونستدعي أنفسَنا إلى غرف التّحقيق الخاصة التي بنيناها بأنفسنا لنحقِّق مع أنفسنا بأنفسنا، وتذكرت تلك الجملة التي كان قالها لي مدير مكتب الإعلانات حين أوحيت له بأن ما يحدث معي يحدث لأنني لست أكثر من يتيم بلا أصل وبلا فصل كما قال المحقق، يومها فتح شباك مكتبه وجذبني بقوة إلى حيث يقف وأشار إلى الناس فوق ذلك الرصيف المتهالك وقال: كل هؤلاء مثلك، لقد تم تحويلهم يومًا بعد يوم إلى نزلاء فندق، عليهم أن يدفعوا ما عليهم بصمت، ويعيشوا بصمت، ويموتوا بصمت دون أن يطالبوا بأي شيء، وحين لا يكون باستطاعتهم دفع أجرة الغرفة التي هم فيها، فإن عليهم المغادرة إلى جهنم بصمت، هل فهمت؟!! هذه أوطان أشبه بالفنادق، لن يسمحوا لك أن تحبها فعلا؛ الشيء الوحيد المسموح به هنا، أن تكون قويا وتدّعي، مثلهم، حبَّها لتلتهمها أكثر فأكثر. ثم استدار وقال بأسى: هذه أوطان لثلاثة: ابن غني وابن قبيلة وابن نظام. هل فهمت؟!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

خرجتُ من عنده أكثر خوفًا، فقد كنت أعرف (أنهم) هناك، رغم تواريهم: في ظلٍّ ما، بين أوراق شجرة ما، تحت السّرير أو في الحقائب المدرسية، في ربطة الخبز وفي وقود الكورولا الخضراء التي بدأتُ ألاحظ أن لونها غدا باهتًا، أكثر فأكثر. كنت أعرف أنهم موجودون في ساعات الصَّرع العام وفي اسطوانات الغاز الفارغة والممتلئة.

إنهم (الآخرون) في ذلك المسلسل الذي قلَبَ الدّنيا رأسا على عقب، وأعني به: (Lost). تسمع همسَهم وفحيحهم، لكنك لا تراهم. ربما يكون ذلك المسلسل هو من جَعل تلك الفكرة بشأنهم تُطلُّ برأسها من رأسي، ولكن ما أخافني حقًا هو أنني بتُّ أرى نفسي خفيًّا مثلهم، ولكن الفرق الوحيد بيني وبينهم أنني لم أكن أصدر أي همس، فما بالك بالفحيح؟!

تلك الفكرة على ما يسكن زواياها المعتمة والمضاءة من فَزع، تركتْ لي هامشًا ما، أن أعود وأحدِّق في نفسي من جديد.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

في الرابعة صباحًا صحوتُ قلِقًا، خرجتُ لغرفة الجلوس، فوجدتُ شخصًا يُشبهني تمامًا، لم يكن غيري! ينتظرني بتوتُّر واضح؛ كان قد أحضر كرسيًّا ووضعه في زاوية تلك الغرفة الواسعة، وما إن رآني حتى صرخ: «لقد تأخرتَ»! وأشار إليَّ بقسوة أن أجلس على الكرسي. خائفًا رحتُ أتلفَّتُ حولي باحثًا عن نجدة ما. قلتُ له: «لا أطيق مزاحًا كهذا»! فأمطرني بنظرة جافّة اخترقتْ صدري!

جلستُ وقد أدركتُ أن الوضع أسوأ مما أتصوّر.

دار حولي ثلاث دورات ثم وقف خلفي مباشرة! وراح يوجِّه إليَّ السؤال تلو السؤال:

- أنت كذبتَ عليَّ يا بهجت، كذبتَ كثيرًا؟ قال لي.

- هذا لم يحصل! قلتُ له، وكنت أعرف أنني كذبتُ! فصفعني على رقبتي وهو يقول:

- تستطيع أن تخدع العالم كلّه، أما أنا فلن تستطيع. ووجَّه إليّ رفسةً قوية، أوقعتني أرضًا وإذا بالكرسيِّ فوقي.

- صدِّقني أنني لم أخدعك أبدًا! صدِّقني أنني كنت أحاولُ أن أريحك من متاعبي!

- لم يبق سوى أن تقول إنكَ تُشفق عليّ أيها الكلب! وركلني في بطني، فصرختُ ألما.

بعد ذلك لم يعد يسألني، فسألته: «لماذا لم تعد تسألني»؟! فردَّ بغضب: «سأسألك متى أُريد، وأستدعيك إلى هنا متى أريد أيها الحمار»!

تمنَّيتُ أن تصحو جميلة، أو أحد الأولاد، لكن ذلك لم يحدث. وكما لو أنه قد أدرك ما كنت أفكِّر فيه، ضربني ثانية وقال: «اصرخْ كما تشتهي، لن ينقذك منّي أحد»!

تمنَّيت أن تتقدّم أمّي لتحميني بصدرها، ولكنّني تذكَّرت أنها لم تعد هنا، ولو كانت، لما استطاعت التدخُّل لحمايتي في هذه الحالة الحسّاسة التي تتجاوز قدراتها. وواصل توجيه الضربات إليَّ حتى الصّباح بقسوة لا تُحتَمل.

بصعوبة استطعتُ الوقوف والوصول إلى المغسلة، كان دمي يُغطّي أرضية الغرفة وأرجل الكرسيّ والبِساط الأزرق الصغير، في غرفة الجلوس، وثيابي.

حين وقفتُ أمام المغسلة، ولمحتُ وجهي في المرآة، رأيتُه يقف خلْفي بعينين ناريَّتين ويدفعني بقوّة نحو المرآة، فوجدتُ رأسي يرتطم بها ويختفي فيها.

حين خرجت منها، تلفَّتُ حولي خائفًا، فوجدته مشغولا بتوجيه الأسئلة بعنف لشخص آخر يشبهني تمامًا. حين رآني صرخ: انصرف من هنا. فانصرفتُ. وقبل أن أصل الممرَّ المؤدي لغرف النَّوم سمعته يقول لي: «غدا في الرّابعة صباحًا، تكون هنا! مفهوم»؟!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

ما قبل النهاية

هل أعجبتك كتابتي؟!

لم يوحِ لي بهجت بأنّه أكثر بؤسًا مما رأيته من قبل، وهذا ما أفزعني.

كأن كل ما حدَث له لم يحدُث، بل بدا لي أجمل وأكثر إشراقًا من أيِّ مرّة قابلته فيها مؤخرًا، فقد منحته النظارة السوداء، التي تُخفي عينيه، وسامة فوق وسامته، بحيث أحسستُ فعلًا، أنه واحدٌ من نجوم السينما العالميين!!

قلتُ له بعد لحظات من جلوسي قبالته، وقد رأيته متلهِّفا لسماعِ رأيي في أوراقه: «لقد قرأتُ كل ما وضعتَه بين يديّ» فسألني: «هل أعجبتكَ كتابتي»؟ قلت له: «بقليل من التعديلات، أصبحتْ أفضلَ مما كتبتُه عنكَ؟!

- صحيح؟! ردَّ غير مُصدِّق.

- صحيح، ولكنّني اكتفيتُ بجزء، فقط، مما كتَبْتَهُ، فهناك تفصيلات كثيرة قد لا تخدم الكتاب على أهميتها! اخترتُ من البداية، واخترت من الوسط والنهاية.

- واسمي؟ المهم اسمي! هل بقي الاسم الذي اخترته لنفسي؟! سألني بلهفة.

- أجل.

- اعتمدتَّه إذن؟! ذكِّرني به.

- «بهجت حبيب»!

- لا بأس به، أليس كذلك؟!

- وأسماء الأولاد والزوجة والآخرين. هل بقيتْ كما هي، أعني الأسماء التي اخترتُها أنا لهم؟

- في هذه الأمور لم أغيِّر شيئًا، وأظنكَ وفِّقتَ في اختيار اسم فريد وعبد الحليم، دون أن تُجافي الحقيقة، فالاسمان الحقيقيان لولديك كانا لمطربين متناحرين أيضًا، واسم أحدهما يبدأ بـ «عبد» أليس كذلك؟!!

- أجل، ولكن أرجو ألّا تكون قد أوردت اسمًا حقيقيًّا في الرواية دون أن تُلاحظ!

- اطمئن.

- واسم الصحيفة والمدينة والحيّ والبلد وكل هذا؟!!

- لا إشارة من قريب أو بعيد لأيٍّ منها.

- كنتُ أتمنى أن أكتب لك النهاية بنفسي، ولكن ذلك بات مستحيلا كما تعرف!

- لا عليك.

- سأترك لك هذا كلّه، أعني النّهاية كلَّها، من ذهابي لمديرية الأمن ومن ثمَّ للسجن للحصول على ذلك الخبر، حتى... أعني حتى وصول...! حتى وصول الغِربان! قال متردِّدًا.

- هل تحبّ أن أقرأ عليك هذا الجزء؟

- لا، لا. لا أريد هذا أبدًا.

- هل تقصد أنكَ تقبل أن يكون ذلك الجزء نهايةَ ما كتبتُهُ أنا ونهايةَ ما كتبتَهُ أنتَ؟!

- لا. لا أريد ذلك!

- حيّرتني! قلت له.

- هنالك شيء، عليَّ أن أقوله. آخر شيء يمكن أن أقوله لك عن حياتي. هل المسجِّل معك؟!

- معي.

- أريد أن يكون هذا الأمر دقيقًا، لأنني فكَّرتُ في كلِّ كلمة سأقولها لك، فقد كتبتُهُ هنا، في هذا الرأس. وأشار بهجت إلى رأسه، وللحظة أحسستُ أن يده ستذهب في اتجاه آخر، بسبب قلّة خبرته في العمى! ثم صمتَ قليلًا وقال: «لا أريد أن تُضيف أيّ شيء على ما سأقوله؛ قد لا تصدِّق، لكني أريد أن تَعِدَني بأنك لن تحذف منه كلمة واحدة».

- أعِدُك!

سهر الأعمى!

بعد حادثة الغُرابين، أدركتُ أن أمي لم تمت!!

في البداية اعتقدتُ أن ذلك مجرد حُلْم، نعم مجرد حلم من تلك الأحلام التي نراها نيامًا، بسبب شوقنا لأحبائنا الذين رحلوا عنّا، لكن الأمر لم يكن كذلك!

ذات ليلة، بعد أن نام الجميع، وبقيت ساهرًا -لا أعرف ما الذي يمكن أن يفعله أعمى حين يسهر- اعتقدتُ أنني غفوتُ، وعند ذلك رأيتُ أمي في الغرفة التي أجلس فيها، أعني رأيتها حقًّا، ولم يكن العمى نفسه قادرًا على أن يحجبَها.

وقبل أن أفتح فمي لأقول شيئًا لا أعرف ما هو، قالت لي: «وطّي صوتك»! فوطّيتُ صوتي. ابتلعته!

قالت لي: «اسمع. أنا لم أمُتْ كما تظنّ!كلّ ما في الأمر أنني اختفيتُ، اختبأتُ بعيدًا عن أعينهم، وحين ذهبوا خرجتُ من مخبأي!

حاولت أن أفتح فمي من جديد، لكنها قالت لي ما قالته في المرَّة الأولى: «وطّي صوتك»! وشعرتُ بها تتلفَّتُ حولها خائفةً: «لا أريد أن يعرف بوجودي هنا أحد غيرك. لا تسألني إن كان على امرأتك «جميلة» أن تعرف بهذا أو أولادك! لا أحد. فاهِم»؟ وصمتت قليلًا، ثم قالت ساخرة: « أخيرًا وجدتَ لها اسمًا «جميلة»!! كي تستريح، ثم ألم تجد أسماء أفضل لأولادك من هذه الأسماء»؟!

حاولتُ أن أفتح فمي من جديد، لكنها قالت لي ما قالته في المرّة الأولى: «وطّي صوتك!ما يحدث بيني وبينك الآن لا أريده أن يتجاوز هذه الحيطان. فهمت؟! لا أريد أن يعرفوا بما يحدث فيظنونني قد متُّ فعلًا فيدفنونني، أو يعرف الموت أني لم أزل حيَّة فيأتي عزرائيل ليقبض روحي»! وصمتت قليلا: «منذ اليوم، سنعيش معًا، أنا وأنتَ، وحدنا، وسأفترض أنك لم تتزوَّج؛ هذا سهل عليَّ!! لكن، من الصَّعب عليَّ أن أتناسى أنكَ أنجبتَ، فهؤلاء الملاعين أحبُّهم، وبخاصة فريد، هذا هو اسمه الجديد، أليس كذلك؟! وطّي صوتك»!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الشيء الوحيد الذي حيّرني، أنها لم تعرف أنني أصبحتُ أعمى، وكم أراحني هذا. قلت: إن معرفة مصيبة بهذا الحجم هي الشيء الوحيد الذي يُمكن أن يَقتلَها، وإذا ما حدث هذا، فإنها لن تستطيع أن تنجو أبدًا هذه المرَّة.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

حين انتبهتُ لما يحدث، صحوتُ، أو هكذا خُيِّل إليّ.

لا أعرف في الحقيقة إن كنتُ صحوتُ فعلا، أم لا؟ لأنني لم أكن متأكدًا من أنني قد غفوت!

تلفتُّ حولي باحثًا عنها، وكأنني سأراها، لكن ذلك كان مستحيلًا، فقد كنتُ أعمى.

همستُ: الله يرحمك يا أُمِّي؟!

وإذا بصوتها يأتي قويًّا قاطعًا: «ماذا تقول»؟!

وعندها أدركتُ أنها لم تمُتْ فعلًا.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الشيء الوحيد الذي كان يؤرِّقني: طريقة موتها. وأظن أن هذا الأمر يؤرقكَ منذ ملاحظة الأستاذ غازي . م! ولذا، انتهزتُ لحظة صفاء وهدوء كانت تجمعنا وسألتُها: «ولكن أريد أن أسألكِ، كيف مُتِّ»؟!

- ألم تفهم بأنني لم أمُت، كلُّ هذا الحديث الذي يدور بيننا الآن، وتسألني سؤالا كهذا؟! إن واصلت التحدَّث معي بهذه الطريقة، سأحمل نفسي وأمشي من هنا تاركةً لك ولجميلتك البيتَ! صرخت في وجهي.

اعتذرتُ لها، بل حبوتُ، حيث صوتها، لأُقبِّل يدها، فصرخت بي: لماذا تحبو بهذه الطريقة، ألم تر يدي، هل أصبحتَ أعمى؟ أم أن الضوء مطفأ في هذه الغرفة؟!

بعد هدوء طال سألتها: هل تذكُرين «رشيدة»؟!

- مَن «رشيدة»؟! سألتني باستغراب. فأدركتُ أن ليس لديها فكرة عن الاسم الجديد الذي اخترناه لتلك الجارة.

- أعني جارتنا، التي كانت تسكن معك الطابق نفسه، وبابك يقابل بابها!

- آه، تلك! إذا كنت تريدُ أن تظلَّ ابني، فلا تذكِّرني بها. فاهِم؟!

ولكني واصلتُ: «لقد أصبحتُ أظنُّ، ولستُ الوحيد في هذا، أنها قد تكون فعلتْ شيئًا سيِّئًا ما، بروحك»!

- تقصد «طلَّعتْ روحي»!

- نعم. تمامًا، قَتَلَتْكِ!

- قتلتني؟! ما الذي تقوله؟! كأنك لا تعرف أُمّكَ! هل يمكن لامرأة مثلها أن تقتلني؟!

- خشيتُ هذا؟

- يا حبيبي، لو أنها قتلتني، هل كنتُ سأكون عندكَ الآن، أسكن معك؟!

- لا.

- هل جننتَ إذن لتسألني أسئلة كهذه؟! ما الذي حصل لك؟! أغيب قليلا، وأعود وإذا بذكائك كلّه قد تبخَّر، أين ابني الذي أعرفه؟! ابني القديم؟! وصمتتْ قليلا، ثم قالت: «وتُخبرني أن اسمها رشيدة؟! رشيدة مَن؟ هل حرارتكَ مرتفعة، اقتربْ لأحسَّ جبينك»؟

اقتربتُ: «لا شيء، أنتَ لا تعاني من شيء، ولذا عليك أن تُقفل هذا الموضوع للأبد. لأنك لو كنت تُعاني لفوتُّها لك، هذه الحماقة، لكنك لا تعاني، هل تعاني مـن شيء ما؟!

- لا، لا أُعاني!

- إذن، اقفل هذا الموضوع للأبد. هل تعِدْني؟

- أعِدُكِ.

ولم أعُد لذلك الموضوع من جديد.

بصراحة، أحسستُ أنني سأفقدها إذا ما واصلت التحقيق معها بتلك الطريقة.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الآن، نعيش معًا، كما كنّا من قبل، الأرملة الطَّيبة التي لا تُزعج ابنها في شيء، ولا تنهاني عن فِعْل شيء أريد فِعْله أبدًا، كما كانت دائمًا، باستثناء شيء واحد لا غير: حين أرفع صوتي لأكلِّمُها. وهذا يحدث كثيرًا، لأنني لا أعرف إن كانت قريبة مني أو بعيدة، وحينها تأمرني: «وطِّي صوتك»!

الآن، كل شيء يسير على ما يرام، لا يزعجنا أحد، ولم يعرف أحد أنها هنا في البيت، إلّا أنتَ بالطبع، ولا أعرف إن كنتُ أخطأتُ أم أصبتُ حين أخبرتُكَ بهذا؟!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

في الليلة الماضية أسرَّتْ إليّ: «لقد كبرتْ ابنتُك، وأصبحتْ عروسًا، وعليك أن تنتبه! إياك أن تزوِّجها لشابٍّ يكون أقلَّ جمالًا من أبيها!

سؤال أخير

«أشكركَ أستاذ عليّ، لأنك أتيت، أنت الوحيد الذي يَسألُ عنه، فكما تعرف لقد عاش دائمًا بلا أصدقاء»! قالت لي جميلة التي رافقتني لباب الخروج.

وعدتُها أن أزوره بين فترة وأخرى، إن كانت لا تُمانع، فأكّدتْ لي أن ذلك يُسعدها كثيرًا. ثم تنهَّدت: «هل تعتقد أنني قسوتُ عليه حين أراني الصَّحيفة في ذلك اليوم؟! هل كان عليَّ أن أُبدي قليلا من الفرح؟! المجاملة؟! ففي النهاية أنا زوجته، وقد كان يستحق منّي اهتمامًا أكبر، حتى لو كان اهتمامًا غير حقيقي»!

كنتُ أريد أن أقول لها شيئا، لكنّني، مثل بهجت، لم أكن أعرف ما هو.

وحسنا أنها سألتني: هل رأيت الخبر الذي نشروه عنه؟

هززتُ رأسي بأسى.

- لقد تحوَّل فعلًا، إلى ما كان يخشى، خبرًا طريفًا على الصفحة الأولى، يتسابقُ زملاؤه للحصول عليه.

- ومدت يدها بالصحيفة المُلقاة على كرسيٍّ بجانب الباب: «أتعرف! في البداية أخفيتُها، كما لو أنني أخاف أن تقع في يده، فيقرأها، فتثور ثائرته، مع أنه للحقّ، لم يثُرْ في وجهي طيلة سنوات زواجنا؛ وحين صدَّقتُ أخيرًا أنه لم يعد يرى، ألقيتها دون اكتراث، فمرَّة أراها على الطاولة، ومرَّة على الكرسيِّ ومرَّة في المطبخ، ولكنني لم أجرؤ على تمزيقها. هل تعتقد أن عليَّ تمزيقها»؟!

لم تكن تريد إجابة أيضًا، وكم أراحني هذا!

كان الخبر منشورًا بوضوح في صدر الصفحة الأولى.

وقائع أيام العاصفة الثلجية

غربان تفقأ عينيّ أحد الزملاء الصحفيين، وفاة أربعة أشخاص اختناقا بسبب المدافئ ومواقد الفحم، وانهيار سبعة بيوت في مناطق مختلفة

- «هل رأيت كيف تحوَّل إلى طُرْفة، إقرأ «! سألتني جميلة بأسى، وامتدّت يدها بالجريدة نحوي كما لو أنني لم أر ما في يدها من قبل:

(ومن غرائب أيام العاصفة إقدام غربان على مهاجمة الزميل (... ...) في شرفة منزله، ما تسبب في فقء عينيه الاثنتين، وقد ناشدت مديرية العلاقات في مديرية الأمن المواطنين توخِّي الحيطة، وحذّرت من تكرار ذلك بسبب تعذُّر وصول الطيور إلى أي شيء تأكله في حالات كهذه...)

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

كنتُ قد وصلتُ إلى الكورولا الخضراء الرابِضة بصمتٍ قرب الرصيف ، كانت هناك عشرات القطط تتقافز حولها وفوق غطاء محرِّكها وتندسُّ تحتها وتختفي، عندما سمعتُ بابًا ما يُفْتَح، بقوّة، خلفي.

بحركةٍ لا إرادية نظرتُ إلى حيث مصدر الصَّوت، فرأيتُ جميلة في الشُّرفة، توقَّفتُ، وإذا بها تسألني ذلك السؤال الغريب:

«ولكن، قُلْ لي، من أين تجيءُ الغِربان»؟!

شرفة رجل ثلج

.. ما ظلَّ خفيّا!!

....

....

....

....

....

....

ما يشبه النهاية!!

إبراهيم نصر الله

مواليد عمّان، من أبويين فلسطينيين أُقتلعا من أرضهما في عام 1948

* صــدر له شعرًا (الطبعات الأولى):

. الخيول على مشارف المدينة،1980. المطر في الداخل،1982. الحوار الأخير قبل مقتل العصفور بدقائق، 1984. نعمان يسترد لونه، 1984. أناشيد الصباح،1984. الفتى النهر والجنرال، 1987. عواصف القلب، 1989. حطب أخضر،1991 . فضيحة الثعلب، 1993 .

الأعمال الشـعرية- مجلد يضم تسعة دواوين، 1994.

شـرفات الخريف، 1996. كتاب الموت والموتى،1997 . بسم الأم والابن، 1999. مـرايا الملائكــة، 2001. حجرة الناي، 2007.

لو أنني كنت مايسترو، 2009.أحوال الجنرال -مختارات، 2011.

عودة الياسمين إلى أهله سالما-مختارات،2011.

على خيط نور.. هنا بين ليلين، 2012.

طيب مثل قلب سحابة- مختارات، 2017. الحبّ شريرٌ، 2017.

* الروايــات: (الطبعات الأولى):

. براري الحُمّى، 1985. الأمواج البرية، 1988. عَوْ، 1990.

حارس المدينة الضائعة، 1998.

الملهاة الفلسطينية (الطبعات الأولى):

. طيور الحذر، 1996. طفل الممحاة، 2000. زيتون الشوارع. 2002، أعراس آمنة، تحت شمس الضحى، 2004.

زمن الخيول البيضاء، 2007، اللائحة القصيرة لجائزة البوكر العربية، 2009. قناديل ملك الجليل، 2012.

مجرد 2 فقط، 1992. أرواح كليمنجارو، 2015.

ثلاثية الأجراس،2019:

ظلال المفاتيح، سيرة عين، دبابة تحت شجرة عيد الميلاد.

الشــرفات: (الطبعات الأولى):

. شرفة الهذيان، 2005. شرفة رجل الثلج، .2009 شرفة العار، 2010. شرفة الهاوية، 2013. شرفة الفردوس، 2015،

حرب الكلب الثانية، 2016.

* كــتب أُخرى (الطبعات الأولى):

. هزائم المنتصرين- السينما بين حرية الإبداع ومنطق السوق، 2000.

. ديـواني - شعر أحمد حلمي عبد الباقي. إعداد وتقديم، 2002.

. السيرة الطائرة: أقل من عدو، أكثر من صديق، 2006.

. صور الوجود ـ السينما تتأمل، 2008.

. كتاب الكتابة: تلك هي الحياة.. ذاك هو اللون، 2018.

* تُرجم عدد من أعماله الروائية إلى الإنجليزية، الإيطالية، الدنمركية، التركية، الفارسية، ونشرت قصائد له بالإنجليزية، الإيطالية، الفرنسية، الألمانية، الإسبانية، السويدية...

* أقام أربعة معارض فوتوغرافية، وشارك في معرض (كتّاب يرسمون): فاروق وادي، جمال ناجي، إبراهيم نصر الله، عمان،1993 .

* نال تسع جوائز عن أعماله الشعرية والروائية، من بينها:

. الجائزة العالمية للرواية العربية (البوكر) 2018، عن روايته

(حرب الكلب الثانية)

. جائزة كتارا للرواية العربية، عن رواية (أرواح كليمنجارو)، 2016

. جائزة القدس للثقافة والإبداع

(الدّوْرة الأولى)، 2012، عن مجمل أعماله.

. جائزة سلـطان العـويس للشـعر العربي، 1998.

. جائزة تيسير سبول للرواية، 1994.

. جائزة عرار للشعر، 1991.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

فريق
متميزون
E-BOOK

لينك الانضمام الى الجروب – Group Link

لينك القنـــــاة – Link

الفهرس..

عن الكتاب..
أولا !!!
1
2
3
4
5
6
7
8
9
10
11
12
13
14
15
16
17
18
19
20
21
22
23

24
25
26
27
28
29
30
31
ثانيا !!!
1
2
3
4
5
6
7
8
9
10
11
12
وأخيرا !!!
شرفة رجل الثلج .. ما لم يُقل!!
ما قبل النهاية
.. ما ظلَّ خفيّا!!
إبراهيم نصر الله
الفهرس..

Notes

[←1]

(- تبين أن ذلك الفيلم فرنسي وعنوانه:»How Much Do You Love Me?!«